الأمير شكيب أرسلان

أمير البيان في الشعر والنثر

أمير البيان

في الشعر والنثر

الأمير شكيب أرسلان

أمير البيان

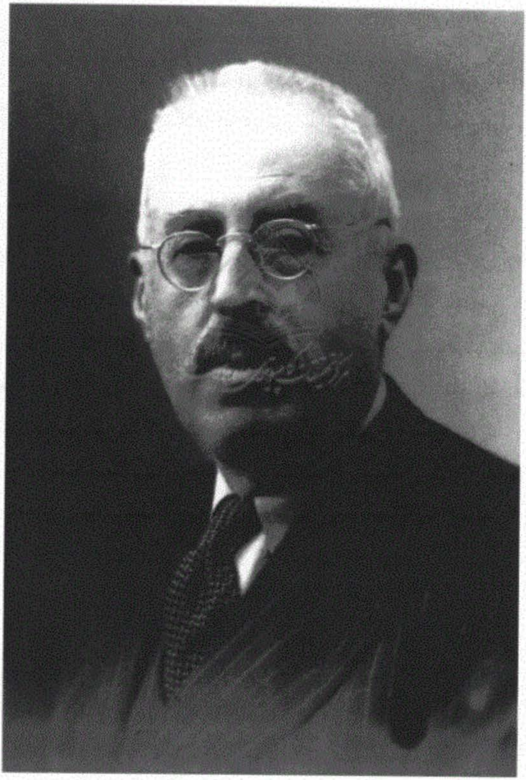
الدار التقدمية

شكيب أرسلان/ أمير البيان في الشعر والنثر
الدار التقدمية
المختارة - الشوف - لبنان
هاتف: ٥/٣١٠٥٥٥ - ٩٦١ - ٥/٣١١٥٥٥ - ٩٦١
E-mail: moukhtarainf@terra.net.lb
http://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الثانية ٢٠١١

الأمير شكيب أرسلان

١٨٦٩ - ١٩٤٦



مقدّمة

لا يُخفى على المتابع لمسيرة الدار التقدّمية في نشر فكر وتراث أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان، أنَّ هذا التراث العميم الفائدة قد أضاء على نواحٍ عدّة في نضال العالم العربي، فكان بحقّ "داعية العروبة والإسلام" الذي أبى المذلّة والهوانَ والظلم، فانغمس في السياسة مواجهًا الاحتلال الغربي.

و لم يكتفِ الأمير بالسياسة منفذًا للذود عن العروبة والإسلام، بل اتّخذ نضالاً عروبيًا رديفًا، سلاحه الكلمة والرأي الحرّ، فحفظ بالكلمة لغة العرب من الخلل والاندثار، شعرًا ونثرًا واستضاء الخَلق بفكره النيّر ورأيه السديد.

وتجدنا اليوم، ونحن في عالمٍ عربيٍّ انكفأت فيه اللغة العربية، مع ما تقاسيه من جحود ونكران، نعود إلى الأمير شكيب أرسلان، في بعض ما كتب لنعيد للّغة الأمّ مكانتها، وندرأ عنها ما اعتراها من شوائب، ونحيي من ثوابتها الكثير الصلب الذي يتحدّى الزمان.

الناشر

تقديم

دعاني إلى تأليف هذا الكتاب، إيماني الشديد بأن الأمير شكيب أرسلان لم يعطَ حتى الآن حقه من الدراسة والاهتمام، بالنسبة إلى ما قام به من أعمال مفيدة، وجهود مثمرة، يعرفها كل من تتبع جهاده ونضاله، فقد ملأ الأسماع والأبصار في الشرق والغرب في ذلك الزمان، وقد حسبت له الدول العربية والأجنبية أيما حساب، وبقي معظم مقالاته منثورة هنا وهناك، وهي تعدُّ بالمئات دون أن يهتمَّ بها المؤرخون والباحثون ودارسو الأعلام، ولبثت مدفونة حيث هي لا تصل إليها الأيدي لكي تتمتع بها العقول والافهام.

لم يترك الأمير شكيب وطنه لبنان إلاّ بعد أن أقلقه الاستعمار الفرنسي، فغادر بلاده على غير ارتياح، وفضّل العمل في قضايا بلاده ولو حُرم طيب هوائها، وسكن روابيها.

كان للأمير أفقه الواسع وتفكيره الصائب، فبعد أن ترك مركز قائمقامية الجبل مستقيلاً من أعمالها الضيّقة الآفاق، يمّم شطر الأستانة حيث كانت له علاقات وصداقات، ثم ذهب إلى أوروبا، إلى حيث المجال الواسع الرحب الذي يتسع لنشاطاته وطموحاته ورغباته، حيث يكون قريباً من الدسائس السياسية والمؤامرات التي تُحاك وراء الكواليس لاقتسام العالم العربي والسيطرة عليه.

كرّس الأمير حياته في خدمة العروبة والإسلام ومحاربة المؤامرات الغربيّة والمشاريع المشبوهة التي كانت آخذة طريقها لاقتسام البلدان العربية، ومنها اتفاقية سايكس بيكو، ووعد بلفور، ومؤتمر باريس، وسان ريمو، ونحوها. كما بذل جهداً كبيراً لتخليص عرب شمالي إفريقيا من استبداد الفرنسيين، وتحكّم إيطاليا بالأعناق والأرزاق، فأعاد المهجرين إلى بلادهم، وأعاد الأرزاق المصادرة إلى أصحابها، بعد اتصالات مثمرة أجراها مع

الدوتشي بنيتو موسوليني وأركان حكومته. كما رعى أيضاً المفاوضات الفرنسية السورية ـ اللبنانية، ورأس كثيراً من الوفود العربية، وأسهم في معظم البعثات والوفود إلى أوروبا المشتغلة في القضايا الوطنية.

ولكي ندخل في بعض التفاصيل نقول إنه في سنة ١٩٠٢ ثم في سنة ١٩٠٨ استقال من قائمقامية الشوف لكي يذهب إلى الأستانة لملاحقة بعض القضايا العربية والإسلامية، وكان يعلّق الأمل الكبير على أن الدولة العثمانية ستوحّد المسلمين تحت رايتها، ولمّا أنس ضعفها ولمس عجزها عن الاضطلاع بهذه المهمة، تحوّل إلى فكرة تحقيق الوحدة العربية، فشغلته معظم قضاياها، فكان أول ما استثاره أوضاع العرب في إفريقيا الشمالية وتحكّم الفرنسيين والإيطاليين فيهم، فوجه مساعيه نحو تلك البلاد يهتم بقضايا: تونس والمغرب والجزائر. وشارك شخصياً في الحرب الليبية ـ الإيطالية في عام ١٩١١ ـ ١٩١٢ مع القائد أنور باشا الذي أصبح بعدئذٍ أحد قادة تركيا الجديدة. كما أنه أولى الثورة السورية الكبرى التي أثارها سلطان باشا الأطرش، كثيراً من اهتمامه.

وبذل مساعيه الحميدة أيضاً للصلح بين أمام اليمن وابن مسعود، ووقف مع القضية المغربية والقضية الجزائرية، وقام بمسعى بين مصر والحبشة.

وإذا ما نظرنا إلى الكتب التي ألّفها الأمير يسترعي النظر فيها معالجته لهموم العالم الإسلامي ومشاكله. والمعركة الكبيرة التي احتدمت بينه وبين المزورين عليه ومنتقديه خاصة المستشرقين حول الرسول، ورأيهم في الدين الإسلامي، وبعض مبادئه وأسسه.

* * *

إن الألقاب التي أطلقها كبار رجالات العلم من زعماء ورؤساء وشعراء وأدباء وسياسيين على الأمير شكيب في زمانه كثيرة أهمها:

السياسي الكبير: أعطته صولجانه الصحافة المصرية.

أمير السيف والقلم: ناداه به العلاّمة المرحوم سليمان البستاني.

أمير الجهاد: نعته به الأتراك.

أمير البيان: بايعه به الرأي العام الأدبيّ.

حارس الإسلام الأمين: أطلقه عليه المجاهد الأكبر الحاج أمين الحسيني، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في القدس.

أبو القنابل: ألبسه حلّته الحجة الكبير الزعيم العراقي الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء. وقصد بهذا اللقب تلك القنابل التي كان يلقيها تباعاً الأمير الأرسلاني في أوروبا على مضطهدي العرب وغاصبي حقوقهم المشروعة، هذه القنابل التي وصفها هذا الرجل بأنها محشوة بأغزر مادة قتالة لو كان الناسُ يعقلون أو ينصفون.

نسابة العرب: أكسبه إياه كتابه المخطوط (بيوتات العرب) وأحاديثه التي كانت تنم على سعة معرفته بالأنساب، فضلاً عن أنه ينتمي إلى أُسرة عربية عريقة في الحسب والنسب.

القلعة: أوردته جريدة «الجامعة الإسلامية» أخذاً عن الأستاذ نعيم أبو ضبة خريج جامعة كاليفورنيا، حيث قال بما رأى وشاهد:

عرَّجت على (جنيف) لأرى حال الوطنية المغتربة، قبل العودة إلى الوطن العزيز، فقال لي الأمير شكيب:

ـ موعدنا مقهى في أحد شوارع العاصمة جنيف.

وسارعت في الوقت المعين، فألفيتُ رجلاً ارتسمت على وجهه متاعب الحياة وأعراض الشيخوخة ـ هذا هو الأمير ـ وهذه هي القلعة التي أقامها الجهاد العربي في سويسرا، يطالع الغرب كل يوم بآية تحمل على احترامه، وتمتد إلى الشرق بتحذير الوقوع في أحابيل المستعمرين.

وجميع المعاني التي تستبطنها هذه الألقاب، كانت ممثلة فعلاً في الأمير شكيب، فكان سياسياً محنّكاً، وشاعراً مجيداً، وكاتباً مكثراً، ولغوياً جهبذاً، ونصيراً للعروبة والإسلام أوحد.

كان الأمير شكيب أرسلان، رجلاً لا يعرف النوم، ولا يعرف الملل ولا

يقعد به اليأس، عن تدبيج المقالات التي كانت تنشرها الصحف والمجلات، وتناقلتها الوكالات في كل مكان، وكان يجيب عن الرسائل التي كانت تصله يومياً بالعشرات من مختلف أنحاء العالم.

* * *

قسمت هذا الكتاب إلى أربعة أقسام هي:

- القسم الأول: شؤون وشجون، وهو شيء مما كان يتعاطاه الأمير مع شخصيات لها وزنها، ومن كان يبادلهم الآراء حول قضايا وطنية، وهو تكملة لما قد نشرته في كتابي الأول عن الأمير شكيب «أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه».

- القسم الثاني: في رياض الشعر، وهو مما نظمه الأمير في مناسبات كثيرة ومعظمه غير موجود في ديوانيه المطبوعين.

- القسم الثالث: من هنا وهناك. وهو مجموعة أفكار ومقالات كتبها الأمير في فترات مختلفة، تكشف أضواء جديدة على الأمير، وبعضها منشور للمرة الأولى.

- القسم الرابع: يتعلَّق ببعض الوثائق والمستندات عن الأمير التي أمكننا العثور عليها بعد جهد جهيد.

وقد استغرق مني هذا العمل أكثر من ثلاث سنوات، وأنا منكبٌّ على البحث عن تراث الأمير في الكتب وفي الصحف وفي الدوريات ومعظمها ليس بالسهل الوصول إليه، لأن معظمه موجود في الخارج.

وقد اخترت منها، من مئات المقالات المناسب لهذا الكتاب، لأن بعضها قد تجاوزه الزمن، ولا يناسب نشره في الوقت الحاضر. ومؤخراً ذهبت إلى دمشق للحصول على مزيد من الوثائق والأسانيد المتعلِّقة بالأمير، فنشرت في هذا الكتاب بعضاً مما حصلت عليه. وكم كنت أتمنى الذهاب إلى مصر وتونس والمغرب والجزائر وليبيا ولندن وروما وباريس وجنيف ونيويورك، لأجمع قائمة من آثار للأمير شكيب، وهي غزيرة وذات قيمة تراثية كبيرة، ولكن الأوضاع المادية وغير المادية لم تسمح لي بذلك.

إني لآمل أن يكون هذا الكتاب مرجعاً يستفاد منه، من خلال المقالات المنشورة فيه، وسنداً للباحثين والمؤرخين والمهتمين بالشأنين السياسي والفكري، وبأعلام كان لهم تأثيرهم الفاعل ووزنهم المهم في الشؤون السياسية للبلاد.

كما أنني سأثابر بعون الله تعالى، على السعي للحصول على المزيد من الوثائق والمراجع عن الأمير الذي قلَّ نظيره بين رجال العالم، وسأمثلها للطبع في حينه.

نجيب البعيني

وجدنا في كتاب «عروة الاتحاد بين أهل الجهاد»، مقالات كتبها الأمير، في عدد من الصحف والمجلات العربية والأجنبية، جمعها ونشرها عبد اللطيف الخشن، صاحب جريدة (العلم العربي) في بونس أيرس، عام ١٩٤١.

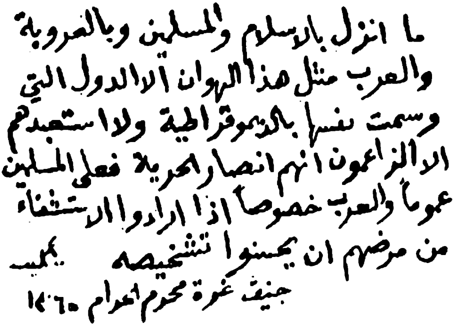
وفي الكتاب هذا النصّ الذي يمثّل رأي الأمير ننقله بحرفيته: الكتاب والتعليق:

ما أنزل بالإسلام والمسلمين وبالعروبة والعرب مثل هذا الهوان إلاّ الدول التي وسمت نفسها بالديمقراطية ولا أستعبدهم إلاّ الزاعمون أنهم أنصار الحرية فعلى المسلمين عموماً والعرب خصوصاً إذا أرادوا الاستشفاء من مرضهم أن يحسنوا تشخيصه.

شكيب أرسلان

جنيف غرة محرم الحرام ١٢٦٥

لقد شئنا نشر جملة كتبها سعادة الأمير بخط يده الكريمة تحت رسمه فسحبناها على الزنكوغراف لما فيها من سداد الرأي، ورقة المعنى، وللتاريخ أيضاً.


ما انزل بالاسلام والمسلمين وبالعروبة
والعرب مثل هذا الهوان الا الدول التي
وسمت نفسها بالديموقراطية ولا استعبدهم
الا الزاعمون انهم انصار الحرية فعلى المسلمين
عموماً والعرب خصوصاً اذا ارادوا الاستشفاء
من مرضهم ان يحسنوا تشخيصه   شكيب
جنيف غرة محرم الحرام ١٣٦٥

لقد شئنا نشر جملة كتبها سعادة الامير بخط يده الكريمة تحت رسمه فسحبناها على الزنكوغراف لما فيهامن سداد الرأي، ورقة المعنى، وللتاريخ ايضا.

الفصل الأول

شــؤون وشــجون

في هذا القسم شيء مما كان للأمير شكيب من تعاطٍ مع بعض شخصيات ذلك الزمان، وقد أوردناهم تباعاً بحسب الترتيب الألفبائي.

الأمير شكيب أرسلان
والشيخ أسعد العقيلي

فيما نحن ننقب في أوراق ومفكرات المرحوم الشيخ أسعد العقيلي (١٨٩٦ ـ ١٩٨٠) عثرنا على وثيقة تاريخية مهمة، كتبها بخط يده وهي من ذكريات الحرب العالمية الأولى، حول تطوع مئات الدورز في ذلك الوقت، للدفاع عن قناة السويس. وقد كانت تلك الحملة يومذاك، برئاسة المغفور له الأمير شكيب أرسلان، ننشرها، لأنها تضيء حقبة من تاريخنا، وتكشف جانباً من سيرة الأمير شكيب أرسلان.

يقول الشيخ أسعد العقيلي في وثيقته: «كتب إلي الأمير المجاهد ـ وكانت بينه وبين المرحوم والدي صداقة متينة طالباً مني أن أوافيه إلى صوفر في أول يوم من سنة ١٩١٥. لأكون برفقته في جملة المتطوعين فلبيت الدعوة وذهبت في الموعد المعين إلى صوفر وكانت وفود القرى وجمهور من المجاهدين في انتظار القطار الحديدي الصاعد من بيروت. وكان يقل الأمير وبعض رفاق الجهاد. فركبنا جميعاً القطار الذي أقلنا إلى دمشق.

وقد تأخرنا في رياق بسبب عطل حصل للقطار وبعد إصلاحه سار بنا فوصلنا إلى دمشق ليلاً وبتنا تلك الليلة في مجلس الشام القائم في حي باب المصلي.

أما في الليلة التالية فقد أعدت لنا الدولة العثمانية قاعة فسيحة في قشلة ـ ثكنة ـ الحميدية على المرجة مهيئة لكل منا فرشة خاصة وفي اليوم التالي دعينا إلى القلعة ليسلمونا الأسلحة والألبسة. ورفضت الكثرة منا أن تتسلم السلاح الذي كان يستعمله العسكر اللبناني في ذلك الوقت. أي (بارودة بزلاقة). وبقينا في دمشق نتمرن على الحركات العسكرية الحربية استعداداً للذهاب إلى الجبهة في ترعة السويس.

وقد أبدى فريق منا تذمره من هذه التمرينات. مما حمل الأمير على أن يقف معنا في الصف يقوم بالتمرينات ككل واحد منا وهو يقول لا يمكن أن نرافق الجيش في الحرب إن لم نكن متمرنين على جميع الحركات العسكرية مثله.

بقينا على هذه الحال نحو عشرين يوماً، وأخيراً صدر إلينا الأمر بالسفر إلى معان. ومنها إلى الترعة بطريق سيناء وكان ذلك في الثالث والعشرين من يناير /كانون الثاني سنة ١٩١٥. وقد سافرنا في القطار الحجازي الذي يصل إلى المدينة المنورة. فوصلنا معان في الخامس والعشرين منه. فنزل الأمير شكيب ضيفاً على منصور بك عبد الصمد الذي كان يشغل وظيفة متصرف في الكرك. ونزل قسم منا في الخيام والقسم الآخر في بيوت القرية.

وبعد بضعة أيام طلبوا منا أن نذهب إلى محطة القطار التي تبعد عن القرية مسافة ساعة ونصف الساعة مشياً على الأقدام. فذهبنا إلى هناك حيث استبدلوا بالسلاح الذي كنا تسملناه من دمشق سلاحاً آخر. لأنه يتعذر علينا أن نحمل له ذخيرة خاصة، بخلاف الذخيرة التي حملها الجيش. وذلك كي يكون سلاحنا وسلاح الجيش من نوع واحد. وهو ما تقضي به الأعمال الحربية. وقد أمر بذلك وهيب باشا الذي حضر حينئذٍ من الحجاز حيث كان والياً هناك. وقد عينته الدولة قائداً للجناح الأيسر الذي نحن فيه. لأن جمال باشا كان قائداً للجناح الأيمن لجهة العقبة وبئر السبع. وقد سلمونا في محطة القطار سلاحاً ألمانيا جديداً. ثم لحقونا ضد الهواء الأصفر (الكوليرا). ثم رجعنا إلى معانٍ. وفي أحد الأيام جرى عرض للجيش ووقف العسكر الذي كان في تلك المنطقة بمعداته. وكنا في طليعة هذا الجيش لأن الدولة كانت تميزنا عن البقية لأننا لبنانيون، غير خاضعين للتجنيد الإجباري، وكانوا يضعوننا عن يمين الجيش. وبعد أن دار وهيب باشا عارضا العسكر وقف مع أركان حربه. وأخذ الجيش يمر أمامه حسب النظام العسكري.

في تلك اللحظة وصل الأمير شكيب وقال لنا إن الباشا يريد أن يسمع حداء بلادكم. فانقسمنا فرقاً وأخذنا في الحداء كما هي عاداتنا. فسُرّ الباشا كثيراً، وعندئذٍ أطلق أحد الرفاق الرصاص من بندقيته فدبَّت الحماسة في

صدور بقية المجاهدين وراحوا يطلقون النار بحماسة حتى بلغ ما أطلقه كل واحد أكثر من عشرين طلقة. وقد كان لهذه البادرة وقع طيب في نفس الباشا. أما ضباط الجيش فقد اعترضونا، ولكن إطلاق الرصاص لم يهدأ حتى حضر الأمير شكيب وقال: يكفي ذلك. فوقف إطلاق النار. وبقينا سائرين. وكان قد صدر أمر يقول إن كل من يطلق الرصاص دون سبب يجلد خمساً وسبعين جلدة. وكانت مكافآتنا أن بعث وهيب باشا إلينا في اليوم التالي أربعة رؤوس من الغنم.

بعد أن مكثنا في معان ما يقارب الشهر صدرت إلينا الأوامر بالذهاب إلى قلعة النخل. ثم نجتاز صحراء سيناء. وعندما كنا في معان وصلت إلينا أربعة أفراس من جياد الخيل. وستة عشر صندوقاً من الزبيب السلطي هدية للأمير من أصدقائه عرب الجوابري. وأخيراً امتطينا الخيل والجمال، ورحنا نقطع الصحراء. ووجهتنا قلعة النخل التي كان الإنكليز قد نسفوا قسماً منها قبل تركها، وهي قلعة قديمة يرجع تاريخها لعهد السلطان سليم العثماني. وقد تهدم القسم الشرقي من القلعة أما القسم الغربي فلا يجسر أحد أن يتقرب منه مخافة أن يكون ملغوماً.

وبينما نحن سائرون هبّت عاصفة قوية يرافقها برق ورعد أعقبهما شتاء غزير حتى لم بعد أحد يستطيع البقاء على صهوة جواده، بل سرنا على الأقدام مسافة تزيد على خمس ساعات. وكانت الجمال تنزلق في الوحول فنضطر أن نساعدها على النهوض لتستأنف المشي، وقد تبللت ثيابنا تماماً. وفي المساء وصلنا إلى محطة اسمها (لافة) وكان برفقتنا في هذه السفرة ضابط كردي اسمه نور الدين بك معه أربعمئة متطوع من الأكراد.

وفي اليوم التالي، بعد أن سرنا نهاراً كاملاً، وكنا قد قطعنا الجبال المسماة جبال الشراة، وصلنا إلى السهل، وهناك وجدنا محطة أيضاً اسمها (غرندل). والذي ضايقنا في الصحراء عدم وجود الماء. فكنا نضطر إلى حمل الماء مسافة ثلاثة أيام على الأقل، وبعد السير سبعة أيام في الصحراء، وصلنا إلى محطة تدعى (خان التلة). وقد حرف البدو اسمها فكانوا يسمونها (فانتلا). وفي الحرب العربية ـ الإسرائيلية الأخيرة كانت تسميها الجرائد

كورتيلا. وبعد ذلك بثلاثة أيام وصلنا إلى قلعة النخل، فوجدنا جميع الخيام التي تخص الجيش فارغة لأن الجيش كان يقوم بعملية استكشاف. وهاجم الإنكليز ترعة السويس فتكبد الجيش التركي خسائر جسيمة. ولم يرجع نصف الذين في هذه الخيام، وكان ذلك في شهر فبراير /شباط سنة ١٩١٥، وفي أحد الأيام فوجئنا بصراخ وضجيج، فخرجنا لنرى ما الخبر فرأينا عدداً من الرجال مكبلين بالحبال ومسوقين إلى ساحة القتل، وكان عددهم تسعة، وبعد أيام قتلوا عشرة. وبعد ثلاثة أيام قتلوا ستة آخرين، وهكذا كنا نرى هذه الفظائع ترتكب باسم القانون العسكري، وبقينا هناك خمسة وعشرين يوماً، ثم صدرت الأوامر بالرجوع إلى معانٍ، ولم يكن نصيبنا من التعب أقل مما كان عند ذهابنا، وكنا نرى بعض الناس في تلك الصحراء يأكلون الجراد بعد أن يشووه على النار.

العودة:

وصلنا إلى معان ومكثنا هناك ثلاثة أيام، ومنها ركبنا القطار راجعين إلى عمان، حيث نزلنا ضيوفاً على عرب الجوابري أصدقاء الأمير بالزرقاء، وبقينا نتنقل في مزارعهم مدة ثلاثة أيام، ومن هناك انتقلنا إلى ضيافة عرب يقال لهم العجارمة، ثم نزلنا في أرض السلط حيث نزلنا على عرب العدوان، فنزل الأمير ضيفاً على الأمير سلطان العدوان ابن الشاعر المشهور نمر العدوان، وقد ذبح الأمير سلطان للأمير شكيب ثمانية رؤوس من الغنم، وكان «المنسف» مملوءاً بالأرز، مع أن الأرز لم يكن يوجد إلاَّ نادراً، ومن هناك ركبنا وركب الأمير سلطان مودعاً الأمير شكيب إلى جسر نهر الأردن الذي كان يطلق عليه اسم نهر الشريعة، وكان من الخشب، واليوم أصبح يسمى جسر الملك حسين، بعد أن بناه الإنكليز على الطراز الحديث. . ووصلنا إلى أريحا مارين بجانب بحيرة لوط ومكثنا في أريحا أسبوعاً ثم ذهبنا إلى القدس.

دخلنا من باب الخليل مارين في شوارع القدس القديمة إلى ثكنة عسكرية كانت قبل أن يحتلها الجيش التركي ديراً ومركزاً للرهبان قرب باب العمود، وأخيراً صدرت الأوامر بأن نذهب إلى بيت لحم. حيث نزلنا في بناء

كان مدرسة إنكليزية. أما أنا ومحمد بك سامي نكد فقد رجعنا إلى القدس ونزلنا ضيوفاً على شخص اسمه محمد منذر من رأس المتن. وكان هناك بوظيفة جاويش حراس، وبقينا هناك مدة عشرين يوماً، أما الأمير شكيب فضاف عند رجل اسمه سليم عرار. وهناك كنا على اتصال باللبنانيين المتغيبين في القدس. وكانوا ينزلون في فندق الملك داود، وأخيراً صدر إلينا الأمر بالسفر إلى نابلس فذهبنا إليها ونزلنا في خان اللبن على الطريق، وفي اليوم التالي تابعنا السفر إلى نابلس. وبينما كنا في الطريق رأينا عربة تجرها الخيل واقفة بجانب العربة التي يستقلها الأمير شكيب، ونزل منها أشخاص سلموا على الأمير، وكان الأمير شكيب يقول لأحدهم: وأنت إلى أين ذاهب، أنت لست من المطلوبين، ويجب أن ترجع حالاً.

وبالفعل أنزل الأمتعة وكان معه ابنه، وكان ذلك الرجل خليل بك الخوري، والد المرحوم الشيخ بشارة الخوري وولده فؤاد. والتفت الأمير شكيب إلي قائلاً: أوصل البك إلى عند الجمالة الذين سأوقفهم إلى حين وصولكم، عندما ألحق بهم في الطريق.

وقد بقيت معهما إلى أن مرَّ من هناك أشخاص حملوا لنا أمتعة البك. ومشينا مسافة طويلة، فتعب خليل بك وابنه، وكنا وصلنا بقرب بلدة تدعى حوارة، فقلت للبك وابنه لينتظراني برهة ريثما أدبر لهما دابتين يمتطيانهما حيث نصل إلى نابلس، واتجهت نحو القرية. وعندما علم أهل القرية أن عسكرياً يسير نحو بلدتهم أسرعوا بإخفاء دوابهم خوفاً من (السخرة) التي كانت متبعة من قبل الأتراك في أيام الحرب، وقد أمسكت برجل يدخل بغلاً وحماراً إلى أحد الأقبية فقلت له: يا أخي لا تخف، فنحن لسنا عسكراً ولا نريد بكم سوءاً، بل معنا عاجز نريد أن نوصله إلى نابلس وإني مستعد أن أدفع لك أجرة دوابك سلفاً.

ثم مددت يدي قائلاً: كم تريد أجرة الدابتين أي البغل والحمار. فقال ريالين مجيديين. فدفعت له القيمة ونزل معي إلى الطريق حيث كان خليل بك وولده ينتظراني. وركب البك دابة وركبت أنا والشيخ فؤاد الثانية، ووصلنا إلى نابلس وبتنا تلك الليلة فيها، وفي اليوم التالي نزلنا إلى محطة للقطار

اسمها (سيبسيا) ومنها ركبنا القطار إلى درعا ثم إلى الشام بعد أن بقينا في محطة سمخ طول النهار، لأن القاطرة قد تعطلت، فطلبوا قاطرة أخرى من الشام أو درعا، وقد ربطوا القاطرتين حتى تمكن القطار من الوصول إلى درعا، ومنها بقينا سائرين إلى دمشق. وفي اليوم التالي ركبنا القطار إلى بيروت فوصلنا إلى عاليه مساء.

الأمير شكيب أرسلان وأعلام من جبل عامل

الأمير شكيب أرسلان والشيخ أحمد عارف الزين والشيخ أحمد رضا والأستاذ سليمان الظاهر أربعة من كبار أعلام اللغة والفكر والأدب والتاريخ والشعر تساقطوا الواحد منهم بعد الآخر، وغابوا عنّا بأجسادهم فقط، ولكن كتاباتهم الفكرية والأدبية مازالت ماثلة أمامنا أغنت مكتبتنا العربية بنفائس الكتب الفكرية والكثير من الأعمال الأدبية التي مازالت باقية إلى أيامنا هذه يتناقلها الناس سنة بعد سنة وجيلاً بعد جيل.

كل من هؤلاء كانت له مكانته الرفيعة وشأنه الأدبي الرصين في حقل اختصاصه لا يضاهيه فيه أحد من الكتّاب.

والأمير شكيب أرسلان كانت له علاقات وطيدة واتصالات مكثفة بمعظم علماء جبل عامل وأدبائه، وكانت له معهم مراسلات ذات شأن تدلُّ على ما كان يتمتع به الأمير من مكانة عالية في عالم الأدب وكثافة العلاقات الاجتماعية مع النخبة العالية من العلماء والكتّاب والمفكِّرين، وهذه الصداقة الراسخة معهم أعطت نتائج جيّدة على مختلف المستويات فكان لها أثرها في الشأن الأدبي والوضع الفكري في تلك الفترة.

ويأتي في مقدمة هؤلاء الذين أحبهم الأمير وأحبُّوه، نذكر على سبيل المثال: الشيخ أحمد عارف الزين وكامل بك الأسعد والأستاذ سليمان الظاهر والعلاّمة محسن الأمين والدكتور علي بدر الدين والعلاّمة حسن يوسف والشاعر محمد علي الحوماني والشيخ أحمد رضا والشاعر محمد كامل شعيب

العاملي. وسوف نقصر الكلام على أربعة من هؤلاء هم: أحمد رضا وسليمان الظاهر وأحمد عارف الزين ومحمد كامل شعيب العاملي.

* * *

الشيخ أحمد رضا: (١٨٧٢ ـ ١٩٥٣): كاتب وشاعر لغوي ضليع، كان عضواً بارزاً في المجمع العلمي العربي بدمشق، ناضل، وكافح ضد العهد العثماني، وزرع بذور النهضة الأدبية والفكرية، وساهم في إنشاء «الجمعية الخيرية العاملية». له الكثير من الكتب أشهرها، «معجم متن اللغة» و«ردُّ العاميّ إلى الفصيح» و«رسالة الخط والدروس الفقهية» و«رسالة الخطب» نشر معظم مباحثه العلمية ومقالاته في مجلة «العرفان» و«المقتطف» وفي «مجلة المجمع».

وعُرف الشيخ أحمد أول الأمر بآثاره الأدبية يوم كان في عهد الدراسة، ولوعاً بتتبع نفثات اليراع في الجرائد والمجلات، ولا سيما ما كان يكتبه الأمير في جريدة (الأهرام) بتوقيع (ش)، ثم بمناظرته مع الإمام اللُّغوي الشيخ إبراهيم اليازجي، فلم يجد الشيخ رضا إنسجاما واتِّساقاً في بيان الأمير أكثر مما كان يجده من كتَّاب ذلك الزمن من إنصاف في الرأي وتحقيق في المطالب.

ثم اجتمع به يوم زار (المدرسة العلمية) وانتظم الأساتذة والتلاميذ حوله حلقة، كان الأمير شكيب شمس القلادة فيها، وتجاذبوا أطراف الأحاديث العلمية والأدبية وأنشده بعض منظوماته، فأعجب بها الأمير وقرّظها أحسن تقريظ، ومن جملتها، قصيدة سليمان الظاهر، ثم ازدادت الصلات وثوقاً بعد هذا.

ولمَّا كتب في (المقتطف)، في عام ١٩١٠ مقالاً بعنوان «المتاولة والشيعة في جبل عامل»، وقد ناظره يومذاك، ثقة الإسلام علي بن موسى التبريزي، دخل في هذه المناظرة الأمير، وكان في هذه المناظرة إلى جانب الشيخ أحمد رضا، وجرت المناظرة في عدة أجزاء من المقتطف، وأراد الأمير أن يثبت شيئاً من ذلك في كتابه (حاضر العالم الإسلامي)، عند طبعه للمرة الثانية، فكتب إليه من (لوزان)، يطلب نسخة عنها لأن أجزء المقتطف لم تكن

في متناوله فأرسلها إليه فوراً فأثبتها في الكتاب المذكور (المجلد الثالث والرابع، من صفحة ١٩٣ إلى ٢٠٤).

وكتب إليه العلاَّمة الشيخ أحمد رضا، رسالة من (النبطية) في ١٦ ش، ١٣٥٤، ١٣/ ١١/ ١٩٣٥، يقول له فيها:

سيدي المجاهد الكبير والعلاَّمة النحرير أمير البيان الأمير شكيب أرسلان حرس الله مهجته وأطال للأمة بقاءه.

لقد طلع عليَّ كتاب الأمير مع البدر في النصف من شعبان، فكان الكتاب أزهر، ونوره أكثر، ولا عجب فالأمير أعزَّه الله واحد الدهر، ونادرة الفلك في غرِّ صفاته، وزاكي أخلاقه وأعراقه. من غيره متقدة في سياسة حكيمة، إلى علم جمٍّ في أدب رائع، ومن ساطع برهان، إلى تفوّق في الفصاحة والبيان، يجمع ذلك إلى نسب مجيد، انتظم كعقود الدرِّ وسلاسل الذهب. وقد قرّت عيني بما أسبغ الله على الأمير أعزَّ الله به العرب والإسلام من نعمة الصحة، فلا يبالي معها بكيد الكيدة، ولا بحسد الحسدة. فقديماً بلي العظماء، بمثل ما بليت، وقديماً قال القائل:

أن يحسدوني على أن لا نظير لهم وهـل رأيـت عظيمـاً غيـر محسـودِ

وقد سمعنا ما لقي المرسلون وهم رسل الإصلاح، والقوّامون عليه من إعنات ونفاق. وما لقي سيِّدنا المصلح الإلّهي الأعظم سيِّد العرب والعجم من قومه حتى في أمسِّ الناس به رحماً كأبي لهب ورأيت أيدك الله ما لقي نابغة العرب في السياسة والأخلاق الملك فيصل رحمه الله. وما كان يفضي به إليك. فصبراً صبراً يا سيدي على كيد الكائدين، فالحق أحقّ بالإشراف والباطل أولى وأجدر بالإزهاق، والعاقبة للمتقين.

وإن ما جاء به الأمير حيَّاه الله من إيضاح سياسته الحكيمة المؤسسة على الغيرة الفاضلة، والحميّة الباسلة في سبيل أمته ووطنه. في هذه الفتن الضاربة بأطنابها العالقة بأنيابها لم يزدني علماً بأصالة رأيه، وسعة اختباره، وجودة طريقته فى جهاده. فإننا من ذلك كله على مثل وضح النهار. وسأرسل كتاب الأمير إلى صديقه وصديقي الأستاذ نجيب الرَّيس صاحب (القبس) الدمشقي

لينشر ما شاء منه في قبسه أيضاً لسياسة الأمير أعلى الله كلمته، في ظلمة هذه الشكوك التي كادت تؤخذ العامة بزبارجها والله وليّ التوفيق.

ما ما تفضَّل به الأمير لازالت نِعَمْ الله عليه سابغة، من كتاب (حاضر العالم الإسلامي)، فقد قبلته وقابلته بالشكر والدعاء إلاّ أنه إلى اليوم لم يصل ولعلَّه على الطريق. وأما (روض الشقيق في الجزل الرقيق)، فإننا لم نره بعد، ونحن إليه متطلعون وله مرتقبون.

وأختتم كتابي هذا، بتحيّات أخي وزميلي الأستاذ الشيخ سليمان الظاهر، الذي ملأت محبة الأمير قلبه. وأثني بسلام صهري أبي كامل الصبَّاح وإخوانه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أحمد رضا

الشيخ سليمان الظاهر (١٨٧٣ ـ ١٩٨٠): كان مؤرخاً وشاعراً وناثراً وباحثاً، ولد في (النبطية) وانتخب في عام ١٩٢٧ عضواً في المجمع العملي العربي بدمشق، وعضواً في المؤتمر الإسلامي في القدس. من آثاره القلمية: «الفلسطينيات» و«العراقيات» و«تاريخ قلعة الشقيف» و«معجم قرى جبل عامل» و«تاريخ الشيعة السياسي» و«الردُّ على القادرية». قال الشيخ سليمان في مقالة كتبها عن الأمير في مجلة (العرفان) عدد كانون الأول سنة ١٩٥٥:

«... لم تقم شخصية إسلامية في هذا العصر المتذبذب الزاخر بكل ما يصرف الوجوه عن حياة الروح ويغمرها في حمأة المادة ولا في غيره من العصور بمثل ما قام به الأمير ولا عُني واحد من المسلمين بمثل ما عُني به من أمورهم الدينية والاجتماعية والسياسية، والوقوف على مختلف شؤونهم وشجونهم، والاتصال بعظمائهم بكل ما يصلح من مجتمعاتهم، ولا نغالي إذا قلنا: إنه هو المُسلم الذي وهب راحته وذهنه ويراعه بل نفسه للإسلام والمسلمين، ولم يغمض له جفن وللمسلمين بلد يقض مضاجعهم به ظالم، أو يبخس أشياءهم مستبد، ويتحكم في أعشارهم وأبشارهم غاصب».

ويقول الشيخ سليمان الظاهر في مقال آخر كتبه بعد وفاة الأمير في سنة ١٩٤٧، في عدد مجلة (العروبة) لمحمد علي الحوماني، الجزء الثالث، شهر

آذار، بأن رسائل الأمير إليه معين أدب فيّاض وصفحة لامعة من بيانه العذب الساحر، وترسّله البارع فلم يبق منها العهد التركي سواء أكان قبل الحرب العامة أم في أثنائها شيئاً، بل أتلفت كما أتلف الشيء الكثير من مثيلاتها، خاصة بعد أن أصابه ما أصاب المشتغلين في القضية العربية، من تفتيش مكتبه وسوقه إلى محكمة (عاليه) ومكثه مدة شهرين في السجن، في عهد جمال باشا، وكانت للأمير مساعٍ بيضاء من انقاذه من خطر الموت والنفي. كتب الأمير إليه من (جنيف) في ٢٧ ذي القعدة ١٣٥٤ هـ. يشرح فيه شرحاً ضافياً بمجريات فضائح الحبشة وإساءاتهم للمسلمين ومزوّري الكتاب عن لسانه ومستنداته في كل ما جرى به يراعه من فظائع الأحباش وفضائح المزوّرين، وقد جاء في هذا الكتاب ما يلي:

«... ثم أن هذا (البلشفيكي) ـ شخص من بنت جبيل ـ الذي سمعنا صوته من يجعل كلامي عن إرهاق الحكومة الحبشية لمسلمي بلادها من قبيل الدعاية لإيطالية وبجهله أو بسوء نيته يتعامى عن حقائق ليس له ولغيره فيها حيلة.

وأرجو منكم ومن حضرة أخيكم الأستاذ الشيخ أحمد رضا أن ترسلا إلى مصر وتشتريا نسختين من (كتاب الإسلام في الحبشة) للأستاذ المؤرخ الآثاري المحقق يوسف أحمد، فهو كتاب مائة صفحة ملخّص تلخيصاً ولكنه كله مدعوم بالوثائق، ومنه يتضح أن الأحباش يتسلّطون على أعراض المسلمين ودمائهم فضلاً عن أموالهم. وليس مؤلف هذا الكتاب ذا صلة بالسياسة حتى يقال: إن كتبه لأجل خاطر إيطالية. وأنا نفسي كتبت الموضوع نفسه في (حاضر العالم الإسلامي)، الطبعة الأولى، من أثنتي عشرة سنة، لم تكن حرب بين إيطالية والحبشة حتى يقال: إني إنما أردت استجلاب المسلمين نحو إيطالية فأقرأوا هذا الفصل في الجزء الثالث من حاضر العالم الإسلامي من صفحة ٧٨ منه إلى صفحة ١١٩ حتى تعلموا وتنصحوا مثل هذا الجاهل الذي من بنت جبيل بأن لا يهرف بما لا يعرف. وكذلك سبقت لي مقالات كثيرة في (الجهاد) و(الفتح) وغيرهما من مسلمي الحبشة الذين عندي منهم مكاتب وتقارير لو نشرتها لكانت مجلّداً، ومع هذا فنحن نُشتم لأجل

دفاعنا عن المسلمين بألسن من يقول: إنه من المسلمين.

وأخيراً (وما صبرك إلاّ بالله ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون). ومني سؤال خاطر الأستاذ الشيخ أحمد رضا، وكثيراً ما أفكر في جبل عامل وأتخيل تلك الديار ولكني أذرف الدموع عندما أتذكر صديقي المرحوم كامل بك الأسعد الذي لم أكن أعزُّ عليه أحداً وكذلك من درجوا إلى رحمة الله من آل الفضل فالله يروح أرواحهم عند ربهم ويطيل بقاءكم».

وكتب إليه في ٧ مايس سنة ١٩٣٠ س (لوزان) جواب رسالة بعث بها إليه يعزيه بوفاة ابن عمه الأمير فؤاد أرسلان، قال فيها:

حضرة الأخ القديم والشهم الكريم والأستاذ العظيم الشيخ سليمان الظاهر أطال الله بقاءه،

لا يثقل عليك قولي: الأخ القديم فكلنا صرنا قدماء. ولا نعلم هل نتمكن من مشاهدة بعضنا بعضاً ولو بنظرة قبل الممات. أم نفوت وكل ما بيننا مناجاة أرواح ومراسلات نفوس: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

مضى أخي نسيب ولم أقدر أن أشاهده وأخشى أن أمضي ولا أشاهد سليمان الظاهر ولا أحمد رضا ولا أحداً ممكن تسكن نفسي إليهم، وتشعر بوجدانها الاتحاد مع نفوسهم. كل ذلك مردّه إلى الله لا إلى البعيد الذين لا يملكون مصاير الأمور. تلقيت كتابك الكريم وفيه المرثاة التي تستنزف الدموع على الذي بكته الناس جميعاً بدون تكلُّف «الحبيب فؤاد» رحمه الله.

ولقد كان لي في كتابك شفاء وعزاء، وما يدرك الإنسان بمثل المصائب قيمة الأصدقاء وذلك أن الإنسان ضعيف لا يستطيع بعد وقوع المصاب أدنى حيلة وإنما يداوي جرح قلبه بالصبر وبالنظر إلى الأصدقاء من حوله: وكلما كان صديقه أخلص كان له أنفع. وكلما كان أوفى كان له أشفى. أسأل الله أن يطيل بقاءك وأن لا يرينا عليك ولا يريك على أحد من الأعزة سوء. وأن يشد بك أزر الأدب ويجعلك من مفاخر العرب. وتقبّل مزيد شكري وثنائي

وخالص ودّي وولائي وسلامي وأشواقي إلى الشيخ أحمد رضا وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

أخوك: شكيب أرسلان

وأرسل الأمير من (جنيف) بجواب يشكره على كتاب التعزية الذي بعث به إليه بوفاة الأمير توفيق مجيد أرسلان، ويعبِّر فيه أيضاً عن ارتياحه لحضور حجة الإسلام الإمام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في (القدس) في عام ١٩٣١، وتعميم الدعوة لكل من تجمعهم جامعة الإسلام على مختلف مذاهبهم وأديانهم. والرسالة مؤرخة في ١٨ كانون الأول سنة ١٩٣١، قال:

حضرة الأخ الأستاذ العلاَّمة.

إني ألقي إلى كتابك الكريم المتضمن التعزية بانتقال ابن عمنا توفيق مجيد أرسلان إلى رحمة باريه تعالى وشكرت تلطفكم وتفكركم بي في هذه المصيبة كما إني طوحت بي طوائح هذه الغربة، لم أزل محوطاً بتوجهاتكم القلبية شاعراً برعايتكم لي على بعد الديار وتنائي الأوطان والأوطار، ولاشك أن هذا من الإخوان الكرام الأعزة، هو مما لا يخفف ألم الغربة ويكف عن غرب الكربة، فالناس جنود مجندة من الأرواح ينصر بعضها بعضاً على البعاد ولو غابت عن الأبصار ولا رابطة في الدنيا تحاكي في القوة رابطة المبادىء، وبهذه المناسبة أبثُّكم سروري بحضوركم أنتم والأخ الشيخ أحمد رضا أطال الله بقاءكما في المؤتمر الإسلامي بالقدس وكذلك سرَّني جداً، أن تكون أول صلاة أُقيمت بجماعة المؤتمر قد كانت بأمانة السيِّد الأكبر محمد الحسين آل كاشف الغطاء، كبير مجتهدي الشيعة، فإن هذا ما كنَّا دائماً نتمناه من الاتحاد بعد أن صار الإسلام إلى ما صار إليه في هذه الأوقات، ولمَّا كان الحاج أمين الحسيني يتطلف دائماً باستطلاع أفكاري في هذا الموضوع وكان مشروع المؤتمر كله قد تقرَّر بيننا وبينه هنا في جنيف يوم مروره علينا عائداً من لندرة فقد تكلمت معه من ذلك الوقت، ثم كتبت إليه في الأشهر الأخيرة بأن يدعو إلى المؤتمر رجال الشيعة وحكومة إيران وعلماء النجف، كما يدعو رجال الحكومات الإسلامية الأخرى وعلماء السنَّة، ولقد قام الحاج أمين حفظه الله،

كما يجب عليه من ذلك، وعسى أن يكون هذا المؤتمر مبدأ لحياة جديدة وأنه يتكرر انعقاده تنعقد الأفكار أعمالاً وتزكو الأعمال وتنمو الهمم وينتقض الإسلام من غبار الخمول الذي هو فيه والذي لا مبرر له. وأسأل الله أن يمتع بكم هذه الأمة ولا يرينا عليكم سوء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

جنيف ١٨ كانون أول سنة ١٩٣١

أخوكم

شكيب أرسلان

وأرسل الأمير إليه كتاباً آخر في موضوع شواغل العالم العربي وقضايا كتابية، قال فيها:

چنيف ٤ محرم الحرام ١٣٥٥

حضرة الأخ الأجل الأستاذ العلاّمة الشيخ سليمان الظاهر المحترم أطال الله بقاه. إن شغلي الكثير يمنعني أن أطيل وعفوك العظيم يطمعني في التقصير. قصيدتك في (التزويرة) بعث بها الأخ أمين بك خضر إليّ وفي الحال أرسلتها إلى الأخ سيف الدين رحّال في (بونس أيرس) لنشرها في كتابه (ابن زين الدين العاملي). طيّه صورة كتاب كتبته أمس وبعثت به مسجّلاً إلى الأخ الأستاذ إسعاف النشاشيبي، وهي صورة حرفية تطلعون عليها الأخ العلاّمة الأستاذ الشيخ أحمد رضا ومن تثقون بهم لا غير.

علمت أن الأخ الشيخ أحمد رضا، نشر كتابي الثاني إليه في (الجهاد) فهل هذا صحيح؟ لم أتنبه له في الجهاد، فهل يرسل هو ذلك إليّ.

أكرر عليكما الرجاء أن تستحضروا من مصر كتاب (الإسلام في الحبشة) للأستاذ يوسف أحمد حتى تعلموا ما يجري على المسلمين هناك... وتخبروا (أفوكاتو) الحبشة فيلسوف بنت جبيل...

أنا ما رأيت أمة أجهل بمصالحها من الأمة التي نحن فيها... ثبت الآن بتوقف المفاوضات الإنكليزية ـ المصرية، إن إنكلترة تريد احتلال مصر

عسكرياً بدون تحديد مكان ولا زمان، فالحبشة لها حق الاستقلال، ومصر ليس لها حق الاستقلال! فتأمل! وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

ودمتم لأخيكم أبي غالب

الشيخ أحمد عارف الزين (١٨٨٣ ـ ١٩٦٠): ولد في بلدة (شحور) من أعمال صور، وتلقّى مبادىء القراءة والكتابة في القرية، ثم انتقل إلى (صيدا). فانكبَّ على المطالعة والتحصيل والبحث ونظم الشعر وكتابة المقالات لمختلف الصحف والمجلات كالمقتطف وثمرات الفنون وحديث الأخبار والاتحاد العثماني، دفاعاً عن وطنه الذي كان في ذلك الوقت غارقاً في الظلام ومكبّلاً بأغلال الاستعباد والاستعمار. أنشأ مجلة العرفان في سنة ١٩٠٩، وأتبعها بجريدة أسبوعية باسم (جبل عامل)، وكان بيته في صيدا محجة للعلماء وسوق عكاظ للأدب والأدباء إلى أن توفاه الله في ١٥ تشرين الأول سنة ١٩٦٠.

نذكر من مؤلفاته:

«تاريخ صيدا» و«مختصر تاريخ الشيعة» و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» للقاضي جرجاني، علّق عليه مع بعض الشروح، و«مجمع البيان في تفسير القرآن» للطبرسي، في عشرة أجزاء علّق عليها مع بعض الشروح والإضافات.

يقول الشيخ أحمد عارف الزين في عدد (العرفان) شهر كانون الأول، سنة ١٩٤٦، عن الأمير شكيب ما يلي:

علم من أعلام الأمة العربية، وعبقري من عباقرتها الأفذاذ، ونابغة من نوابغها المجلّين، وعالم من علمائها، وأديب من أدبائها أصحاب الأدب الرفيع، وشاعر من شعرائها المجيدين، وأمير نال الإمارة عن تراث لا عن كلالة، فكان أحق بهذا اللقب من كل أمير ووزير، وكاتب كان المثل الأعلى فيما رقم وكتب، ومؤلف ضرب الرقم القياسي في التأليف والتصنيف حتى طبع له أربعون ألف صفحة عدا المخطوط وهو يعادل المطبوع. ووطني من الطراز المعلم إذا عدَّ الوطنيون المخلصون فهو من الرعيل الأول شرَّق

وغرّب، وأفصح وأعرب، وتبدّى وتحضّر، وهو في كل حالاته «عربيّ عربيّ عربيّ». ثم يشرح لنا الشيخ أحمد كيف تعرّف بالأمير فقال:

عرفت الأمير شكيباً في شرخ الشباب وأنا في عهد الطفولة وذلك في سنة ١٣٢٠ هـ. وقد آب من فلسطين معرّجاً على (النبطية)، فزار أستاذنا العلاّمة السيّد حسن يوسف، وكنّا بحضرته، مع بعض أكابر تلاميذه وفي طليعتهم الشيخ سليمان الظاهر والشيخ أحمد رضا، فقرأ قصيدته في معركة حطين ومطلعها:

أحسن ما فيه يسرح النظر ... وادٍ بحيث الأردنّ ينفجر

ويقول فيها:

يا شرق هونين لديك جرى ... معين ماء حصاؤه درر
الشطر تكّ القاضي يسلسله ... والشطر من بانياس ينحدر
والحصباني بات إثرهما ... يشتدُّ في الجري ليس يصطبر

ويمضي الزين قائلاً:

«وقرأ له يومئذٍ الشيخ سليمان الظاهر مرثية في الحاج علي عسيران، وكان توفي حديثاً، فأعجب بها غاية الإعجاب وقال:

ـ لو سمعناها قبل تلاوة قصيدتنا لما تلوناها.

ولا غرو فالأمير كان معجباً جداً بالشعر العاملي وله به كلمة طيبة جداً وشهادة عدل حسنة نشرت في (العرفان) وأراد نشرها ثانية أستاذنا الظاهر فشطبتها المراقبة لأنها بقلم الأمير.

ويقول أحمد عارف الزين مضيفاً:

إن مراثي الأمير شكيب كانت تُنشد فتشجي وتثير، وإن الشيخ ديب بيضون كان كالمتخصص في إنشاد المراثي، وإنه أنشد ذات يوم قصيدة الأمير شكيب في أحمد باشا الصلح ـ وهي ليست في الديوان ـ فأشجى بها سامعيها، حتى أن الأمير شكيب نقده عشر ليرات عثمانية، قال الأمير في مطلعها:

الله يا لبنان ما لك ثابتٌ ... والراسيات تزلزلت فتزلزل

واشتدت أواصر الصداقة بينه وبين كامل بك الأسعد، حيث كان الأمير

نائباً في البرلمان العثماني عن جبل حوران، وكامل بك عن جبل عاملة وبيروت. لذلك لمّا بلغه نعيّه سنة ١٣٤٣ هـ. وهو في سويسرة فرثاه بمرثية شجية نشرت في الديوان، جاء فيها:

هوى لفقدك ركن الشرق واحرابا يا كاملٌ من يسلي بعدك العربا
لو كنت مع حاتم الطائي في زمن ما نال في الكرم الإسم الذي كسبا
يا أمة سكنت أكناف عاملة وأوطنت شعفات العز والهضبا
هل عندكم قومنا عن كامل خبرٌ فقد أتانا نبا أن قد نأى ونبا

وكتب الأمير إليه بخصوص المطالب السورية الوطنية في جمعية الأمم، ويتجلى من هذا التوضيح أن الأمير شكيب كان دائب الخدمة للوطن وللأمة، وقد عنونها تحت «كلام الأمير أمير الكلام» نشرها في (العرفان) في عدد آب ١٩٢٨، يقول فيها:

حضرة الفاضل الأجلّ صاحب مجلة العرفان المحترم وفّقه الله.

قرأت في العدد الأخير من مجلتك الجليلة أن الأمير لطف الله والدكتور شهبندر قد يحضران إلى جنيف لمراجعة جمعية الأمم. وقد توجّست من ذلك خيفة أن تحصل بيننا وبينهما مشادة على حين أننا أحوج إلى السدّ منا إلى الفتق إلخ. فأنا أؤكد لك يا حضرة الفاضل أنه لن يحصل بيننا وبينهما أدنى مشادّة. لأنهما إن راجعا جمعية الأمم على أساس المطالب السورية الوطنية ـ وهي معروفة لا حاجة إلى تكرارها دائماً ـ فنكون تلاقينا معهما في نقطة واحدة ولا يهمّ بعد ذلك أن نكون وإياهما أصحاباً أو غير أصحاب. بل تفهم عصبة الأمم أن السوريين رغم اختلافهم مجمعون على مطالب واحدة لا يحيدون عنها فيكون ذلك أقوى للقضية. وإن راجعا جمعية الأمم ببرنامج مخالف لمطالب الوطنيين السوريين أو متضمن نقاطاً مضرّة أو جملاً مطاقة مبهمة تتناول معنيين. . . فهناك جمعية تأسيسية هي الممثلة الرسمية للبلاد، وهناك رأي عام في البلاد يكفياننا المشادة والمشاجرة معهما. نحن يا حضرة الفاضل ـ أتكلم باسم الوفد السوري ـ لسنا بغيان منصب ولا زعامة ولا وزارة ولا إمارة ولا شهرة ولا مال ولا مجد. وكل هذه الأشياء تنحصر عندنا في استقلال حقيقي للوطن إذا متنا من بعده نموت ووجداننا مستريح وأنفسنا

راضية مطمئنة. وهذا كل ما ننتظره من وراء سعينا.

كل واحدٍ من أبناء الوطن يسعى لهذا الاستقلال الحقيقي سعيه فهو منّا وفينا وإلينا سواء كان يحبنا ونحبه شخصياً أم لا؟

والوقت زعيم بكشف كل شيء ولكل نبأ مستقر والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

شكيب أرسلان

وكتب الأمير إلى الشيخ أحمد رضا رسالة نشرتها «العرفان» في عدد أيار وحزيران سنة ١٩٣٩، وقد علّق عليها الشيخ رضا بكلمة جاء فيها:

«الأمير شكيب أرسلان أشهر من أن يعرَّف فهو أمير البيان، والعلم الخفاق في البحث والتاريخ والعلم والأدب، نال بنضاله عن العرب والإسلام والشرق عامة مكانة سامية في النفوس، فهو والحق يقال أمة في رجل، وقد عيّن رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق، وهو ابن بجدته، فغادر سويسرا وعرّج على مصر وألقى فيها الآن عصا الترحال محاطاً بكل رعاية وعناية واحترام وقد تفضّل بهذا المقال من مصر.

أما الرسالة فهي بعنوان «مصر واسطة عقد الشرق» ننشرها في ما يلي:

حضرة الأخ الأستاذ صاحب مجلة العرفان المحترم،

سألتني رعاك الله فصلاً عن مصر أهديه إلى العرفان. فيا ليت شعري ماذا عساني أقول عن بلد هو مصر أمصار الشرق وحجته البالغة بإزاء الغرب والموئل الذي تأزر إليه الأمة العربية من كل فج والمركز الذي يعول عليه المسلمون من كل قاصية وفيه ملتقى الحضارتين الشرقية والغربية ومنتظم حاشيتي الثقافتين القديمة والجديدة وفيه كان وضع أساس المدنية البشرية ومنع تألقت أنوارها ففاضت إلى اليونانيين الذين هم هذّبوا القارة الأوروبية من رشح المدنية المصرية وفيه الآثار الخالدة التي لا توجد في بلد آخر ولا تضارع عظمتها عظمة في الدنيا كلها فيعرف منها أن مصر كانت مهد العلوم والمعارف منذ آلاف مؤلفة من السنين قبل أن تشدو الأمم الآرية قليلاً من

العلم ولا كثيراً وماذا أقول في أرض قيل إنها «كنانة الله في أمره (؟)» وجاء في حقها قوله تعالى ﴿يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ ولقد كانت من قبل الإسلام ومن بعده مصدر الخير والمبر والمثل الأعلى للزرع والضرع والموئل للشرق يوم الفزع الأكبر والبلد الذي طالما آوى منه الإسلام إلى ركن شديد وما من حقبة انحطت فيها مصر بعوامل مختلفة من حروب داخلية أو غارات أجنبية إلاّ كفلت لها تربة واديها نهضة سريعة وهبة غير منتظرة وعادت إلى سابق مجدها وآنف عزها وأنظرها الآن ولم يمضِ على استقلالها الحقيقي غير عامين وشيء تجدها كأنها قد جرت أذيال خلافة عباسية أو فاطمية أو رفلت في مطارف صولة طولونية أو أيوبية، فإذا مضى على المملكة المصرية خمسون سنة مثلاً وهي راتعة في بحبوحة النعم الطبيعية التي أفاءها الله عليها، مستقلة بإدارة شؤونها غير خاضعة لأية إرادة أجنبية فكيف تصبح مصر حينئذٍ بين الدول وأية منعة يؤتيها تعالى وأية قوة وعزة تكون لها بإزاء الأجانب منها للشرق جميعاً وأي كهف للإسلام قريباً كان أو بعيداً وأية عاصمة تكون منها للعروبة المحيطة بمصر من شرقها ومن غربها ومن عن إيمانها وعن شمائلها، لا جرم أن هذه هي الأمنية الكبرى والضالة العظمى التي يجب أن يعمل لها كل عربي في الأرض حتى تكون مصر كهفاً لكل أمة عربية وما ذلك على الله بعزيز.

إني أقمت بأوروبة زهاء ثلاث وعشرين سنة وندر أن أجهل عاصمة من عواصمها وأن من هذه لما دخلته عشرين وثلاثين مرة وأن من بلدانها ما أعرفه أحسن مما أعرف سورية وطني الذي عرفته هو أيضاً حق المعرفة وقلّما زوي عني به شيء ومع هذا فأقول غير مبالغ ولا غال: لو أنصف السائح القاهرة لوجدها في الصف الأول من عواصم الكرة الأرضية فإن فيها من المزايا ما لا يوجد في غيرها وذلك أنك إذا شاهدت حواضر أوروبة شاهدت فيها أوروبة ولم تشاهد آسية وأما مصر فإنك ترى فيها أوروبة وآسية وإفريقية معاً وتطلع على الشرق معانقاً الغرب وتظفر بالقديم الأقدم مصافحاً للحديث الأحدث وتجد من كل من الطرازين أعلاه درجة وأصحه نسبة ففي القاهرة اليوم مبانٍ ومؤسسات لا يفوقها في أوروبة شيء من نوعها اتقاناً واشتمالاً على المرافق

المصرية وتجد الجامعة المصرية التي تعد في الجامعات الأولى في العالم وتجد في القاهرة مستشفى هو أكبر مستشفى في المعمور يسع ثلاثة آلاف سرير وتجد الكتب التي فيها نصف مليون مجلّد ودار الآثار العربية بما ضمّت من النفائس النادرة وتجد المتحف المصري الذي فيه من آثار الفراعنة ما لا يقع عليه ثمن ولا تملك مثله دولة ولا أمة وهذا إنما أنا أورده على سبيل التمثيل لا على سبيل الاستقصاء وقد كنت بين المدعويين إلى سراي عابدين في أثناء أفراح مصاهرة الدولة المصرية للدولة الإيرانية فكان المدعوون يموج بعضهم في بعض وإذ أمامي رجل من عمال الدولة الفرنسية كنت أعرفه فقلت له: ما رأيت في أوروبة ما يفوق هذا السراي في الزخرف فقال لي وقد أشار إلى البهو الكبير الذي كنا فيه وهو من الطراز العربي الأعلى: لا والله لا يوجد في أوروبة شيء في فخامة هذا السراي. ثم سألت فقيل لي إن المرحوم الملك فؤاد أنفق على زخرف سراي عابدين وحدها ٢٥٠ ألف جنيه وأنفق على تزيين القصور الملوكية كلها مليوني جنيه. فأية مملكة في الشرق تقدر أن تنفق على زينة قصورها دون بنائها الأصلي مليوني جنيه؟ وطفت في مسجد الرفاعي وهو من المساجد المحدثة العصرية وفيه مدافن الأسرة المالكة إسماعيل باشا وأولاده ومنهم السلطان حسين والملك فؤاد رحم الله الجميع فعلمت من الوكلاء القائمين على المسجد العارفين بتاريخه أنه أنفق عليه وعلى ملحقاته وعلى المدافن المذكورة ما يناهز مليون جنيه ولا شك في أن الفن الذي فيه من جهة الصنعة المعمارية والأبهة والزينة لما يدهش الأفكار ويبهر الأبصار تقضي فيه الساعات ولا تمل مشاهدة بدائعه وصليت إحدى الجمع بجامع القلعة وكنت أعرفه من زهاء نصف قرن فرأيت فيه تغيراً عما كان فسألت عن ذلك فقيل لهم إنهم جددوا القبة وأبلغوها هذا الارتفاع الهائل الذي نراه وزادوا في زخرفة هذه الزيادة فكانت كلفة إصلاحه هذا ١٥٠ ألف جنيه فتأمل فهذا مثال من أمثلة. ثم أنه إلى جانب هذه الآثار الجديدة تجد من الآثار القديمة مثل مسجد ابن طولون المعدود من أوسع مساجد الإسلام ومسجد السلطان قلاوون ومسجد السلطان حسن وغيرها مما يقصده السياح في كل يوم فيقضون فيه وقتاً طويلاً وهم حيارى ببدائع الزخرف ومتانة البناء وقد زرت جامع السلطان مثل هذه الآثار الخالدة فخراً لملة الإسلام وغرة في

جبين الأيام رأيت سماكة حيطان هذا الجامع تبلغ ستة أمتار حتى أنك تدخل في النافذة فكأنك منها في بيت صغير ومهما بالغ الواصف في وصف متانة البناء فإنه يبقى من تحت الحقيقة فقد ذكروا لي أن العسكر المصري في زمن بونابرت كان جانب منه في هذا الجامع فضربه الفرنسيون بالقنابر (بالراء لا باللام لأنها باللام غلط) فلم يخلخلوا منه شيئاً وهزأ بقنابرهم وشاهدت مكان وقوع القنبرة فإذا به جورة في الحائط لا يكاد الرائي يلحظها إن لم ينبَّه إليها وفي هذا الجامع قوس ليس في أقواس الدنيا له مثيل وكنت رأيت لمسجد السلطان حسن صوراً كثيرة في مجاميع الصور التي ينشرها الأوروبيون للآثار الشرقية الخالدة التي منها الشيء الكثير في القاهرة وما أراني آتياً هنا منها إلاَّ بلمحة دالة فإن بلداً فيه مثل الأهرام وفيه هذه المساجد العظام لما تنقطع دونه أباهر الكلام ويفتضح في وصفه عوار الأقلام فأقنع مني بهذه العجالة فيكفي من القلادة ما أحاط بالجيد والسلام.

شكيب أرسلان

محمد علي الحوماني (١٨٩٨ ـ ١٩٤٦): ولد في قرية (حاروف)، كان عضواً في مؤتمر وادي الحجير، وعضواً في مؤتمر الوحدة السورية، الذي انعقد في (دمشق) عام ١٩٢٨، وعضواً في المؤتمر الإسلامي في بيت المقدس سنة ١٩٣٢.

من آثاره: «ديوان الحوماني» و«نقد السائس» و«المسوس والمآسي» و«في باريس» و«مع الناس». أنشأ مجلة «العروبة» وأصدر عدداً خاصاً عن الأمير شكيب أرسلان جمع ما قيل فيه بعد وفاته.

يصف الحوماني كيف كان أول تعارفه بالأمير في مقالة كتبها في مجلته، وكان تعارفه به في سويسرا، حيث بقي محمد علي الحوماني أياماً، وعندما أراد الحوماني مغادرة سويسرا إلى (باريس)، أبى الأمير إلاَّ أن يشيِّعه إلى محطة القطار بالرغم من شيخوخته وبرد الليل القارس، ورجاه العودة ولكنه أبى وبقي ينتظر هو والأمير عادل وإحسان الجابري مدة ساعة. وسأله الأمير عن بعض أصدقاء له في جبل عامل منهم: الشيخ عبد الحسين شرف الدين.

وأرسل إليه كلمة لتوضع في ديوان الشاعر محمد علي الحوماني فوصلت بعد طبع الديوان وفيها يبدي الأمير رأيه في الشعراء العامليين وفي شعر الحوماني، نشرتها «العرفان» بعنوان «الشعر والشعر العاملي» في عدد أيلول سنة ١٩٢٧، جاء فيها ما يلي:

«الشعر الذي أرسلت إليّ بأنموذجاته أيُّها الأديب العربي يكفي في وصفه أنه من عائلة الشعر العاملي.

والله يعلم أني مازلت أقرأ شعر العرب في هذا العصر من منجد ومتهم، ومعرق ومشئم، ومصري ويماني، وشنقيطي وقيرواني، فلم أجد أصدق من قريض أبناء عاملة صورة للشعر العربي الصميم، ولا أخلص منه عرقاً في نسب اللغة التي امتازت بها سعد وشقيف وسفلى هوازن وعليا تميم، ولقد أراني أشرب، ولا أرتوي حتى إذا وقعت في يدي بعض قصائد من نظم العامليين شبعت كبدي ريَّاً، وامتلأ دماغي بياناً عبقرياً، وقلت الآن قد وجدت تحت الألفاظ معنى سرّياً، وكم يخيّل لي أني أسبح من ذلك الفصيح في بر فسيح، وأضرب بين مرابع الآرام ومنابت الشيح، من رقة تذوب معها الأنفس، وجزالة تقف لها شعور في الأرؤس، وأسلوب يمثل لك من العرب الماضين صفاء قرائحهم وشفوف ألبابهم، وينفث في روع الحاضرين لغة صبّابتهم وفصاحة لبابهم، ويذكرنا عنهجية أولئك الفاتحين الذين تحدرنا من أصلابهم.

نعم هو الشعر الذي ينبغي أن يبقى في العرب مرفوعاً شعاره، مضيئاً مناره زاهراً نواره مهتزة أوتاره، حتى لا تتنكر اللغة على أهلها ولا يختلط هجينها بفنيقها ونكسها بفحلها، ولا يغرنك ما تقرأه من كلام بعض المتفرنجين، هجُن العربية من الأرزاء بهذا القرض على أنه طريقة ماضية وخطة عافية ونزعة لا تليق بهذا العصر، عصر البخار والكهرباء والطيارات المحلِّقة في السماء، وغير ذلك مما يسمونه «بالحياة» وهم أبعد الناس عن الحياة والحياء، فالشعر ليس بكيمياء ولا بميكانيكيات وهو أبعد الأشياء عن هذه الأشياء، والشعر كلَّما قرُب من الطبيعة، ونأى عن الصناعة كان شعراً وراق طبعاً والشعر ليس فيه عصري وغير عصري بل فيه عالٍ وسافل وصاعد

ونازل وكلما جاش به الصدر عن روح اللغة التي ينظم فيها وأشبه ديباجتها وانطبع على مناحيها كان المثل الأعلى الذي تتجه إليه الرغائب، والغرض الأقصى الذي تضرب إليه آباط النجائب، وظاهر أنه لا دانتي ولا شكسبير ولا غوته ولا راسين ولا من قبلهم فيرجيل ولا هومير كانوا شعراء عصريين ولا أدركوا هذا العصر ولا نطقوا بلغته ولا عرفوا شيئاً من اختراعاته، وهم مع ذلك لايزالون في العالم الغربي المقتدى به آلهة الشعر المعبودة، وأقيسة الفصاحة البعيدة، فدع عنك تلك الخرافات التي تلوكها السن الشعوبيين، والتي لاتزال تظهر أعراض أمراضها من حين إلى حين، فإنها ملجأ من ليس له حظ من فصاحة العرب فهو يريد أن ينقص ما يجهله وأن يهجِّن ما يقصر عنه باعه واشدد يديك على هذا وتهنأ بما آتاك الله من قريحة عاملية، وفصاحة وائلية، وشعر عذب رائق، وبيان يجمع بين أبدع الخيالات وأصدق الحقائق، مندمجاً هذا كله في لقحة أبيّة، ونزعة عربيّة، والله يمتع بك شاعراً وينفع عالماً، ويرهف بك على أعداء العرب صارماً والسلام.

لوسرن ١٣ أغسطس.

شكيب أرسلان

* * *

هذا شيء مما استطعنا الحصول عليه من المراسلات والمكاتبات، التي قامت بين الأمير شكيب وإخوانه في جبل عامل، وهناك مراسلات بين الأمير وأحمد رضا لم نتمكن من العثور عليها، ويقول عنها الشيخ أحمد رضا أن كثيراً منها قد فقد من أيام (عاليه)، وقد دار حديث حولها في دار الأمير خالد الشهابي في بيروت بحضور الأمير عادل أرسلان.

وقد علمنا مؤخراً، ان مكتبة رضا أحرقها الفرنسيون وقضوا عليها جميعها، وعسى أن نتمكن في المستقبل من العثور على بعض منها بينه وبين آخرين عامليين نغني فيه بحثنا حول هذا الموضوع.

الأمير شكيب أرسلان
وأمين بك ناصر الدين

كان أمين بك ناصر الدين في سنّ الحداثة عندما سمع الناس يتحدثون عن الأمير شكيب بإعجاب، ويصفون ما يخطه قلمه من مقالات بارعة، وما تجود به قريحته من قصائد رائعة، ثم صار يسمعهم يذكرون تعرُّفه بالشيخ محمد عبده في بيروت، والشيخ يومئذٍ مبعدٌ عن مصر لدواعٍ سياسية، وكانوا يقولون: إن محمد عبده أعجب بعبقرية الأمير وكرم شمائله.

وذكروا أن الأمير شكيباً ذهب إلى مصر بعد أن آب إليها الشيخ محمد عبده، وذلك في عهد الخديوي محمد توفيق وأن الأمير قابل الخديوي ومدحه بقصيدة.

ثم سافر الأمير بعد ذلك إلى دار الخلافة الآستانة [اسطنبول اليوم]، وهنالك لقي السيد جمال الدين الأفغاني. فلما خاضا في الحديث كبر الأمير في عين السيِّد فقال له: سقياً لأرض أنبتتك.

ثم بدأ الأمير الكتابة في الجرائد الكبرى ولاسيما جريدة الأهرام تلك المقالات التي أثارت أصداء واسعة، وقرأها الألوف في كل قطر، وفيها من براعة الأسلوب وبلاغة التعبير وسداد الآراء وصحة النظر ما بوأه الرتبة العليا بين كتَّاب العصر. هذه خلاصة ما كان يسمعه أمين آل ناصر الدين عن الأمير شكيب قبل أن يتعرف إليه عن كثب.

وأراد الأمير علي آل ناصر الدين من ولده أمين أن يمارس الصحافة، فلا يكون غيره محرراً لمجلته الصفاء التي أُعطي امتيازها في السنة ١٨٨٦ فنشرها بضع سنوات في (بيروت) ولما أراد من ولده أن يمارس الصحافة حوَّلها إلى جريدة أسبوعية وأعدَّ لها مطبعة في (عبيه) فأخذ يحررها في السنة ١٨٩٨ وكان هذا أول عهده بالصحافة(*).

(*) استمرَّ يرعى جريدة الصفاء إلى أوائل السنة ١٩٢٦، ثم طلب الأمين من الأمير نديم آل ناصر الدين أن يكمل مسيرة الصفاء ففعل وكان ذلك من السنة ١٩٢٨ إلى السنة ١٩٤٢.

وفي أثناء ذلك كان الأمير شكيب يأتي (عبيه) حيناً بعد آخر، لتفقد المدرسة الداودية في عهد رئيس عمدتها الأمير مصطفى أرسلان، فكان يزور مكتب الصفاء كلما أتى، لما بينه وبين علي آل ناصر الدين من ولاء مكين. وكان يتحف الجريدة بمقالاته البليغة ويفضي بآرائه السديدة في ما يتعلّق بإنشاء الجريدة وطريقة تنسيق الأخبار واختيار الموضوع ووضع كل شيء في مكانه اللائق به. وكان ينصح بتجنب الإفراط والتفريط في ما يكتب، وأن تكون رؤوس المقالات الافتتاحية والقطع دالة على غرض الكاتب والألفاظ فصيحة مألوفة، وأن يُعطى كل حقه عند ذكره فلا يوصف بأكثر ولا بأقل مما يستحق «... فكان الأمير شكيب بحق أستاذي في الصحافة» على حد تعبير الأمير أمين.

ومما يذكره أمين آل ناصر الدين أن القائد الكبير عثمان باشا الغزاوي قد توفي في صيف السنة ١٩٠٠، فلما ورد نعيه كان الأمير شكيب في مكتب الجريدة وكانت على وشك الصدور في اليوم التالي:

فقال الأمير شكيب مخاطباً أمين:

ـ أقترح عليك قصيدة في رثاء عثمان باشا على أن ترد في النشرة التي تصدر غداً.

فأجابه أمين آل ناصر الدين قائلاً:

ـ أعزّك الله، هذا فوق استطاعتي.

فقال الأمير شكيب:

وقد مرّت على الصفاء أيام قاسية، وتوالت عليها المآزق المادية، فخرجت من حيازة أصحابها الأوائل آل ناصر الدين من السنة ١٩٤٣ إلى آخر السنة ١٩٦١ حيث تولّى إصدارها محمد مصطفى العريضي وسلمان جابر. وفي السنة ١٩٦٢ اشتراها الأستاذ رشدي المعلوف أحد أصحاب جريدة (الجريدة) البيروتية وأصدرها جريدة يومية باللغة الإنكليزية، فصدرت لعدة سنوات، ثم توقفت بعد موت صاحبها المعلوف. وأعداد الجريدة الآن بحوزة الأمير نديم آل ناصر الدين من السنة ١٨٩٧ إلى السنة ١٩٤٢. وهي مصوّرة على ميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، وتحت تصرّف الباحثين وطلّاب المعرفة والعلم.

ـ لابدَّ من ذلك! فأنت من سرعة الخاطر بحيث يسهل عليك نظم القصيدة.

فظن أمين أن الأمير شكيب يريد اختباره. وذهب الأمير شكيب إلى القيلولة، ولبث أمين يفكر ويفكر إلى أن فتح الله عليه، فنظم قصيدة من ثلاثين بيتاً في نحو ثلاث ساعات وكان مطلعها:

عَلام غرارُ المشرفّي تثلّما وعاد الأصمُّ السمهريُّ محطّما
أفاجأ خطب لو ألَمَّ بليلة لما أنجمت أو بالنهار لأظلما
أجل دُكَّ طَودٌ للشجاعة شامخٌ وأصبح ركنُ المكرمات مهدَّما
سلوا عنه إن شئتم «بلفنا» فإنها لتخبركم عما مضى وتقدَّما

ودخل أمين آل ناصر الدين على الأمير شكيب في غرفته وقد استيقظ وعنده بعض الزوار، فدفع إليه القصيدة فتناولها محدقاً به متعجباً، ولما قرأها خاطبه قائلاً:

ـ أفي هذا الوقت القصير تنظم قصيدة كهذه؟ لكن لا عجب. لو طلبنا إلى المفلس أن يقرضنا بضعة غروش لتعذر الأمير عليه، لكن لو طلبنا من (سرسق)(*) الألوف لقال خذوا. وقال له الأمير: مادامت قريحتك كما نرى، لا يصعب عليك أن تصدر من الصفاء نشرة شعرية.

وفي ٩ شباط ١٩٠١ صدرت الصفاء وكل ما فيها شعر حتى الأخبار المحلية والبرقيات والأنباء السياسية وغير ذلك. فقُوبلت يومذاك بالإعجاب، وأخذ الناس يتخاطفونها حيثما وجدوها، مما حدا بأمين آل ناصر الدين إلى طبع باكورة شعره ثمرات الأفكار.

في عام ١٩٢٤، كتب أمين بك رسالة للأمير يقول له فيها:

سيّدي الأمير صاحب العطوفة الأفخم

الوفاء أعزَّ الله الأمير رأس المفاخر وطراز بردة المجد والشرف التي لا يردها إلاّ كلُّ كريم العنصر زكي المغرس والأمير بحمد الله قد بذَّ أفراد جيله

(*) أسرة لبنانية من الوجهاء ومن كبار الأثرياء كذلك.

وفاءً كما أبرَّ عليهم عبقرية وعلاء، فدلَّ بذلك على تلك الأرومة الطيبة والجرثومة الحرة والشيء من معدنه لا يستغرب.

وبعد، فقد أُلقي إليَّ كتابكم الكريم فثلج له صدري وأخذتني به هزة الطرب وقرأته وإنما قرأت الوفاء آيات بينات، والفضل الجمُّ سُوراً مترادفات متجلية في تضاعيف سطوره تلك النفس الكبيرة ساطعاً من ثنايا فقراته لألآء تلك المناقب الباهرة ولم أستطع أن أقابل منن عطوفتكم بغير الثناء وأن أدعو بطول بقائكم والله سميع الدعاء.

ويميناً إنّي لا أشكُّ في إيثاركم إياي بالإعزاز، إلاَّ إذا شككت في وضح الصبح، ولا أستريب بغيرتكم على مصلحتي إلاَّ إذا استربت بأنَّ هذه الشمس ليست بشمس. أما ما عددتموه لي جميلاً وهو دفعي مزاعم المفترين بالبرهان الناصع والحجة الشهباء فلست أعده أنا إلاَّ فرضاً يلزمني أداؤه وما هو بالشيء المذكور بإزاء ما لكم من بيض الأيادي وجزيل المنن.

أبلغت سلام عطوفتكم إلى من رأيت من سكان (كفرمتى) قدموا لكم من صميم القلوب وأعظم أمنية للجميع أن تعودوا إلى الوطن بالخير والسلامة.

مصطفى جمال توفي منذ سنتين، وقد أبلغت ابنيه نجيباً وشكيباً عاطفتكم الشريفة فقال إنهما كوالدهما إخلاصاً لعطوفتكم.

شقيقي سليم يرفع فروض احترامه، والله المسؤول أن يرعى الأمير بعين عنايته، ويطيل بقاءه ويزيده من نعمته بمنّه وكرمه.

كفرمتى ٢٦ نيسان ١٩٢٤.

الداعي: أمين ناصر الدين

وهناك قصيدتان رائعتان تبادلهما الأمير شكيب أرسلان وأمين آل ناصر الدين، وكانت قصيدته هي الأولى، ثم تلتها قصيدة الأمير شكيب. وهناك قصائد أخرى تبادلها الرجلان في ما بينهما، عدا الرسائل الكثيرة التي لم تنقطع بينهما قط، وكلها طافحة بالاحترام المتبادل والودّ الغامر، والإحساس العميق. ولعلَّ الأيام تمكننا يوماً، من العثور على ما بقي منها، لنشرها في الوقت المناسب.

النفحة الشعرية الأمينيّة

كأنَّ شوقي إليكم والنوى قدرٌ نار تؤججها الذكرى لها شُعَلُ
كـالطـرف يعنـق بـي سمحاً محثثـهُ والأفق مجراه والأسحار والأُصُلُ
وهبـت نفسـك للعليـا فمنـك لهـا عـزيمـة لا تنـي والقـول والعمـلُ
تبـدو المـآثـر غـرّاً كلمـا انفـرجـت عنهـا مسـاعيـك والأوطـار تكتمـلُ
إليـك ألقـى البيـان الحـرّ «إمـرتـه» فمن يراعك يهمي صوبه الهَطِلُ
إذا الوفاء اصطفى من أمّة رجلاً فأنت أنت لعمري ذلك الرجلُ
معنى مزاياك والمطري يهيمُ بها عـن الـرويّـة يغنيـه فيـرتجـلُ
أعد بعودك يمناً غاب عن وطن أضاع أهلوه طراً ما اسمه الأملُ
مـلأك ربـك عمـراً لـو يطـول كمـا أبغـي لكـاد بيـوم الفصـل يتّصـلُ

كفرمتى ١٩٤٦

أمين آل ناصر الدين

النفحة الشعرية الشكيبية

«أميـر الـدولتيـن» لـك القـوافـي تظـل تـذكـرهـا أيـامنـا الأوّلُ
يـا مـن حفظـت لـه ودّاً تضـاعفـه برغم طول النوى الاسحار والأُصُلُ
كـأنمـا كـلّ يـومٍ مـن حيـاتـيَ فـي بنـائـه لبنـة قـد شـادهـا العَمَـلُ
يحكـي بـرقتـه مـرَّ الصَّبـا سَحَـراً مع أنه في الثبات الصخر والجبلُ
تغدو الأمور بطول العهد حائلةً والـودُّ مـا بيننـا يـربـو ويقتبـلُ
نوائب الدهر تأبى أن تبينَ بنا فعنـدنـا شـرع حـلّ ومـرتحـلُ
يـا طـالمـا بـاتـت الآفـاق فـاصلـةً مـا بيننـا وعـرانـا ليـس تنفصـلُ
أبـى علـي إبـاء الضيـم منـزلـة تسومني الخسف في أرضي وأحتملُ
فلـم أجـد غيـر سعـي أنتحيـه إلـى حيث الجهاد لما عزت به الذللُ
قضيت في غربتي دهراً صبرت له أذوب شـوقـاً إلـى وكـري وأشتعـلُ
يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وما من مجمع لم يكن لي عنده شغلُ
وكم سمعت وأهل الأرض شاهدةٌ تلك المواعيد فيها المطل والعللُ
صبرت حتى يقول الصبرُ هل رجلٌ حتى إلى الموت لا يكبو به الأملُ

لو يضربُ الناسُ في بغي المنى مثلاً | لكان يضرب في تسياريَ المثلُ
حتى ظننت بأنَّ الأمر تمَّ لنا | فرحت أقصد أوطاني واعتزلُ
لكنه خاب ظني إذ وثقت بهِ | وكل شيء به في نيله أجلُ
لذا انثنيت أريد الهجر ثانيةً | كي لا يكون بأوطاني الغريب علُ
فهذه غربة في الغرب ثانيةٌ | وفي سبيل بلادي صابها عسلُ
أرجو ختام البلايا في نهايتها | لعلها حالة من حالة بدلُ
لازلتَ يا وطني لبنانَ طودَ علىً | يعتزُّ كل فتى في فيئه يثلُ
أن تغدُ حرّاً فلم تبرح لأنفسنا | مهاد حرية مذ طامك الأزلُ

جنيف ١٩٤٦

شكيب أرسلان

ولما توفي الشاعر حافظ إبراهيم رثاه الشاعر أحمد شوقي بقصيدة جاء في مطلعها:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي | يا منصف الموتى من الأحياء

ولم يلبث أن توفي شوقي، فنظم أمين آل ناصر الدين قصيدة في رثائه بلسان حافظ، بعنوان «من روح حافظ إبراهيم إلى روح أحمد شوقي» يقابل بها حافظ، جميل صديقه شوقي بمثله. ونذكر من تلك المرثاة الرائعة الأبيات التالية:

أشدتَ بذكري يومَ قلت رثائيا | فيا لي مرثيًا ويا لك راثيا
وُفقتَ وفاء إذ وودت لو انطوى | عليك الثرى قبلي، فأرثيك آسيا
ولكن أبى ريب الردى أن يفوتني | من الحظ ما قد فاتني في حياتيا
نشدت المنى حيًّا، فعز منالها | ومت فأولاني الرثاءُ الأمانيا
ورفّه عن جسمي، وقد ضمه الثرى | وأسعدني حتى نسيت شقائيا
فلو ردَّ تأبينٌ إلى الميت روحه | إذاً لرأوني عند نعشك جاثيا
تخذت يداً عندي بما قد رثيتني | وما أنا ممَّن يجحدون الأياديا
فناجتك روحي بالرثاء على النوى | ولو ملكت دمعاً لأجرته قانيا
لئن فرَّقتنا نبوةٌ في حياتنا، | لقد أصبحت بعد الممات تآخيا
وأحسن ما في داهم الموت كونه | لما خط في طرس الضغينة ماحيا

وما كادت قصيدة أمين المذكورة تصدر، حتى أخذت الصحف، في مختلف أنحاء العالم العربي تتناقلها مصدرة بها صفحاتها الأولى. واطلع عليها الأمير شكيب في سويسرا، فكتب إلى صديقه «الأمين» في السادس من كانون الأول ١٩٣٢ رسالة جاء فيها:

«سلبت عقلي قصيدتك (من حافظ إلى شوقي). فقد قرأت كثيراً من الشعر ولم أر أعلى منها. ولا أظنه أرثي حافظ ولا رثي شوقي بمثلها. ولقد بان سبقها لجريدة «الفتح» التي بلاغة صاحبها أشهر من أن تذكر. فنقلها في العدد الأخير، ولا أنكر أن في المراثي التي قيلت في شوقي قصائد يقام لها ويقعد، ولكني لا أرّ واحدة منها ـ ولا مرثيتي ـ في قرن مع يائيتك أنت التي يتمنى كل من (شوقي) و(حافظ) أن تكون لنفسه. ولقد كانت كفاء صنيع شوقي في ما وصف به آل معروف بأبيات من قصيدته الدمشقية سارت سير الأمثال. فرحم الله شوقياً وحافظاً، وأطال بقاءك للأدب العربي وأهله».

ولم تنقطع الرسائل أبداً بين الرجلين. وبعد سنة أرسل أمين قصيدة للأمير شكيب في مقره في (لوزان) عنوانها «قمر الشرق في الغرب» مهّد لها بهذا المطلع:

طالَ احتجابُكَ فاطلعْ أيُّها القمرُ إنّـا سُـراةٌ وهـذا الليـلُ معتكـرُ
لا نورَ في الأفقِ الشرقيِّ نلمحهُ ما دُمتَ في الأفقِ الغربيِّ تزدهرُ
الليـلُ فـي كـلِّ قطـرٍ بعـدَهُ سحَـرٌ وليلُنـا طـالَ حتـى مـا لـهُ سَحَـرُ
أَبِـرْ بطلعتـكَ الغـرّاءِ ظلمتَـهُ فـلا يضـلُّ سبيـلاً مُـدْلـجٌ حـذِرٌ

وما أن انتهت هذه القصيدة إلى الأمير شكيب فأنزلها كرم «خلقه فوق منزلتها وأرسل نفسه في التواضع تنشيطاً للمقصرين» كما يقول أمين في ديوانه الإلهام. فكتب الأمير شكيب رسالة إليه يقول فيها:

أخي الأجل الأفضل:

لا تواتيني عبارة لائقة أفيك بها حقّ الشكر على قصيدتك العصماء الرائية، التي قلّدت بها جيد هذا العاجز، وكنت شرعت في الجواب عليها نظماً من البحر والقافية وعاقتني عن ذلك الأشغال وعواديها والأسفار وتماديها

وعدم صفاء البال ولو ساعة من الزمان، فأجّلت ذلك إلى وقت آخر علّني أقابل تلك اللآلىء بحصاي، أو أجاري ذلك السيف الباتر بعصاي».

وعندما توفي الأمير شكيب في ٧ كانون الأول سنة ١٩٤٦، رثاه أمين بقصيدة رائعة بعنوان «أبا غالب أرثيك» نقتطف منها الأبيات التالية:

لقد كنت ملء الأرض ذكراً وهمة فكيف استطاعت أن تضمّك أذرُعُ
أبعدك يا غمرَ البديهة والندى لمن ظمئوا والماءُ قد غاض مَشْرَعُ
أَبَعْدَ شكيب وهو بكر زمانه حياةٌ وإن القصرَ للشهمِ مَصرعُ

وأرّخ أمين آل ناصر الدين سنة الوفاة بالهجري والميلادي، على عادتهم في ذلك الزمان، فقال:

لما ثوى بدرُ العروبة في الثرى غشيت طلاع الأرض دُهْمُ خطوبِ
فاهْتِفْ بمن ضلَّ السبيلَ مؤرخاً عَلَمٌ هنا مثوى الأمير شكيب
١٣٦٦ هـ

خلا الربعُ ممن كان ملءَ زمانه وكم ودَّ لو يفدي العروبةَ بالنفسِ
إذا ما سألت الربعَ عنه مؤرخاً أجابك سيفُ العربِ أُغْمِدَ في الرمسِ
١٩٤٦م

ويقول أمين آل ناصر الدين في كتيب أصدره في عام ١٩٤٦، بعد وفاة الأمير شكيب أرسلان، معدداً فضائله ومزاياه:

«للأمير شكيب فضائل ومآثر كأنها زهر الربيع حين يزدان بالندى، إذا راقتك منه زهرة بدت لك زهرة مثلها أو أطيب منها عرفاً وآنق شكلاً.

فمن فضائله ـ الوفاء ـ البالغ أقصى غاياته يشهد به كل من عرف الأمير حق المعرفة ولا يجحده إلاّ الغادرون.

* * *

ومن فضائله ـ العفة ـ التي فاق بها كل عفّ طاهر الذيل. فقد قضى شبيبته ما تأخذه هزة غرام ولا أرّقه طارىء هيام ولا فتنه سحر عين دعجاء ولا استهوته طلعة وضاءة ولا استمالته قامة هيفاء ولا نظر إلى أنثى نظرة ذي عَلق يحمر لها وجهها وما تشبيبه في بعض شعره إلاّ إحدى عادات الشعراء.

ومن فضائله ـ الجود ـ بما في يده فكان يهب للفقير ما يسدّ بعض عوزه غير مكتف بمرة واحدة ويسعف من بعلم أن به حاجة إلى رفد كريم المهزة ويود لو كان له من المال ما يغني به كل محتاج وأرملة ويتيم عن مذلة السؤال، وكثيراً ما جاد الفقراء من السجناء بما استطاع أن يجود به.

ومن فضائله ـ التنزه عن الغرور ـ وهو الآفة التي توهم المصاب بها أنه في الذروة التي لا مرتقى فوقها، وأنه باقعة الزمان ومفخرة بني الإنسان وما هو على شيء من ذلك، فالأمير شكيب طالما وصف نفسه بالضعف وهو القوي بالتأخر وهو السباق الذي لا يُشق له غبار، ولم يبخس أحداً حقه قط، ولو أحسن خامل لنوَّه بإحسانه.

ومن فضائله ـ الإخلاص الوطني ـ الذي كاد يبدو مجسماً في أثناء الحرب العالمية الأولى فقد وقف من جمال باشا موقف المخالف له في جبروته وفظاعة انتقامه، فأنقذ من استطاع انقاذهم من اللبنانيين من القتل وحال دون إبعاد فئة منهم إلى الأنضول. . .

ومن فضائله ـ الصدق ـ فما نطق إلاّ به وما وعد إلاّ وفى. ومنها ـ الصراحة ـ فما داجى ولا تملق. ومنها ـ الأنفة ـ التي نبت به عن مواطن الضيم وجعلته يهيم بمعالي الأمور، ومنها ـ التنزه عن الحسد ـ فما قال ـ ليت لي كذا وكذا.

ومن فضائله ـ الصبر على الشدائد المرهقة والملمات الفادحة ـ فقد استمر أكثر من ثلاثين سنة نائياً عن الوطن متنقلاً من مكان إلى مكان مكافحاً مدافعاً لا يهي له جلد ولا يكبو له زند حمية ولا يفل من عزمه خطب. ذلك كله في سبيل العرب والمنافحة عن حقوقهم والنهوض بهم إلى مستوى الأمم الحرة المستقلة غير مبال بما يرميه به حساده ومناوئوه من أفائك يبغون بها تسويد صحيفته الناصعة وما سوَّدوا إلاّ وجوههم.

ومنها ـ الشجاعة ـ التي أبت عليه إلاّ المغامرة بنفسه فيمم طرابلس الغرب بعد عدوان إيطالية على دولة الخلافة في السنة ١٩١١ ـ ١٩١٢. ولما

أراد الخديوي الأمير عباس حلمي أن يثنيه عن عزمه ليبقى عنده في مصر أبى إلاّ الذهاب إلى ساحة الحرب. فأراد الخديوي أن يمده بالمال فاعتذر من قبوله شاكراً وقال: إذا جدَّت بي حاجة إلى المال طلبته من صاحب السمو وما لبث أن برح القطر المصري إلى طرابلس فشهد المعارك مع قادة الجيش العثماني أنور وأدهم ونشأة وفتحي وأبطال السنوسيين والأمير علي بن عبد القادر الجزائري وغيرهم ممن لم تحضرني أسماؤهم مدرّعاً إيمانه الراسخ وقضى هنالك نحو ثمانية أشهر معجباً بالسيوف ترعف نجيعاً إعجابه بالأقلام ترعف مداداً فحق له أن يلقب بأمير السيف والقلم...

ومن فضائله ـ الجرأة في القول ـ تعلم ذلك مما يلي: في شباط من السنة ١٩١٦ قدم أنور باشا وزير الحرب العثماني ينوي السفر إلى الحجاز ليتعرف حقيقة الحال الحربية هنالك، وفي طريقه عرَّج على لبنان فاقترح عليَّ الأمير شكيب قصيدة ترحيبية بوزير الحرب وكان له في مدينة عاليه استقبال حافل وأقيمت له في فندق البحّار مأدبة دعي إليها ذوو المكانة في بيروت والجبل من الطوائف جُمَع فجاء الأمير قبيل الدخول إلى مكان المأدبة يقول سألقي في هذه المأدبة خطاباً فعندما أتمّ إلقاءه تقف أنت فتقرأ القصيدة، وكان سبب ذلك الخطاب أن حساد الأمير وخصومه كانوا يشيعون أنه ليس بمخلص للدولة ولكنه يتظاهر بالإخلاص خوفاً من بطش جمال الذي كان في الحقيقة ناقماً على الأمير شكيب لوقوفه موقف المعارض من سياسة جمال الخرقاء وفظاعة أعماله.

جلس المدعوون إلى الإخونة، وفي صدر الخوان الأول أنور باشا وإلى يمينه قائد ألماني وإلى يساره قائد نمسوي على مقربة منه الأمير شكيب وجلس جمال قبالة أنور باشا من الجهة الثانية ولما أوشكوا أن يكتفوا من الطعام إذا الأمير واقف يسترعي الأسماع وألقى خطابه بالتركية وتلاه ثانية بالعربية والحضور شاخصون إليه يتعجبون من جرأته الفائقة إذ قال ما معناه: يزعم الحساد الخائنون أنني أظهر الإخلاص لدولة الخلافة وأضمر ضده وأنني أتزلف إلى رجالها خوفاً وحذاراً. ألا فليخسأ الخونة والحساد وليعلموا أني لا أخاف أحداً إلاّ الله.

ومن فضائله ـ علو الهمة ـ قلت له بعد ذهاب أنور من حديث: لو قضت الحال أن تسافر إلى أقصى بلاد العرب في أمر يفيد الأمة لما ترددت ـ قال ـ أسافر في الحال راكباً ناقة.

ولما عقدت العزيمة على أن يسافر وفد من أقطاب العرب إلى الجزيرة لوضع حد للحرب التي كانت ناشبة بين صاحبي الجلالة الملك عبد العزيز والإمام يحيى ملك اليمن غادر الأمير شكيب سويسرا بلا إبطاء غير مبال بمشقة السفر المرهق ورافق الوفد وهو من أركانه وكانت له في عقد الصلح بين الملكين القدم الفارعة والرأي الموفق وذلك في السنة ١٩٣٤.

ومن فضائله التي فاق بها سواه من عظماء الرجال ـ التواضع ـ فإن رسائله إلى أصدقائه المخلصين توهم قارئيها أن كاتبها غير الأمير شكيب الذي طبق ذكره الشرق والغرب وخطبت ودَّه الدول وأجله الملوك وتصدر محافل العظماء لما فيها من عبارات تكاد تسيل رقة وتعابير يكاد التواضع يبدو منها مجسماً».

وفي مكان آخر من الكتيب المذكور، تحدث أمين آل ناصر الدين عن تعاطي الأمير شكيب أرسلان بالسياسة فقال:

«كان الأمير شكيب في أول أمره أميل إلى اللغة والأدب منه إلى السياسة فيكاد لا يُرى إلاَّ بين المحابر والطروس باحثاً محققاً يخط المقالات الروائع وكانت الصحافة مرمى فكره، أخبرني في صيف السنة ١٩٠٢ أن بعض الوجهاء من أصدقائه يفاوضونه في نشر جريدة يومية في مصر يجعلها نبوغه وترامي ذكره في مقدمة الجرائد العربية على الإطلاق وأن نجيب بك سرسق المثري الكبير أخذ على نفسه أن يرصد لتأسيسها ما يقتضي من المال وأنه أي الأمير قد عقد العزيمة على السفر إلى مصر في أواخر الصيف وقال لي: ستكون رفيقي إلى القطر المصري فمستقبلك هناك خير منه هنا، فسررت كل السرور وشكرت للأمير تلك المنَّة إذ كنت عظيم الرغبة في الإقامة بمصر كغيري من شبان ذلك الوقت الذين أدركوا من الأدب نصيباً ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه...

لم يمض على ذلك إلاَّ أيام حتى قيل إن عميد الوطن الكبير الأمير

مصطفى أرسلان قد اعتزل منصب (قائم المقام) في الشوف في آخر عهد نعوم باشا المتصرف الرصين الحكيم فما لبث نعوم أن عين الأمير شكيباً خلفاً للأمير مصطفى وأتتنا الدعوة إلى بعقلين لنشهد الاجتماع الذي دعي إليه الناس ليسمعوا (البيولردي)(*).

بقي الأمير شكيب في منصب ـ قائمقام ـ إلى أول عهد مظفر باشا الذي تنكر للأمير والأمير تنكر له فغادر المنصب. وبعد وفاة مظفر باشا وتعيين يوسف فرنكو باشا متصرفاً أعاد يوسف باشا الأمير شكيباً إلى منصب قائم المقام في السنة ١٩٠٨ التي أعلن فيها الدستور العثماني. وفي السنة ١٩١١ وقع خلاف بينه وبين يوسف باشا فتنحى عن المنصب وبعث إلى الباشا بكتاب عنيف العبارة أوسعه به تنديداً وكانت ولاية يوسف باشا موشكة أن تنتهي مدتها ولكن أشيع أنها ستمدد فأبرق الأمير شكيب إلى أنور باشا ينبئه أن تمديد ولاية يوسف باشا غير موافق. فما لبث أنور ورفقاؤه أن حملوا الصدر الأعظم على منع التمديد كما أراد شكيب واستقرت آراء الباب العالي وسفراء الدول على تعيين أوهانس قيومجيان باشا متصرفاً وكانت للأمير اليد الطولى في تعيينه.

إن تقلد الأمير شكيب المنصب في لبنان وانتخابه مبعوثاً في مجلس النواب العثماني جعلاه يُعنى بالسياسة عملاً بمقتضى الحال كل العناية حتى انغمس في لجتها اضطراراً وأصبح من أساطينها ولاسيما بعد أن عقد المؤتمر السوري الفلسطيني في السنة ١٩٢٠ واختار أعضاؤه الأمير شكيباً وإحسان بك الجابري وسليمان بك كنعان (جزين) لجنة عاملة تمثل المؤتمر لدى جامعة الأمم.

فكانت للأمير هنالك في إثبات حقوق العرب بنواهض البينات الأيام الغر المحجلة وقد أنشأ بالفرنسية جريدة سماها ـ الأمة العربية ـ ليطلع ساسة الدول على حقائق القضية العربية متبسطاً في الشرح موضحاً كل غامض

(*) مرسوم التعيين.

مستظهراً بكل حجة شهباء، وكان هو أول من فكر في جامعة الدول العربية ودعا إلى تأليفها.

فانصرافه إلى السياسة في معظم أوقاته وإلى إنشاء المقالات فيها كان خسارة على اللغة والأدب. فلو لم تشغله عنهما جواذب السياسة ودوافعها لأتى فيهما بالغرائب والمعجزات ولكنه على كل حال بقي إلى أن نقله الله إلى دار كرامته مناهزاً الثمانين أمير البيان غير منازع وسيد القلم غير مدافع والعلامة البحاثة الذي يشار إليه بالبنان القابض على أزِمَّةِ البلاغة والفصاحة ما توالى الملوان».

* * *

وبعد، فإن ما تقدم لا يُشكل سوى خطوة تمهيدية أخرى لمحاولة أوسع وأعمق أعمل عليها منذ حين لاستكشاف تفاصيل وجزئيات علاقات أمير البيان شكيب أرسلان بأترابه ومعاصريه الأعلام، علّني أوفق في مقتبل الأيام في الحصول على وثائق ومستندات تعينني في أداء هذه المهمة الجسيمة.

الأمير شكيب أرسلان
والشاعر رشيد سليم الخوري

الشاعر القروي رشيد سليم الخوري (١٨٨٧ ـ ١٩٨٤)، هو أحد شعرائنا المهجريين الكبار الذين طبقت شهرتهم الآفاق، اكتسب شهرة واسعة في كلّ الأقطار العربية كقصائده الوطنية المميزة، وتأثيره البالغ في إنماء الشعور القومي وحمل أبناء العروبة في المهاجر على نصرة قضايا وطنهم وتغذية ثوراتها مادياً وسياسياً، يحق لاسم رشيد سليم الخوري أن يكتب بماء الذهب في سجل الخالدين، مع العظماء والأبطال المجاهدين العرب، كي يكون مثلاً أعلى تُحتذى به الأجيال العربية الطالعة في الاندفاع القومي، فقد صوّر آلام أمته وآمالها في روائع قصائده، ودوّن بطولاتهم وأمجادهم، باعثاً النخوة والحمية في كل النفوس لمقارعة الاستعمار ونبذ التعصب الطائفي، وحمل الناس على كسر الأغلال، ومقاومة الظلم، والتطلع إلى الحرية والاستقلال.

هذا الرجل الكبير، كانت له علاقة وطيدة بالأمير شكيب أرسلان وله عنده مكانة ومودّة، وتقدير وإعجاب، وكانت المراسلة قائمة بينهما من حين لآخر، وهي تحف أدبية وقعت بين كبيرين في عصرهما، تناولت بعض القضايا الأدبية والفكرية، وفيها مجاملات كانت تحصل عادة بين أهل ذلك الزمان.

وهذه الرسائل بالرغم من قلتها وندرتها بين الرجلين، تبقى ذكرى عطرة، وأسلوباً جديداً في المكاتبة، تدلُّ على إحساسٍ عميق، وعواطف سامية.

ونورد، هنا، الرسائل المتبادلة، وما كتبه كلّ منهما، والتي أمكننا العثور عليها:

في رسالة بعث بها الشاعر القروي إلى صديقه الأمير شكيب، من سان باولو، في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٩٣٣، يقول:

إلى الزعيم الكبير، وسيد الفصحاء أجمعين، الأمير شكيب أرسلان. مدَّ الله في أجله، ونفعنا بعلمه وعمله

سيّدي الكريم

لم يدر قط في خلدي أنني من نفسكم الكريمة بما يطمعني بمثل هذه الرسالة التي تسلمتها، بل استلمتها[١] من لدن معاليكم، تلك الرسالة الفياضة بمكارم أخلاقكم، المسبغة على من شهادتكم العالية حللاً ودروعاً، حتى لتهت بها عجباً، ورقصت طرباً، وزدت أدباً، وتخذتها إلى العلياء سبباً، وحتى لضرب بها الأعداء، وحججت الشعراء، وزكوت عند الأصدقاء، ولقد صالحتني مع الزمان، فقام لدي عذره، ونبه ذكره، وعظم قدره. وحسبك من عصر بلغ من عزّ الأدب فيه أن يمدح أمير خطير نظيركم، شاعراً وضيعاً مثلي.

هو عصر به نـدل على الـدهـر كعصـر الـرشيـد عنـد شـروقـه

---

(١) الشاعر الكبير يريد أن يفرق بين معنى «التسلم» وهو «الأخذ» و«الاستلام» وهو اللمس بالقبلة أو اليد، ومن استلام الحجر الأسود بالكعبة الشريفة.

فكـأن الـزمـان ثـاب إلينـا ثـائبـاً بعـد كفـره وعقـوقـه

ولقد حدثت في كتابكم بنعمة ربي، فأحللته من كتب أهل الفضل إلي صدراً، وجعلته لعقد تقاريظ الأعاصير الواسطة الكبرى، ونشرته على الملأ لأدبي تكريماً، بل رفعته للناس علماً، وأريتهم بسحر بيانه أسماط الدر كلما، وحليت بقلائد سطوره نحور الصحف، وعرضته في سوق الأدب كأسنى التحف.

سيدي: إن ما تواضعتم بذكره من رغبتكم في شعري، واطلاعكم على قصائدي، منشورة في أوقاتها. لهو جلّ ما كنت أرجو من الدنيا بعد راحة الضمير، وبعد فتأ[1] اللوعة، وتفريج الكربة، فما خططت والله حرفاً، ولا دبجت بيتاً إلاّ وقد تسلفت أجره لذة الشعور برضى الله والنفس، وتقدير أعلام الأدب طلاعي الثنايا نظيركم. ولكن ما جنيته من جنة إحسانكم، هو فوق ما كنت به طامعاً، وإياه متوقعاً. ولقد تزودت منه الصفقة الربحى، والقيمة الرجحى. فما أبالي بعده، غمطني أهل الأرض جميعاً.

أرجوكم عذراً لتأخري في الجواب، فإن نكبتنا بفيصل[2] أعمت البصائر، وشلت الأيدي، وأذهلت العقول. وغادرتنا حيارى، لا نرى إلى العزاء سبيلاً، فلما ثاب إلينا بعض الرشد، تنبهنا إلى ما يفرض علينا الشعور القومي من مشاركة إخواننا في أنحاء الأرض بمراسيم الحزن والأسى، وإقامة الحفلات التأبينية للراحل العظيم. ولقد أحيت الرابطة الوطنية مساء ١٠ الجاري حفلة لم تر الجالية أروع منها، اشتركت فيها الجمعيات والأندية العربية في الحاضرة وسواها، جميعاً، وكنت أحد خطبائها. فألقيت كلمة موجزة بين شعر ونثر، استهللتها هكذا:

أقصـى التجلـد أن الصبـر منهـزم وأيسر الخطب أن الدَّمعَ فيك دم
فكـل جفـن يـريـق المـاء متهـم وكـل صـدر يطيـق الصبـر متهـم

---

(١) فتأ الشيء: سكنت حدته.

(٢) رحم الله فيصلاً الأول فلقد خصّه الله بكل فضائل الزعامة، وحرم بيته وآله من كل مزية وفضيلة، جعله رمز الاستقلال، وجعلهم مطايا العبودية والاستعمار.

وفي مكان آخر:

عـاهـل الأمتيـن أخلـى سـريـره ... وقضـى الكـامـل النقـي السـريـره
نبـــأ زلـــزل المشـــارق حتـــى ... دك صنينهـــا وفـســت صخـــوره
وطمـت للنعـيّ مـوجـة حـزن ... لـم تخلـف جـزيـرة فـي الجـزيـره
جمـر[1] السـاحليـن منهـا رشـاش ... سخنـت منـه كـل عيـن قـريـره
أكـبـر الـكـل رزءنـا فـيـك يـا فـيـ ... ـصل حتى تلك النفوس الصغيرة...

ومن أبيات في موضع آخر:

وكنت على توحيد قومك عاملاً ... وغيرك للتفريق يدعو مع العدى
ومـن لا يبـالـي أن يثلـث ربـه ... أتطمع منه في الورى أن يوحدا؟!!

وفي غير مكان من قصيدة يقول:

يهنيك لم تر عيناك الذي فعلت ... ذات الأساطيل من أهوالها فينا
قـد أهلكتنـا علـى أردنّنـا ظمـأ ... وأوردتنـا المنـايـا مـن مـوانيينـا
أجـرت مـراكبهـا مشحـونـة قـذراً ... وأفـرغتهـا... يهـودا فـي فلسطينـا

ومنها:

يا سيّد الدين هل يُدعى معلّمكم ... عيسى ابن مريم أم موسى وهارونا؟
لقـد رحمـت ثعـابيـن اليهـود ألا ... فارحم خرافك واحسبهم ثعابينا
قـال المسيـح لنـا حبـوا أعـاديكـم ... لكنـه لـم يقـل حبـوا الشيـاطينـا
الـديـن بغيتنـا لكـن تجـارتكـم ... بـالـديـن تكـرهنـا أن نكـره الـدينـا

وهو خطاب أنشأته يوم الحفلة بالذات، لأني كنت مشغولاً بإعداد قصيدة في الموضوع نفسه لألقيها في الحفلة التأبينية في بونس أيريس في ٨ القادم فلم تشأ اللجنة هنا أن تعفيني، وأبت إلاّ أن أقول شيئاً فاستعنت بالله فأعانني وحفظت قصيدتي الأولى لبونس أيرس بكرا. وهي قصيدة تتجاوز الثمانين بيتاً لا أشك في أنها ستحوز رضاكم إن شاء الله.

---

(١) جمره: أعطاه جمراً.

لم أورد ما أوردت، إلاَّ بعد أن تيقنت من ميلكم إلى شعري، وتشريفي بعنايتكم، وأملاً بالانتفاع بنقدكم النزيه وعلمكم الواسع. فاضرع إلى الله تعالى أن يطيل عمركم رحمة بهذه الأمة الفقيرة إلى مثلكم. لازلتم للعروبة ذخراً وفخراً. ومتعني الله بشرف صداقتكم أبداً.

سان باولو ١٢ ـ ١١ ـ ٣٣

رشيد سليم خوري

وهذه رسالة أخرى من الشاعر القروي أرسلها من سان باولو، بتاريخ ١٥ كانون الثاني سنة ١٩٣٦، وهذا نصُّها:

سيدي الأديب الأكبر واللوذعي الأشهر الأمير شكيب أرسلان أطال الله بقاءه.

لولا يقيني أنكم ترتجلون الفضل ارتجالاً. وتسبقون إليه سجية وطبعاً. لحسبت كتابكم الأخير صدى نداء قلبي لكم. واستجابة لإلحاح روحي عليكم. إذ كنت طوال مدة القطيعة مفكراً فيكم. مستفسراً عنكم. وأنا من ضجة الناس حولكم. وما أثاروا من عثير الشك في أمرك. وما ترامى إلي من دفاعكم. حائر، واجم، مبلس، أهم بالكلمة ثم أمسكها، خشية أن أسيء من حيث أحاول الإحسان. فاتهم بالإساءة عامداً. وأفزع إلى مجلة (الاستقلال) أطالع ردودها عنكم. ثم اقرأ مقالاتها في إيطاليا وموسيليني والحبشة. وأقابل ذلك بشعور الأمة العربية ومبادئها وغاياتها، فيمضني البون. ويرمضني التحدي. وأرى كفة الأميرين العزيزين تشول. وقد أوشكت تفرغ من الحق. والعروبة رابضة في الكفة الأخرى. مغيظة محنقة. فلا ألبث أن أوجه في جريدة «الرابطة» إلى الأمير أمين عتاباً يسري عني. ويحقق ما يرجو أحرار المهاجرين مني. ذلك بعد أن طال سكوتي. وتمادى صبري على نار من الشك تلتهم أحشائي. فارضيت بتلك الكلمة ضميري. إرضاء مدل بصداقتكم الغالية. مدل بجهادكم المشهور. وأنا أسأل الله أن تكونوا عند الوطنية مصيبين ولو بت أمامكم خاطئاً.

ثم أرجو يا سيدي أن يصلكم كتابي وأنتم في برد العافية رافلون. والأ

تنقص صراحتي وإخلاصي من حبكم لي ومثلكم من عرف قدر المخلصين.

والسلام عليكم ممن يحفظ ودكم. ويرعى عهدكم. ويذكر جميلكم على كل حال.

سان باولو ١٥ ـ ١ ـ ١٩٣٦

رشيد سليم الخوري

وهذه رسالة أُخرى من الشاعر القروي، من صنبول، بتاريخ ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩٤٦، وهذا نصُّها:

سيدي حجة البلاغة ومظنة الحكمة وقاموس العلم الأمير شكيب أرسلان دام في حفظ الله تعالى.

مازلت بعد أفول رسائلكم، أختلس عنكم الإشاعة اليلمع، وأتحدس الخبر الظنون. حتى انجاب والحمد الله قسطلها الحلك[١] وانحل عثيرها المعقود. ورحم الله قطيعه فدفع الذؤبان بالذؤبان.

وألقى ستر كلاءته على معقد آمال الأوطان فإذا ذكركم الميمون يتردد في أسماع الأقطار وتتناقله صحف الأمصار. باستئناف صلة قطعت السيوف أسلاكها إلى حين. ولكنها لم تقف قط دون مويجاتها القصيرة سداً ولن تقف بإذن الله أبداً.

أما بعد فإني كنت قد ألقيت في شهر أيلول من السنة الغابرة خطاباً في حفلة أحياها المعهد البرازيلي للثقافة العربية. إثر ما صدع قلوب الأحرار من تصاريح، بعضهم. أطبقت فيه على خونة الأوطان. فنثرتهم بنثره كهرور العنقود. وانتظمتهم بنظمه كهريم السفود. حتى إذا بلغ المبضع أدق أوتار الحس. فقلت:

فرنسة زال ظل الموت عنّا	ببعدك وانطوى العلم البغيض
ولكن حبك الموروث داء	عيون شيوخنا منه تفيض

(١) الحرب العالمية الثانية.

زحف أبناء الدهاليز من مخابئهم. وراحوا يرمونني من وراء المتاريس ببندق سقارهم[١] ويحاولون في عتمة الغيبة إلباسي عوار ساساهم[٢] واستصنعوا رواسيم السخرية والتحقير يطبعون منها وينشرون بالبريد على الناس. ويدمسون حتى أبواب المتاجر والمنازل. فيتلقاها أحرار اللبنانيين وسائر إخوانهم العرب بالاشمئزاز والتمزيق. ويستقبلها عبيد الاستعمار بالإعزاز والتعليق. ثم دعاني نادي راشيا للكلام في حفلة أحياها في سبيل منكوبي سوريا، فجهرت بهذه القصيدة التي أتشرف بإهدائي إلى سعادتكم نسخة منها. ممنياً نفسي العطشى إلى أنبائكم، بقطرة من ندى يراعكم. وداعياً الله تعالى أن يلقاكم كتابي نسراً للعروبة مجدد الشباب، محدد الأعصاب. بمنه وإحسانه.

رشيد سليم الخوري

صنبول ٢٤ ـ ٢ ـ ١٩٤٦

ووردت كلمة لطيفة في كتاب «لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم» الصادر عن منشورات دار مكتبة الحياة، في بيروت، من الشاعر القروي، عن الأمير، نثبتها في ما يلي:

«اقرأه فأشعر أني في حضرة جبار من جبابرة البلاغة، تتقاذف أنامله الطود. كما تتداول الحصاة، ويمج قلمه الأنداء حيناً والأمواج حيناً، وتتسارع المعاني من قريحته، والمباني من موسوعته، متزاحمة على سنى يراعه، منقادة إليه، لا يكدُّ فيها ذهناً، ولا يستحضر لفظاً، ولا يعمل مهمازاً، ولا يخشى عثاراً، فهو يرسل الكلام على سجيته إرسالاً عجيباً، وقد لبسته أفكاره لا قصيراً ولا فضفاضاً بل مفصَّلاً أحسن تفصيل وأكمله، مع أنه لا يعاني في ذلك قياساً ولا مراجعة يأتيك بالصفحة، تترقرق فيها الألفاظ كالغدير الصافي، فتخاله يخاطبك بلغة عامية، هي من الفصيح البارع الفصاحة، فلا تكاد تفرغ منها حتى يسبح بصرك في ظلال ممدودة يسمو منها إلى سفح أو قمة أو خميلة هي قطعة مؤّارة بالجمل البليغة، أو فقرة كأداء بالمفردات العويصة أو

(١) السقار: الكافر اللعان لغير المستحقين.

(٢) (ساسا) هو رئيس الشحاذين.

شواهد شعرية زاهية بالحكم، زاهرة بالأمثال، وهو في كل ذلك لا يرمي إلى إراحتك أو إلى اعناتك، بل يضع الكلمة في موضعها، مخلوقة لمحلها، ومخلوق محلها لها، كما تنجذب الأشياء بطبيعتها إلى شكولها، وتلزم الكهارب مراكزها من نواتها.

رشيد سليم الخوري

رسائل الأمير:

وكتب أمير البيان شكيب أرسلان من جنيف، بتاريخ ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ رسالة إلى صديقه الشاعر القروي، هذا نصُّها:

جنيف ١٦ ت ٢ ١٩٣٥

مفخرة الشعر وخزانة الأدب. وشيخ زاوية عبقر في لغة العرب. ناشر عمرو بن كلثوم بعدما ذهب. والآتي بكل يتيمة تكتب بماء الذهب. الأخ الأستاذ رشيد سليم الخوري المحترم. أطال الله بقاءه بالنعم.

بين القلوب رسائل ونجاوى متتابعة. ومن الضمائر إلى الضمائر نبرات تقطع بدون أسلاك المساوف الشاسعة. ولكني من كثر العوائق. وضيق أوقاتي التي أقسمها على الأعمال بالدقائق. تراني جد مقصر في مكاتبتك. متلهفاً على فوت هذه السعادة في مخاطبتك. وإن كنت أراك في الأحايين في نظمك السائر في الآفاق. وأروي برشف ذلك الزلال العذب غلة هذا القلب المشتاق. وأدعو لك بأن تبقى للعرب صناجة تترنح لسماع ألحانها الأعطاف. وتتنور بآثارها الأحداق.

وبعد فلا أتذكر جيداً هل أرسلت إليك ديوان أخي «روض الشقيق في الجزل الرقيق» أم سهوت عن ذلك؟ فإني أهديت منه مئات. ولم أضبط بذلك قائمة. لأعلم بمراجعتها من أهديته ومن لم أهده. فأرجو أن تعرفني عن ذلك. وتجعلها وسيلة للطمأنة عن صحتك. وسلامي إلى إخوانك في الأدب. وزملائك في الحنين إلى الوطن. وأدامك الله للعروبة ولأخيك.

شكيب أرسلان

وهذه رسالة أخرى من الأمير إلى الشاعر القروي من جنيف بتاريخ ٢٣ نيسان سنة ١٩٣٧ ، وهذا نصُّها:

جنيف ٢٣ نيسان ١٩٣٧

حضرة الأخ الشاعر المفلق المبدع سيد الشعراء في السهل الممتنع رشيد أفندي سليم الخوري المحترم حفظه الله قرة لعين العرب والعربية.

لكم عندي جواب كتاب لو كتبته على الحدق. فضلاً عن الورق. ما وفيتكم إلاّ أقل من الحق. وبينما أنا أهم بالمجاوبة والأشغال تعوق والواجبات يزحم بعضها بعضاً وكلما فكرت فيكم أطرق خجلاً من نفسي. إذ زدتموني خجلاً على خجل بالتقريظ الذي رأيته لديواني من قلمكم الذي جعل الديوان في خبر كان. فما أحسن ذلك العقد المفرد. لو كان ثمة جيد أغيد. وما أجمل ذلك السوار الرنان. لو كان هناك معصم يستحق هذا الرنين. ومن الذي يعجب بشعري ويعده بدعا؟ إن هو إلاّ ذلك الشاعر الفحل. الذي سار شعره في كل سهل وجبل. وصار لعمري مضرب المثل. يتحير الإنسان في الحكم أمعانيه. أم مبانيه. أم اجتماع الأمرين إلى الدرجة القصوى فيه. أم سهولته مع الامتناع. ودنوه إلى الفهم مع أنه في سدرة المنتهى من الارتفاع. هي التي حازت له هذا المقام. فشرق وغرب. وانصات به الزمن. وجعل للمهجر في الشعر العربي التقدم على الوطن. إني يا حضرة الأخ عندما أفكر فيكم وأتلو شعركم. لأني أحفظ منه كما أحفظ من شعر الجاهلية. أهتف قائلاً: هذه نعمة أنعمها الله علينا معاشر العرب. أن يكون منا اليوم من تتفتق لهاته بمثل هذا البيان الساحر. والشعر الذي ينحني أمامه رأس كل شاعر. والذي كل حرف منه يفيض عزة نفس وإباء وشمماً وحباً للوطن لا يعرف التكلف ولا يبالي الشهرة. ولولا هذا الحب الصميم ما أتته تلك الفصاحة منقادة تجرر أذيالها وتقرن بسوارها خلخالها. إني لعاجز عن تأدية حقكم من الشكر. والتعبير عن كل ما أشعر به من الإعجاب بهذه النفس العالية وإنما أسأل الله أن يمتع بمثلكم هذه الأمة العربية التي رصعتم تاج لغتها بلآلىء كبار لا تزال تلمع في نظر ذوي الإنصاف من أهلها. وإن كنت أقصر في الكتابة إليكم فالله يعلم أن تقصيري هذا لم يكن إلاّ عن طمع في حلمكم. ومعرفتي

أنكم بضميركم الدراك من وراء البحار تعرفون مزيد محبتي لكم ووافر حرمتي لمقامكم وأنه لا يخفى عنكم ما أنا فيه من شواغل لا تحصى وكوني في دور السنة أكتب ما يناهز ألفي كتاب خاص ومائتين وخمسين مقالاً. هذا عدا الكتب المطبوعة التي تبلغ في الحول ألفي صفحة وأحياناً أكثر وفي هذه السنة أخرجنا جزءين من كتابنا على الأندلس يبلغان تسعمائة صفحة وجزءاً يتضمن حواشينا على تاريخ ابن خلدون يزيد على أربعمائة صفحة وكتابنا شوقي أو صداقة أربعين سنة وهو يناهز الأربعمائة صفحة أيضاً. هذا عدا ديواننا الذي رتبناه وعلقنا عليه تفسير الغريب وأسباب النظم. ومذ شهرين ونصف باشرنا كتاباً اسمه «السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة» لأننا كما وعدنا بترجمة لشوقي وعدنا بمثلها لحياة الشيخ رشيد وقد أتممنا كتابنا عن الشيخ فقد نجز طبعه واسمكم في أوائل الذين سيرسل إليهم وأما كتابنا في سيرة السيد رشيد فلابد لإنجاز طبعه من شهرين أو ثلاثة وعند ذلك نوعز إلى المطبعة بأن يقدموا لكم نسخة فأما كتاب الأندلس فقد بعناه لكتبي من المغرب وسنجتهد في إقناعه بإرسال ما ظهر منه وذلك هدية منا لكم وإن كان يجد صعوبة في الإهداء ولو على حسابنا لأنه يعتقد أن الإهداء يضيع عليه البيع وأنتم تعلمون طمع باعة الكتب ولو كان هذا الكتاب مطبوعاً على حسابنا مثل الكتب الأخرى لكان الآن عندكم فإنني أرتاح إلى إرسال كتبي إليكم ارتياحاً يخفف من الشوق الذي أجده في نفسي لملاقاتكم والذي لولا بعد المسافة كنت أعالجه بالسفر إلى أميركا الجنوبية حتى أشاهد أبناء وطني الذين فيها والذين أنتم في مقدمتهم ومادمت عاجزاً مع الأسف عن تلك الرحلة التي صار يشق علي اقتحام مثلها فإني أروي الصدى الذي في قلبي بمناجاتكم على البعد بتقديم هذه الكتب التي إن فاتتها البراعة لم يفتها الإخلاص والتي أعلم أنها تجد منكم صدراً رحباً وعيناً ترى الحسنات دون السيئات وآخر دعواي أنكم أخجلتموني فيما تفضلتم بنشره في مجلة العصبة عن ديواني وإن رأسي في الأرض ولساني معقول وأطال المولى حياتكم فخراً للأدب وذخراً للعرب.

أخوك

شكيب أرسلان

مبادلات أخرى:

وعندما قرأ الأمير الأرسلاني، قصيدة القروي «أمّا الأولى» التي مطلعها:

شمس العروبة عيل صبرُ المجتلي ... شقي حجابك قبلَ شق الرمسِ لي

أُعجب بهذه القصيدة إعجاباً شديداً، فنظم الأمير قصيدة مادحاً شعر القروي - معارضاً قصيدته «أمّا الأولى» بقصيدة جاء فيها هذه الأبيات:

قـل للقصـائـد كلُّهـن تـذللـي ... للشـاعـر القـروي وسـط المحفـلِ
وتـوسـدي الغبـراء عنـد قـريضـه ... وضعي جباهك في مكان الأرجلِ
مـن قـال إنـي قـد رأيـت نظيـره ... بجميـع أمـة يعـرب لـم يُعـدلِ
يـأتـي بكـل قصيـدة فتقـول لا ... مـا بعـد هـذا مطمـعٌ فـي أمثـلِ
فـإذا بـه يـأتـي الغـداةَ بـأختهـا ... عبثـاً تُفَـرِّق مـا مضـى عمـا يلـي
شعـر يجيئـك كلُّـه متشـابهـاً ... فتظـل تعـرج مـن علٍ وإلـى علِ

وعندما وصلت قصيدة المديح هذه للقروي نظم قصيدته المشهورة «أهلاً بكاملة» وهي قصيدة طويلة، نقتطف منها هذه الأبيات:

أهـلاً بكـاملـة سفيـرة أكمـل ... تختال في الحلل السنية والحلي
هي روضة من جنة هي شعلة من ... كـوكـب، هـي نطفـة مـن منهـلِ

ويتدرج في الأبيات فيصل ليشكر ويمدح أمير البيان:

عـربيـة التنـزيـلِ فصَّـل آيهـا ... قلـمُ الأميـرِ أميـرِ كـلِّ مفصَّـل
مـا تلـك بـالأولَـى لـه لكنـه ... مـن طبعـهِ شَفـعُ الجميـل بـأجمـلِ
كـم لـلأميـر يـدٌ أرسـلانيَّـة ... قلمي الضعيفُ لها يشاكي مقولي

ويتدرج بالأبيات مهاجماً أعداءا العروبة فيقول:

تـالله لِـمْ هـذا الجفـاءُ لأمـة ... مـا أنجبـت غيـر المعـمِّ المخُـولِ
أتـريـد أعظـم مـن أبـي بكـر ومـن ... عُمَر إذا انتسب الكرامُ ومن علَي؟

ويفاخر:

إنـي لصـدَّاحُ العـروبـة طـاب لـي ... شـدوي علـى سَـرَواتهـا وتنقُّلـي

ويتحسّر على فقرنا للعلم فيقول:

سنموت من ظمأ على بحر الغنى ... إن لم نَعلْ من العلومِ ونَنْهلِ
كم سببٍ متفجِّرٍ عن ثروة ... غرقَ العلوجُ بها ولم نتبلّلِ
لولا جمودُ الشرقِ ما نَعِموا بِها ... والطيباتُ نصيب من لم يكسلِ

وعندما علم أن صديقه الحميم عبد اللطيف الخشن ـ صاحب جريدة «العلم العربي» في الأرجنتين، قد إتجد له صبيٌّ وأسماه «شكيباً» تيمناً باسم الأمير الأرسلاني أرسل له أبياتاً يؤرخ له ميلاده ميلادياً وهجرياً ـ منها البيتان التاليان:

هذا ابن «عبدك» يا «لطيف» أرِبأ به ... في الحق عن غي البيان وعيه
سميته باسمِ الأميرِ تيمناً ... فارزقه باهر علمه ورقيّه

* * *

هذا ما وصلنا إليه من الرسائل المتبادلة، والقصائد المنظومة، بين هذين العظيمين اللذين عدًا من كبراء الشرق في عصرهما، ومنها يستدلُّ النبل الذي كان يتحلّى به هذان الرجلان العظيمان، والبلاغة في أسلوبهما، والعواطف الرقيقة في قلب كل منهما، وعسى أن يمكّننا الله من العثور على غيرها لنشرها في الوقت المناسب، ولابدَّ من أن يكون منها ما ينير جوانب كثيرة في حياتهما. رحمهما الله رحمة واسعة.

الأمير شكيب أرسلان
وسلطان باشا الأطرش

عندما اندلعت الثورة السورية الكبرى في جبل الدروز، في أعوام ١٩٢٥ و١٩٢٦ و١٩٢٧، لم يكن الأمير شكيب ببعيدٍ عنها، بل على العكس كان قريباً من مسارها وخطواتها وتطلعات قادتها، وعلى رأسهم سلطان باشا الأطرش وعادل أرسلام ورشيد طليع وفؤاد سليم وعلي عبيد وغيرهم. وكان للأمير رأيه الخاص في الثورة العسكرية والسياسية ومقاومة الفرنسيين مقاومة شرسة وعدم الإذعان إلى مطالبهم، وعدم الاستسلام، فكانت هناك رسائل

متبادلة مع سلطان باشا الأطرش، حتى أن الانتداب الفرنسي عرض على سلطان باشا، الاستقلال (بدولة جبل الدروز) فرفض الباشا ذلك رفضاً تاماً مفضلاً الجهاد ومقاومة الفرنسيين حتى آخر نقطة دم من دماء أبناء الجبل الأبرار.

وهنا، المراسلات التي حصلت بينهما، والتي أمكننا العثور عليها. كتب سلطان باشا والأمير عادل أرسلان، شقيق الأمير شكيب، إلى الأمير شكيب، رسالة، نشرت في مجلة (الضحى) في ١٤ كانون الثاني سنة ١٩٦٢، يقول فيها:

عطوفة الأمير شكيب أرسلان الأفخم

باسم عموم سكان جبل الدروز، الذين اعتدت عليهم السلطة الفرنساوية بالضغط والاستبداد وضرب الطيارات، وأنكرت حقوقهم التي كانت اعترفت بها قبلاً. قد وكّلنا عطوفتكم بمخابرة جمعية الأمم التي هي مسؤولة عن أعمال الدولة المنتدبة في سورية. وتفهيمها أننا حملنا السلاح ودافعنا عن أطفالنا وعيالنا مضطرين، بعد أن استعملنا كل الوسائل السلمية الأدبية لرفع ظلم الفرنساويين. وأن توضحوا لجمعية الأمم أنها هي أيضاً مسؤولة عن دمائنا المسفوكة ظلماً، وكذلك أن تعلنوا أن الله تعالى نصرنا على الظالمين. وعطوفتكم أدرى بالأحوال التي أدت إلى ثورات كثيرة في سورية، وبحقيقة رغائب السوريين عامة ونحن منهم واقبلوا في الختام فائق الاحترام في ١٥ آب سنة ١٩٢٥ عن القريه بجبل الدروز.

عادل أرسلان سلطان الأطرش

وكتب سلطان باشا رسالة ثانية يجدد بها التفويض إلى الأمير التكلم باسم الثورة في الخارج وبكل ما يتعلّق بها من اتصالات سياسية في المنتديات الدولية، نشرت في (الضحى) أيضاً في ١٤ كانون الثاني سنة ١٩٦٤.

وهنا، نصّ الرسالة:

جبل الدروز في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٦

عطوفة عالم الشرق وبطله الأخ الفاضل الأمير شكيب أرسلان الأفخم

تحية وسلام. وبعد بكل سرور أخذت كتابكم الكريم رقم ٢٧ حزيران ١٩٢٦ وما فيه من النصائح الجليلة الفائدة أصبحت قرينة الأذهان، وعموم الرؤساء والمجاهدين يوفقون أعمالهم وسيرهم بموجبها.

أيها الأمير الجليل! إن ما بلغكم من أقاويل الفرنسيين وادعائهم باستسلام السواد الأعظم من أهالي الجبل لسلطتهم، هو محض اختلاق وعارٍ من كل صحة، فالفرنسيون وإذنابهم يقصدون أن يحرفوا الحقيقة ويضلوا شعبهم. إن الشيء الراهن والحقيقة الناصعة، هي عكس ما يذيعون. وإن أهالي الجبل والسوريين دائبون ومداومون على جهادهم المقدس، حتى ينالوا رغائبهم المشروعة، وليقضي الله أمراً كان مفعولاً. وليكن معلوماً عند عطوفتكم بانا لا نحيد قيد شعره عن كل ما طلبته سورية من المطاليب المشروعة التي قدمنا لعطوفتكم نسخة منها، لذلك الرجاء أن تداوموا على أعمالكم المجيدة، وتحرصوا كل الحرص على أن لا تتنازل عن حرف واحد من المطاليب الآنفة الذكر، وأرجو أن لا تني عزيمتكم أمام هؤلاء الوحوش الضارية، لأنهم لا يحجمون عن التمسك عند سنوح الفرص بكل ما يرغبون كما أشرتم في كتابكم. نحن سنداوم الحرب إلى ما لانهاية، طالما البلاد لم تنل رغائبها. طمنوا فكركم. وكلما يجد عندنا بعد هذا التاريخ سنقدمه في البريد الآتي لتكونوا واقفين على الحالة تماماً هذا ودمتم باحترام دايم.

سلطان الأطراش

أما جواب الأمير شكيب، فقد حدَّد فيه بعض الشروط التي لم تكن متباينة مع طروحات سلطان باشا الأطرش نحو الانتداب وتمسكه الشديد بالحركة التي قامت في الجبل، وقيام الإخوان الدمشقيين بواجباتهم الوطنية نحو هذه الثورة وضرورة مساندتها ومعاضدتها بكل غالٍ ونفيس.

وهنا، نصّ هذه الرسالة (وجدت في أوراق الشيخ وهبه طليع صديق الأمير الحميم).

برلين في ٣٠ كانون الأول ١٩٢٥

حضرة البطل الهمام سيف الإسلام قائد الثورة العام حامي حمى الشام

أخينا سلطان باشا الأطرش الأفخم نصره الله وقهر أعداء الوطن وأعداءه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد هذه كتبت إليكم كتاباً مستوفي الشرح منذ عشرين يوماً لدى انصرافي من باريس، وأرسلته إلى أخي عادل في القدس، ثم لما بلغني أن عادل توجَّه هو وجماعته من إخواننا الوطنيين إلى جبلكم وصار بين أظهركم وهو أحسن فعل فعله مع كثرة ما له من الحسنات. كتبت إلى سعادة الأخ رشيد بك طليع بأن يرسل ذلك إليكم بأسرع ما يمكن وأظن أنه لم يتأخر عن إرسالها وأن خطابي أصبح عندكم الآن. لا أريد أن أعيد ما حررته في كتابي المذكور. ولا أدعي أنه الدستور الذي ينبغي أن تتمشى عليه الثورة السورية دون سواها، كلا. إنما أراه يجمع بين شروط استقلالنا الحقيقي وما لابدَّ لفرنسا أن تحتفظ به عاجلاً ذلك ضمن معاهدة من نظير إلى نظير لا ضمن الانتداب ولا بمقتضى وصاية فإن كان عندكم وعند زعماء الثورة أحسن منها فأنا أول من وافق عليها لكن أريد الاطلاع عليها حتى أبدي ملاحظاتي الخاصة. وإن كانت شروطكم هي ما نشرته الجرائد مؤخراً فنكون متحدين في الجوهر ولا يكون بيننا أدنى تباين في الأفكار. ما خرجت من باريس حتى أفضيت إليكم بخلاصة ما رأيته وحررت حديثي مع جوفنيل ومكالاماته مع بعض رجال فرنسا، وكان بعض أصحابي أشاروا عليَّ بالتربص في باريس حتى أقابل المسيو بريان، وقيل لي بل رئيس الجمهورية، فلم أشأ التربص، قلت المهم هو عرض اقتراحاتي فإن جرى قبولها وقد قدمناها إلى جوفنيل وتقدمت منها نسخة إلى بريان وقرأها وأظهر الرضى كما علمت من مسيو رونوديل، فذلك ما كنا نبغي قابلناهم أم لم نقابلهم، وإن كانت اقتراحاتنا هذه غير مقبولة، فلا حاجة إلى جلسة مع رئيس النظار أو مع رئيس الجمهورية. إن الاجتماع معهم شرف كبير لكننا الآن لا شأن لنا في الفخفخة بل في المصلحة، ورجعت من باريس إلى برلين لأجل إكمال مساعيّ. أرجو إذا نجحت أن يكون تقوياً لسعادتكم. ومنذ عشرة أيام نشرت الجرائد خبر مؤداه أن عمنا أمين وثلاثة من الزعماء الوطنيين ذهبوا إلى ناديكم لأجل مفاوضتكم بالصلح، وصرنا نتوقع النتائج ونتنسم أخبار هذه البعثة الساعة فالساعة. تفاءلت بذهاب ابن عمي أمين بهذه الرسالة، إني أعلم مباديه وتمسكه باستقلال الوطن فقلت: لو كانت المهمة غير حاوية الاستقلال الفعلي

لما كان رضي بأن يتولاها وكان اعتذر عنها ونشأت من هذه المهمة لاطلاعي على كلمات كان يفوه بها جوفنيل في سوريا مخالفة للروح التي كانت فيه وهو في باريس وقلت: أخشى أن يكون بلغ بالدروز وسائر إخوانهم الثوار الأعياء حتى صاروا يريدون الخلاص بأي وجه كان.

أخي سلطان:

أنا، لما قمتَ بالحركة، لم أكن متفائلاً ولا شجعت عليها، وذلك لأنني كنت أنتظر لاستقلال سوريا فرصة أحسن، وخشيت أن يتفرد الدروز بالحركة ولا يقويا على مقاومة فرنسا بفصائلها المعهودة فيهلكوا، فلهذا لم أكن من يقدر أن يدعي بأنه أشار إلى هذه الثورة المشروعة. لكن من بعد أن قام إخواننا الدمشقيون بواجباتهم الوطنية وسالت دماء المسلمين أهل السنّة في قناة واحدة مع دماء الدروز، تمسكت بالحركة ولم أزل متمسكاً بها.

وأنني أناديكم وأنادي جميع أولادنا إن كان من عيال معروف أو غيرهم أن لا يضعوا السلاح قبل تأمين استقلال سوريا. موضوع كتابي هذا، مسألة الصلح، والسبب الذي يبعث إليه هو خوفي من أن تسرعوا وأن تلقوا السلاح من أيديكم قبل أن تأمنوا عنت الفرنسيين ومكرهم. اعلموا يا أخي سلطان ويا إخواني ويا أولادي دروز حوران ووادي التيم أن الأفرنج لا يحترمون إلاّ الرجل الغليظ الخشن الذي يتكلم بلسان القوة، وأنه مادام الإنسان قائماً في وجههم وسيفه مسلول في هذه الحال هو عندهم عظيم، وراغبون في ولائه، وبمجرد ما يرضى بالصلح ويميل إلى جانب اللين حتى يسقط في نظرهم وتصر أسنانهم عليه، ويبدأون في الغطرسة والعناد. لا أريد بهذا الكلام أن أبيّن لكم وجوب الحرب إلى ما لا نهاية. كلا. بل أريد أن أحذركم من لين المقال وأن أفهمكم أن الدول الاستعمارية كلها، ولاسيما فرنسا، لا تعرف قولاً ولا وعداً ولا عهداً ولا شيئاً من هذه الأشياء كلها، وأن سياستها تنحصرا في هذا البيت:

فإن ضربوني جئتهم في دقيقهم وإن خلفوني فانخلي يا أم عامر

فإياكم ثم إياكم أن تفرقوا جموعكم وأن ترموا السلاح من أيديكم قبل

أن تعلن فرنسا رسمياً قبولها داخلاً وخارجاً ودخول دولة سوريا عضو في جمعية الأمم مع إلغاء الانتداب، وقبل أن تبدأ فرنسا بسحب عساكرها طابوراً بعد طابور واعلموا أنكم إذا سلمتم ووضعتم سلاحكم وتفرقتم كل رفيق في طريق، انقضَّ عليكم الفرنسيون وارتكبوا فيكم ما ارتكبوه من الفظائع إلى اليوم، فلا يتفرغ جمعكم ولا تفارق السيوف أيديكم حتى يتم إعلان فرنسا لاستقلال سوريا وتبليغها الأمر رسمياً لجمعية الأمم وتشكيلها الحكومة المؤقتة التي هي تباشر الانتخابات للجمعية التأسيسية. ثم الابتداء بسحب عساكرها، وعلى غير هذه الصورة تذهب الدماء الغزيرة التي سفكتموها، والأموال العظيمة التي بذلتموها، وخراب الشام وحماه والسويداء وقرى الجبل وقرى الغوطة وخراب حاصبيا والإقليم كله سدى، ويعود الإفرنجي يغدر وينكث ويخترع ألف حيلة للنكث ولا يبالي، وقد جربتموه أنتم أنفسكم فما لي أذكركم بما تعرفونه. تذكروا ماذا تعهد به لكم أول دخوله إلى الشام، ثم تذكروا كيف عمل فيما بعد عندما استقرت قدمه. إني أول ساعٍ في الصلح وأول مشفق من تمادي هذه الحرب لكن من شدة أشفاقي هذا أعلن لكم أن كلام جوفنيل هذا اتركوا سلاحكم وارجعوا إلى أوطانكم وبعد ذلك نمنحكم حق انتخاب جمعية تأسيسية، حريٌّ أن لا يقبله الأطفال في الأسرّة فضلاً عن الرجال الأذكياء أمثالكم، فلا تصدقوا أنه بعد أن تخمد الثورة وتصير سوريا رماداً تعود فرنسا وتعطي استقلالاً. كان الفرنسيس والأسبانيول اشترطوا شروطاً على عبد الكريم واعلنوها في الجرائد، فلما أظهر عبد الكريم ميله إلى الصلح وأرسل معتمداً إنكليزياً إلى باريس بطلب الصلح وفقاً لتلك الشروط نفسها رفضت فرنسا وإسبانيا طلبه. وقالت هذه الشروط مضى عليها الوقت ونحن لا نؤمن عبد الكريم ولا نصالح إلاّ بخروجه من تلك المنطقة، فأنتم إذا تفرقتم وتركتم سلاحكم وأراد الفرنسيون أن ينكثوا ويغدروا بكم فمن يؤمنكم عاقبة ذلك الغدر والعياذ بالله... وإن كان مُراد فرنسا استقلال البلاد فلماذا تطلب خروجك يا سلطان من سوريا؟ فإن تكون مستقلة لأهلها فماذا يعني فرنسا منها أن بقي سلطان بوطنه أم لا؟ لاشك أن إصرار فرنسا على إخراج سلطان باشا الأطرش من وطنه دليل على أنها لا تريد أن تعطي استقلالاً بل طلاء حرية لا يلبث أن يضمحل وتبقى يدها هي على البلاد، ومادام

الفرنساوي هو المسيطر فلا راحة لنا، وأقرب أن تبيضّ جلود العبيد السود من أن يغير الفرنساوي طبعه.

أريد الصلح ولا يوجد قلب يلتهب ناراً على ما هو حايق للوطن من الدمار أكثر من قلبي. لكن أخاف أن نكون فادينا بأرواحنا وأموالنا ومساكننا ثم تذهب كل هذه وتذهب حريتنا معها. فالجواب اللازم لجوفنيل طلب إعلان الاستقلال الحقيقي رسمياً للدول ولنا، وتبليغه إلى جمعية الأمم، كما أبلغت انكلترا اتفاقها مع العراق إلى الجمعية المشار إليها. وعقد هدنة يبقى بعدها جموعنا بعساكرهم. إلى أن تكون تمت الانتخابات وقررت الجمعية التأسيسية الاستقلال الناجز، وعقد مع فرنسا اتفاق بموجب معاهدة النظير مع نظيره ولا موجب للشرح لأن الحالة السياسية العامة متغيرة واتفاق الروس مع الأتراك قد يولِّد أحداث موافقة لنا. إني حريص على أني لا أتأخر عن الصلح بيننا وبين فرنسا دقيقة واحدة والله على ما أقول شهيد، لكننا حيث وصلنا إلى هنا، لا نبغي صلحاً إلاَّ إذا كان صلحاً، وأن نقوم بهذه المجوهرات العظيمة التي أدهشت المشرق والمغرب ثم نضيِّعها بالسذاجة والغفلة. ونحن هنا مواصلين المساعي للحصول على ما يؤيد حركتنا الوطنية بجميع الوسائل المادية والمعنوية. في شهر شباط سنكون أمام لجنة الانتدابات في جنيف أو في روما وستظهر فرنسا بحسبما وعدت، فإذا كانت الشروط السورية لم ينته أمرها فتزداد فضيحة على فضيحة. وآخر ما أذكركم به هو أن الحرب خديعة. فاحذروا أن تضيِّعوه كما خسرتموه ضياعاً أبدياً بمجرد الخدعة، واصبروا وصابروا واكملوا العمل الأمجد الذي قمتم به ببناء الصلح على أساس متين لا نقض له، واعلموا أن خير الأعمال بالإكمال والله تعالى ينصركم ويخذل العدو المعتدي ويحرِّر ديارنا من سلطة الغاشم. وأطال الله بقاءكم.

شكيب أرسلان

الأمير شكيب أرسلان
والأستاذ محمد لطفي جمعة

محمد لطفي جمعة (١٨٨٦ ـ ١٩٥٣): أحد رواد نهضتنا الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية في مطلع هذا القرن. كتب في الأدب والتاريخ والسياسة والفلسفة والاجتماع والقصة والمسرح، وكان له أعمق الأثر في الحياة الأدبية والثقافية والاجتماعية بما قدمه من مؤلفات نفيسة، فقد ترك من سنة ١٩٠٣ حتى سنة ١٩٤٠ ما يزيد على عشرين كتاباً، ومئات المقالات والدراسات التي نشرها في مختلف ألوان المعرفة والعلم على صفحات الجرائد والمجلات المصرية وفي الجرائد والمجلات العربية.

وقد جمعت بينه وبين رجال العصر آنذاك، صلات وثيقة، ومراسلات كثيرة، أخصها العلاقة مع أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، عندما جاء هذا الأخير إلى مصر، وزارها عدة مرات، فجمعته أخوة متينة مع الأمير العظيم الذي كان ملء الأسماع والأبصار في زمانه.

وهنا، بعض المراسلات التي قامت بين الرجلين الكبيرين اللذين كان لهما شأن كبير في ذلك الزمان.

كتب الأمير شكيب إلى المحامي محمد لطفي جمعة رسالة يطلب إليه فيها التعرف به، كتبها من فيشي بتاريخ ١٩٢٦/٨/١٢، يقول فيها:

«حضرة الأخ الأديب الراسخ المحقق السيد محمد لطفي جمعة أكثر الله من أمثاله. قرأت تحت هذا الاسم الكريم مقالات أخذت بمجامع قلبي وتشوقت إلى معرفة صاحبها فإذا به قد لبى بلاسلكي الأرواح نداء وجداني وبادأني بكتابة حققت لي مرة أخرى ما صادفني كثيراً من نجوى النفوس بدون سابق تعارف فها نحن أولاء اخوان أنا أشدهما اغتباطاً بصاحبه ورجائي أن لا أحرم كتاباتك وسحر بيانك».

لطفي جمعة والأمير:

وكتب محمد لطفي جمعة مقالاً في الأمير شكيب حول ديوانه وقد

أرسلها لصاحب مجلة «الشورى» الأستاذ محمد علي الطاهر، ونشرها الطاهر يومذاك، وقد جاء فيها:

أخي صاحب الشورى

من المصادفات العجيبة التي يحلو لي تسجيلها في توارد الخواطر ما وقع لي الساعة:

كنت أعدُّ كلمة وجيزة في ديوان أمير البيان وبطل العروبة وخادم الأوطان، الأمير شكيب أرسلان، فإذا بي أقرأ في صحيفتكم الجامعة الكتاب الكريم الثمين الذي تفضل بتوجيهه إلي فكانت مفاجأة سارة، ولكنها لا تعوقني عن الاسترسال في دراستي لشعره العجيب النادر المثال، وأول ما لفت نظري أن معظم شعره المنثور قاله في فتوته ويفوعه. فكان براعة استهلاك لتلك الحياة الحافلة بالعلم والأدب والعبقرية المثمرة بألوان من الجهود الكريمة الكبيرة التي يأبى هذا الرجل الفذ أن يستمتع بالراحة دون إتمامها. فهو جواب آفاق في سبيل الشرق وإحياء آثاره، وتخليد مجده. وقد وهبه الله همة عالية وصبراً طويلاً وصدق نظر وصحة رأي. وأراد أن يكرمه بمكافأة في حياته المديدة إن شاء الله، فرأى بعينيه ثمار أعماله وأعمال رفقائه في الجهاد وأتمَّ الله نعمته عليه، وهذه أعظم علامات الرضى. وتراه بعد ذلك يرتفع بشمم أخلاقه إلى أسمى درجات التواضع، ويكتب بقلمه الرائع أنني حشرته في «جملة الذين بذلوا بعض الجهود في سبيل إعلاء شأن وطنهم»، ثم يصف نفسه بالعجز أستغفر الله.

فلما أطلت النظرة في هذه الكلمة دهشت، ولكن الذي حول ذهني عن الدهشة علمي بأن نكران الذات إلى هذه الدرجة النادرة لا يصدر إلاّ عن شكيب أرسلان وحده، وأنه لدرس يبلغ نافذ للعالم أجمع. لقد أقيمت تماثيل في كل أنحاء العالم حتى العربي منه لرجال عاملين، وأقام إخواننا اللبنانيون تماثيل لبعض نوابغهم. ولكن تمثال شكيب قد نحته وحفره ونصبه. وحلاه بأقلامه ومحابره، فجاء صورة من نور وبهاء، لا يعد له تمثال من الحجر الصلد أو من الصخر الصامت.

وقد شغف هذا العبقري الفذّ بحب العظماء والتودد إليهم. ولا عجب فإنهم منجذبون إليه بفطرتهم بحكم صفاء الجوهر ونقاء المعدن. وهذه الظاهرة وحدها دليل جمال نفسه، جلال خلقه، فها هو المرحوم محمد سامي البارودي يبعث إلى الأمير بقوله:

أشدت بذكري بادئاً ومعقباً ... وأمسكت لم أهمس ولم أتكلم
لك السبق دوني في الفضيلة ... فاشتمل بحلتها فالفضل للمتقدم

وفي القصيدة التي أجاب بها الأمير (وهي من نفس البحر والروي والقافية) يقول حفظه الله:

ولو كان يدري فاضل قدر نفسه ... رأى ذكره فرضاً على كل مسلم

وها هو الأمير الشاعر ينصرني نصرة سابقة. ويعترف في شعره بأن الفضلاء يغمطون حقوق أنفسهم. وهذا أبلغ ردٍّ على تواضعه من نفس شعره. وها هو أوجب فرض ذكره على كل مسلم. قالها في مجال الرد على محمود سامي في تواضعه وأقولها في الرد على الأمير في تواضعه وعلى قوله أنني حشرته في جملة خدام الأوطان:

وهل ينكر الإحسان إلاّ لئامه ... وينكر حسناً غير من طرفه عمي؟

كل هذا وسامي رحمه الله في المنفى، والأمير في فتوته. فما كان أبكر هذا النبوغ وأبدره وأيقظه وأنضره!! وبعد توثيق المودة مع شاعر الثورة العربية، ترى أميرنا الشاعر يراسل المرحوم الشيخ محمد عبده، وعبد الله فكري، وإسماعيل صبري، والسيد أحمد الشريف السنوسي، وعزيز عزت، والشدياق، وشوقي، وحافظ إبراهيم، وتيمور، واليازجي، وجاويش. ومن أروع شعره ما نظمه في أعلاء ذكر الإسلام وأبطاله. كقصيدته في خالد ابن الوليد، وشعره في الخلفاء الراشدين بعد تغنيه بمديح رسول الله وليس شاعرنا ضنيناً بفكره على نوابغ الإفرنج فقد زار دار جوته شاعر الإلمان الأشهر فقال:

مذ قليل هذا بيت (غوته) زرته ... إذ كان للشعراء كعبة قاصد
هذا أمير الشعر عند قبيله ... منه لجيد الدهر عقد فرائد
طأطأت رأس قريحتي في بابه ... ولكم رأت عتباته من ساجد

إن لم يكن من أمتي وعشيرتي فالناس في الآداب أمة واحد
(أو فاتنا نسب) يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

وفي البيت الثالث من الحذر الجميل وحسن التعليل ما يكفي لتخليد شاعر. وفي التضمين آية للذكاء والذكرى والتعلق بأهداب الإنسانية الراقية، وفكرة حققتها عصبة الأمم بسعيها في توحيد الجهود الأدبية. فقد سبق الأمير بفكرته جماعة الشعوب بأسرها، فلا عجب إذا نقلت صحف ألمانيا هذه الأبيات إلى لغتها وقالت: «هذا إكرام شاعر الشرق لشاعر الغرب».

فهذا الديوان قطعة بل قطع من قلب الأمير وقد أحسن إلى التاريخ بنشره فهو صورة مصغرة من حياته التي قضى أحلى أيامها في معاشرة العظماء وصداقتهم وفي تمجيد العرب والإسلام وخدمة الأوطان الشرقية. والجانب اللين أنه ظاهره في المبادرة برثاء كل صديق تعدو عليه المنية. ومن أجمل شعره رثاءه للمرحوم الأمير عبد القادر نجل سمو عباس حلمي الثاني الخديوي السابق في ٢٠ أبريل سنة ١٩١٩ وهي التي مطلعها:

أسائل دمعي هل غدوت مجيبي إذا شئت أطفي حرقتي ولهيبي
لئن بكت الخنساء صخراً فإنه لقد بات يبكي الصخر طول نحيبي

وقد ضمنها شباب الأمير الراحل وذكاءه وأدبه والآمال التي كانت معقودة عليه.

واللطيف في القصيدة (على شدة ما يعرونا من الألم لدى تلاوتها على شبابه واغترابه) أن الأمير الشاعر تحدى فيها المتنبي في رثاء يماك أعز شباب البلاط لدى سيف الدولة وهي التي مطلعها:

لا يحزن الله الأمير فإنني لآخذ من حالاته بنصيب

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن شاعرنا لم يكن متعمداً ولكن سليقته الشاعرية وقدرته الفنية أظهرتا له بحكم العقل الباطن أن هذا الوزن وهذه القافية هما الصالحان للرثاء لما فيهما من أثر يشبه النواح والأنين.

ورأى الأمير حادثة لحسناء تشتغل في معمل القطن بطرطوس فقال:

جارت عليها وهي بعد صبية نكباء تصطلم الأسود ضروسها
بعد القصور العاليات رأيتها في كسر بيت قصرها ناموسها
تمضي لما في الغزل بيض أنامل ظلم الذي هو بالحرير يقيسها

ولما كانت الفتاة مسيحية فقد أجاب خليل مردم بأبيات طريفة منها:

والروح والإنجيل حلفة صادق ويمين حق لا يرد غموسها
أني لهبت بذكر يوحنا ومرقـ س وازدهى في ناضري جرجيسها
هذا ولولا حب دين محمد «من دون كاد» لأم بي قسيسها

هذا ما أردت أن أبعث به إليك يا صاحب الشورى تنويهاً بفضل ذاك العلم الذي يظلمني بقوله: إني حشرته في جملة الذين بذلوا بعض الجهود في خدمة الأوطان فانصفني!!

محمد لطفي جمعة

وكتب الأمير شكيب أيضاً، إلى الأستاذ محمد لطفي جمعة، رسالة من لوزان، سويسرا، سنة ١٩٢٦ حول نقده لكتاب «الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين، يقول فيها:

منذ مدة طويلة أحدث نفسي بمكاتبتكم وتصدني عن ذلك الأشغال وكان مرادي أن أرجوك جمع تلك المقالات التي نشرتموها في المقطم وغيره في نقض كتاب الشعر الجاهلي، فما أنا ألا والجرائد تكتب صدور هذا المجموع وكوكب الشرق ينشر المقدمة الغراء بل الخريدة العذراء التي هي مقدمة الكتاب فراقتني جداً وسرّني نشر هذا المجموع كثيراً وجئت أهنئكم وأشكركم وأتمنى أن يقيض الله لهذه الأمة ممن يملك ملكتكم في البلاغة وسداد الحجة ومتانة التركيب وقوة الروح عدداً كبيراً وأن يمتعنا طويلاً بفضلكم وأدبكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

* * *

وهناك مراسلات أخرى بين الرجلين، لم نعثر عليها في مراجعنا وكتبنا. وعسى أن نتمكن في المستقبل القريب كشف بعض هذه الكتابات ـ الكنوز

التي تعطينا صورة صادقة كاملة عن أديبين كانت حياتهما حافلة بالأحداث والأعمال والآلام والآمال والجهاد في سبيل العلم والمعرفة والحق والخير والحرية.

وصدق من قال:

«لا يظهر النابغون إلاّ بعد جهاد عنيف ومرّ، ولا ينتفع الناس بمواهبهم إلاّ وقد أذنت شموسهم بالأفول، لأن الأدعياء يزاحمونهم بالمناكب، وقد يفوز الجاهل على العالم، في بلد لا تعرف فيه الأقدار».

الفصل الثاني

في رياض الشعر

في هذا القسم شيء من شعر الأمير شكيب ومن شعر آخرين على اتصال بالأمير.

البلاغة في الغزل

القصائد التي نظمها الأمير شكيب أرسلان في الغزل قليلة، لأنه انصرف أكثر ما انصرف إلى القصائد الوطنية أو السياسية أو قصائد المدح والرثاء، ومن نوادره في الغزل هذه القصيدة الغزلية، نشرها أمين الغريب في مجلة «الحارس»، العدد العاشر، بتاريخ شهر تموز سنة ١٩٣٠، وهي التالية:

أرى في غزال الدو منه شمائلا ... فاهفو إليه كلما مرّ سانحه
وتحظر قضبان العذيب فتثني ... معاطفه في خاطري وجوانحه
أكاد لمرأى كل غصن أراكة ... أعانقه من أجله وأصافحه
وأعشق نور البدر ليلة تمه ... لأن قد بدت منه عليه ملامحه
يقول عذولي شف مسكتك الهوى ... فأنتَ لعمري ذاهب الفكر سائحه
فقلت جميع الرشد في سبل حبه ... إذا لاح لي من ذلك الوجه لائحه
وقالوا أضعت العمر في حب أهيف ... ومن علق الغزلان ضاعت مصالحه
فقلت لهم يا حبذا ما أضعته ... بمن حبه كنز تنوء مفاتحه
فداً كل ظبي بين سلع وحاجر ... لمهجة ظبي في الفؤاد مسارحه
ومهما يعذبني فعذب مذاقه ... ومهما يؤرقني فإني مسامحه
وما أسعد الليل الذي أنا ساهر ... وما أقدس الدمع الذي أنا سافحه
وقالوا قطعت الأربعين فما الهوى ... وقد صاح في فوديك للشيب صائحه
ولم يعلموا أن المهار وإن زلت ... لتعجز عما طال في الجري قارحه
بلى أنا سلطان الغرام وهذه ... صحائفه في راحتي وصفائحه
إذا في كتاب الحب طالع مغرم ... وشرط المعنى أن تغيب جوارحه
خلي إ ذا رام الصلاة تداخلت ... تحيته مع ذكره وفواتحه

الجمال الأسباني

للأمير شكيب هذان البيتان، يصف بهما جمال فتاة إسبانية:

من بنات الملوك تخطر في الرو ... ض كغصنٍ عليه بدرٌ تجلّى
قلدت جيدها اللآلي، وما كا ... ن المحلّي - واللهِ - غير المحلّى

الحب الحلال

وله أيضاً هذان البيتان:

وأفرطتُ من وجدي به، فدَرَى بنا ... على ساعة اللقيان مَنْ لم يكن يدري
وما الحب ما وريْت عنه تستراً ... ولكنه ما ملتَ فيه إلى الهجر

من روائع الغزل

قصيدة غزلية، نظمها في برلين في ٨ شباط سنة ١٩٢٢، جاء فيها:

فيهم جآذر لا ترى في غيرهم ... كلا ولا بسوى ذراهم تُعزفُ
تلك الجآذر لا قلاع المنحنى ... تدري ولا جرعاء رامة تألف
عجباً لها ترعى أجلَّ حواضر ... ومسارح الغزلان قاعٌ صفصف
تستلطف الغزلان في فلواتها ... لكنها بين الحدائق ألطف
مكن كل أهيف لو رأت بان النقا ... أعطافه لغدت لها تتقصّف
تلقاه في وسط النديّ كأنه ... تمثال حسن قد حواه متحف
خجلان يرجف من خفارة طبعه ... والأسد منه لدى الكريهة ترجف
ظبيّ ولكن في المعامع ضيغمٌ ... حمل وفي الحملات ذئب أخطفُ
متأودٌ بين الصفوف بعطفه ... لكن إذا حمس الوغى لا يعطف
ولخصره فعلُ القنا مع وهبه ... وكذا يُمرُّ على الذين استضعفوا
ولقد أحار إذا بدا بنجاده ... أقوامُهُ أم سيفه هو أرهفُ
ولرب أغيد أستبينُ بجيده ... بشراً كلون الثلج أو هو أنظفُ
وجه أغرُّ وقامة فتانة ... ومحاجرٌ دُعجٌ وجفنٌ أوطف
وعوارض منها اسيم بجنة ... نظري وللتفاح منها أقطف
ومقبَّل ما زلت أرشف برده ... وأقول أين الشهد مما أرشف

تقع الصفات على المحاسن كلها — إلا الرضاب فذوقه لا يوصف
أقسمت لو نظر السقيم لوجهه — نال الشفا وهو السقيم المدنفُ
ما نلت منه جلسة إلا غدت — معه بأقرب موعد تستأنفُ
خلسات وصلٍ لم تشبها ريبةٌ — كلا ولا منها الشهامة تأنف
أرخي العنان للذتي حتى إذا — ما قاربت أمد النكارة أصدف
أهوي إليه بجملتي فاضمهُ — وأشمُّهُ وأقول يا ربَّ العفو

رثاء أحمد مختار بيهم

وهذه قصيدة للأمير، يرثي بها المرحوم الأستاذ أحمد مختار بيهم، أحد أعيان كبار مدينة بيروت، نظمها في أثناء وجوده في «ميونيخ» في ٢٥ آذار ١٩٢٠، عندما جاءه نعيه من بيروت. وكان الوجيه بيهم صديقاً صدوقاً، وأخاً ودوداً، للأمير الأرسلاني.

وهذا نصُّها:

هلاَّ وأنت الجوهر المختارُ — عن نيل مثلك تصبر الأقدارُ
وتكون عن دار العلى متأخراً — وإلى العلاء لك السباق شعارُ
سابقتَ في الدنيا إلى ما بعدها — وكذا الفناء إلى البقا مضمارُ
أبقيتَ من غرر الفعال مآثرا — اليوم هنّ براحتيك منارُ
وتركتَ من ظلم الحياة لياليا — هي عند ربك كلها أسحارُ
إلاَّ تكن تلك الحياة طويلةً — فلقد يساوي العامَ منك نهارُ
أو كنتَ ودَّعت الأحبَّة غبْطةً — بَكِراً فعمرك وحده أعمارُ
كم في الشباب الغصن منك كهولةً — وعليه من دون المشيب وقارُ
سرعان ما اخترت الرحيل أشدّ ما — احتاجت لك الأوطان والأوطارُ
لو لم نكن ندري وفاك وأنه — أجلٌ لقلنا جفوة ونفارُ
لبّيتَ من ملأ الملائك داعياً — فوراً وشأنك في الأمور بدارُ
وجدوك أجدر بالجنان وشاقهم — يومٌ تجاورهم ونعم الجَارُ
غارت من الأرض السماءُ نفاسةً — بك والضرائر بعضهنَّ يغارُ
فازت بك الخضرا لذا غبراؤنا — تبكي نواك ودمعها أنهارُ

لا غرو أن نُرزا بفقدك ماجداً ... فبكل مجدٍ للمنيّة ثارُ
أو أن تكون لسهم دهرك معرضاً ... هدفاً فأغراض الكبار كبارُ
ما كان خطبك سيدا قد غاب بل ... جمعا يضيع وجانبا ينهارُ
قد كنتَ في الأوطان قِبْلة معشرٍ ... يهدون هديك إن سَرَوْا أو ساروا
كانوا إذا ما أبصروك أمامهم ... رشدوا وإن ضلوا سبيلك حاروا
ذكروا مكان أبيك في أيامه ... علماً إليه بالبنان يُشارُ
فحذوتَ حذو أبيك بل جاوزتَه ... إنَّ البنين لأهلهم أسرارُ
لم تجتزىء بتليد مجدك عالِماً ... أنَّ الرجال إذا مضت أخبارُ
فنهضتَ للعليا بنفسك طالعاً ... أنجادها والفضل ليس يُعارُ
أمسيتَ في العرب الكرام منارةً ... تعشو لضوئك يعرب ونزارُ
بعزائم مشبوبةٍ ومكارمٍ ... عنهن بيعان الكرام قِصارُ
كانت خلالك في الأنام فريدةً ... بنظيرها تُستطرف الأشعارُ
لم يقصر المداح فيك وربما ... سكَتَ اللسان وقالت الآثارُ
الهمّة القعساءُ يربض تحتها ... جأشٌ بركن ذراه ليس يطارُ
تلقى الخطوب بقلب شهم عنده ... أبداً كبار الحادثات صغارُ
حرمت بلادك في مصابك واحداً ... هو في الحقيقة جحفلٌ جرارُ
أتخيّل الأرجاء بعدك قد خلت ... فكأنما تلك الربوع قفارُ
لا الثغر ثغرٌ إذْ غدوتَ برملهِ ... رهن الضريح ولا الديارُ ديارُ
اعززْ عليَّ أبا أمين أنه ... أملي بقربك عاد وهو بوارُ
قد كنتُ أرجو أن أراك وإذ به ... ما بعد ذيّاك العشيّ عَرارُ
قد كنتُ طول البعد نصب نواظري ... ويرى الفؤادُ ولا ترى الأبصارُ
أبداً أطارحك النجيّ كأننا ... رغم المساوف كلها سُمّارُ
ما مرَّ عن بيروت سانح خاطر ... إلاّ ومثّل شخصك التذكارُ
أو لا تكون كذا وأنت بأرضها ... قطب الرحى وعلى القطوب يُدارُ
أعززْ عليَّ أبا أمين أنني ... أرثيك نظما والدموع نُثارُ
سدك البكاء بمقلتيَّ فأدمعي ... بهما غزار والرقاد غرارُ
أعزز عليّ بأن مضيت ولم تزل ... تلك المنى وفنيقهنّ جِوارُ

والناس شائمة بوارق لُمَّعاً ... تخبو وتومض والقلوب حِرارُ
يتذكرونك كل حزة مأزق ... ولدى الحنادس تنشد الأقمارُ
إذ سيف رأيك في الحوادث فيصلٌ ... وندى يمنيك ديمةٌ مدرارُ
ومن القلوب معاصم ومعاقلٌ ... ومن العقول أسنَّة وشفارُ
قد كان عهدك للرفاق: تذكروا ... حق البلاد وأنكم أحرارُ
حق البلاد بأن تكون لأهلها ... ملكاً صريحاً ما عليه غبارُ
أوطاننا في الأرض خالصة لنا ... نحن الطيورُ وهذه الأوكارُ
لا تبعدنَّ إن تغب يا أحمدٌ ... تحت الثرى فلأحمدٍ أنصارُ
لاحت تباشير الخلاص وإنما ... يبدو الصباح وقبله الإسفارُ
ضل الألى حسبوا البلاد غنائماً ... تلك الجنان جنان «جلَّق» نارُ
والطامحون إلى الفرات ودجلة ... مجرى الفرات ودجلة تيارُ
والبائعون القدس رهطُ صيارفٍ ... ما للصيارف عندنا دينارُ
قد كان أمَّ بلادنا آباؤهم ... أمماً فلاقى ريحهم إعصارُ
لو يذكرون من الحوادث ماضياً ... ما عزَّهم لمقامنا استحقارُ
لكنهم أمنوا الزمان كأنما ... بين الزمان وبينهم آصارُ
وتوهموا تلك العصور وقد خلت ... ليست تعاد وما لها تكرارُ
كلا وربِّك ما أصاب حسابهم ... ولكل قوم نهضة وعثارُ
إنَّ الزمان هو الزمان تقلُّباً ... مادام إلاّ الواحد القهارُ

لوعة أخ على أخيه

وهذه قصيدة لأمير البيان شكيب أرسلان، يرثي فيها المرحوم الحاج عبد السلام بنونة، مؤسّس النهضة الوطنية في تطوان، وكانت وفاته في مدينة (رندة) بإسبانيا حيث كان يبدل الهواء، والفقيد أسَّس شركة الكهرباء في تطوان وانشأ معملاً للنسيج، وكان رئيساً للوفد المراكشي الذي سافر إلى إسبانيا للمطالبة بحقوق بلاده.

وقد حرَّكت هذه الفجيعة مشاعر صاحب العطوفة الأمير شكيب صديق الفقيد الحميم، فبعث إلى جريدة (الجهاد) المصرية يرثي عميد منطقة الريف، بهذه القصيدة العصماء بل الدرة اللامعة.

وقد نشرت بتاريخ ١٣ شباط سنة ١٩٣٥ :

يا مدمعي أكفياني نار أحزاني … أني عهدتكما من خير أعواني
نار تأجج في قلبي فهل لكما … أن تطفئاها بتسكاب وتهتان
إن لم يك اليوم لي رنات ثاكلة … فأي يوم له وجدي وتحناني
أقضي الليالي لا أحظى بطيف كرى … موزعا بين حيران وحران
مالي بغير كؤوس الدمع مغتبق … وليس غير نجوم الليل ندماني
تأبى المروءة قلباً غير متقد … على حبيب وطرفا غير ريان
لا بوأتني المعالي متن صهوتها … إن كان لم يصم قلبي فقد خلاني
وليس كل أخ تأتي منيته … على رؤوس ذويه دك بنيان
أنا فقدناك يا «عبد السلام» لدن … كنت المرجى لأوطار وأوطان
وكنت ركناً لها إن أمة لجأت … من الورى لأساطين وأركان
الباهر الخصل يُعيي من يسابقه … والقائل الفصل عن علم وبرهان
يرمي بكل مراش من كنائنه … عن كل قوس من التفكير مرنان
كانت محامده شتى نقول لها … سبحان نظامها في سلك إنسان
مهذب الخلق في صفو وفي كدر … وناصح الود في سر وإعلان
مناقب سنمته ذروة قعست … وما أقرت لأقران بأقران
بصيرة تستشف الغيب أغمضه … وهمة تقرن العالي إلى الداني
كانت له في هوى الإسلام صارخة … الموت في سبلها والعيش سيان
وعزة العرب العرباء مالئة … عروقه ملء أنداء لأغصان
أخي الذي كنت أرجوه على ثقة … إذا تشابه اخوان بخوان
يمضي إلى المجد إذ يمضي بلا ملل … ولا يبالي بأحقاد وأضغان
ما كان يثنيه عن علياء يقصدها … ثان ولا يرتضي في السبق بالثاني
إن صوبت نحوه الأعداء أسهمها … فالمجد والسلم في الدنيا نقيضان
إن شئت تعلم شأو المرء في شرف … قسه بما هاج من بغي وعدوان
إن الحقيقة مثل الشمس آبية … إلا التجلي لقوم غير عميان
تتعتع المغرب الأقصى لمصرعه … فلا ترى من بنيه غير سكران
كأنما كل ما في الغرب من مهج … تجمعت وغدت في وسط تطوان

قد كنت آمل أن نحيا معاصرة　مديد عمر وألقاه ويلقاني
أدعو له في جناني كلما انفردت　نفسي بنجوى وأرعاه ويرعاني
فخيب البين ما قد كنت آمله　وكم أرتني الليالي ضد حسباني
خذ في حياتك ما تشتاق من نعم　وخذ بمقداره تهمام وجدان
واعلم فما صادفت عيناك في زمن　من قرة فهي يوماً قرح أجفان
لم تحل لي من زماني لحظة عذبت　إلاّ أمرت وحاكت وقع مران
ولا توفر لي حظ ألذ به　إلاّ تضمن أشجاني وأشجاني
يا راحلاً فجع الإسلام أجمعه　فالشرق في ندبه والغرب صنوان
ومسلماً بطلاً كانت حميته　تملا الفجاج بإسلام وإيمان
بدلت من هذه الدنيا سماء علا　فابشر أمستبدل الباقي من الفاني
شقيت في دارك الدنيا بجيرتها　فاسعد من الملأ الأعلى بجيران
أثواك ربك في أفياء جنته　ممتع الروح في روح وريحان
وجاد ترب ضريح أنت ساكنه　بكل أوطف داني الهدب حنان
وأورث الله من أنجبت من ولد　خلالك الغر، هذا خير سلوان
فاذهب عليك سلام الله ما طلعت　شمس وناح حمام فوق أفنان
يقل بعدك، مدفوناً فجعت به　أن استطار على ضعفي لحدثان

چنيف ٢٢ شوال ١٣٥٣

الاسيف
شكيب أرسلان

الشهيد

وهناك بيتان نظمهما الأمير شكيب، تحت صورة المجاهد الكبير عادل النكدي، وقد جعلهما الأمير شكيب على لسان الشهيد عادل، وهما:

بالله لا تندبوا قتلي، ولا تَهِنُوا　بعدي، ولا تغرقوا في النوح والحَزَنِ
إن الشهيد لحيٌّ عند خالقه　وإنما الميت حقاً خائنُ الوطن!

ميلاد عزت

نبغ الأمير منذ طفولته في الشعر، فكان أبكر الفتيان في نشر ديوان له وهو «الباكورة»، رغم طبع ديوانه الشعري «ديوان الأمير شكيب أرسلان» سنة ١٩٣٥ . وقد وقف على طبع القسم الأكبر منه وتصحيح ملازمه فقيد الشرق والإسلام، الإمام السيد محمد رشيد رضا منشىء «المنار» وصدَّر هذا الديوان شاعر القطرين خليل مطران .

وعثرنا مؤخراً على أشعار غير منشورة للأمير شكيب . نظمها في مطلع شبابه في (سان مورتيز) بسويسره، وكان عزيز باشا عزت المصري وصهره البرنس محمد علي حسن فولّد للبرنس مولود اسمه عزت حسن . فنظم له الأمير التاريخ التالي :

قـل للعـزيـز أدام اللّـهُ بهجتـه ... وبـات يخـدم سـامـي بـابـه الـزَّمَـنُ
اهنـأ بِسِبْـطٍ بـه مـنَّ الإلـه ولا ... زالـت تـلازمـك الآلاء والمِنَـنُ
وليهنـأنَّ الأميـر الشهـم والـدهُ ... انعِـمْ بغصـنٍ جـاء غُصُـنُ
لمـا تطـايـرت البشـرى بمـولـدهِ ... وقـرَّت العيـن ممـا أصغـت الأذُنُ
أهـدى محبُّـك تـاريخـاً وقـال بـه ... بعـزَّةٍ قـد تجلَّـى وجهـهُ الحسـنُ

١٣٣٨ هـ .

الأمير وخليل مردم بك

كان بين الأمير شكيب وخليل مردم بك مساجلات شعرية، لم يذكرها الأمير في ديوانه، وقد نشرتها مجلة «الزهراء» في الجزء الثاني من المجلّد الثالث، بتاريخ صفر سنة ١٣٤٥ هـ-١٩٢٦ م، حيث يقول خليل مردم :

أنـا مـا حَيِيـتُ فقـد وقفـت لأمتـي ... نفسـي ومـالـي فـي سبيـل بـلادي
فـإذا قُتلـت ـ وتلـك أقصـى غـايـة ... لـيَ ـ فـالـوصيـةُ عنـدهـا أولادي
بِنْـتٌ لتضميـد الجـراح، ويـافـعٌ ... يُعْنَـى بتثقيـف القَنَـا المَيَّـادِ[1]
حتـى إذا بلـغ الأشـدَّ رأت بـه ... ذُخـراً اليـوم كـريهـة وجـلاد

(١) القنا : جمع قناة، وهي الرمح . والمياد : الكثير التحرك .

فساجَلَهُ أميرُ البيان بالأبيات التالية:

قــل للخليــل مفــدِّيــاً أوطــانَــه ومــــوصِّيـــاً إن راح بـــالأولاد
هـــذا التثقيـــف القنـــاة، وهـــذه وقْـفٌ لأسْـو جِـراحـة وضِمـاد[1]
فـي مثـل هـذا يـا ابـن (مـردم) يلتقـي عِظَـمُ الجـدود وسـؤددُ الأجـداد
إن كـان فـي الشبـان مثلـك جملـة فلنـا الـرجـاء بـأمـة وبـلاد
أفـديـك بـالـروح العـزيـزة، إنهـا لفـداء مثلـك مـن عـزيـز فـاد

أم كلثوم

مرَّ الأمير شكيب بمصر، في عام ١٩٢٩، بقي يومين في (الإسكندرية) وذهب للقائه محمد علي الطاهر، فخطر له مداعبة الأمير، فقال له:

ـ إن عطوفة الأمير جاء إلى ديار مصر وكأنه لم يرها. لأنه لم يسمع السيدة أمّ كلثوم.

فأجاب أحد الحاضرين:

ـ ولكنه سيسمعها إذا أراد الأمير. أم كلثوم وصلت الآن إلى الإسكندرية، وستغني الليلة.

وحجز أحد الأصدقاء مقصورة خاصة للأمير وصحبه، وكان في مقدمتهم السيد محمد رشيد رضا.

قال الأستاذ الطاهر:

ـ وهل يجوز سماع أم كلثوم؟ فقال رشيد: كيف لا وأنت ترانا هنا؟

فأجاب الأمير شكيب: هذه فتوى.

وغنت أم كلثوم تلك الليلة. وأعجب بها الأمير أيما إعجاب. ونظم الأمير في هذه المناسبة ثلاثة أبيات لم تُذكر في ديوانه:

رؤوس تغطَّى بثلج المشيب ولكنما النار من تحتها
تميل مع الطرب المستمر لدى أم كلثوم مع «تختها»
أتيح لنا سمع آياتها فعدَّته نفسيَ من بختها

(١) أسا الطبيب الجرح: داواه.

رائعتان من مديح متبادل

بعث الشاعر محمد حسن النجمي بقصيدة يمدح فيها الأمير شكيب، نشرتها جريدة «الفتح» في ٣٠ صفر سنة ١٣٥٠ هـ. وعندما قرأ الأمير هذه القصيدة أجاب عنها بقصيدة نشرتها «الفتح» أيضاً في العدد ٢٥٨، الخميس ٢٣ صفر سنة ١٣٥٠ هـ.

خفقة النور

إلى أمير البيان، ومفخرة الزمان، وقائد فرق الإيمان الأمير الجليل شكيب أرسلان:

قـل لـلأميـر الـذى لـولا عنـايتـه — بالشرق ما طاشَ عنه سهم مُخْتَلِسِ
لأنْـتَ للشـرق فـي أيـام محنتـه — كخفقة النور للحيران في الغلس
مدحتَ شعري وما كان الخليقَ بما — أضعت فيه ـ بقيت الدهر ـ من نفس
لكنّـه خُلُـقٌ المجـد التليـد، فقُـلْ — لعاشق النُبْل هاك النُبْلَ فاقتبس
ونفحـةٌ خـصَّ مـولانـا الأميـر بهـا — مولاه جلَّ ثناً من فيضه القدسي
أثبتنـي قبـلُ مـدحـاً مثلـه صلـةً — من مثلكم لم يَدُر في بال ملتمسي
مازلت مذ طوّقت جِيدي يداك بها — في كل نادٍ بها أزهى على الجُلس
فـلا تَـزِدْنـي فـإنـي بـتُّ أشفـق أن — يُفضي بي الفَوْز إثْرَ الفوز للهَوَس
جـزاك ربـي بمـا إن لا تـزالُ بـه — مغرى من الخير خيراً غير محتبس
ولا برحت نصير الفضل في زمن — فشابِه الهزلُ والجدُّ الصراح نُسى

النجمي

لمن يبرح الفجر مشتقاً من الغلس

إلى الشاعر المفلق النجمي، زاده الله إبداعاً:

قرأت أيها الأخ أبياتك السينية فهاجت بي خاطر الشعر برغم كل هذه الشواده وهذه العوادي. فأخذت القلم وسالت القريحة بالأبيات الآتية والله يشهد أنها وليدة بضع دقائق. إلاَّ أني لا أخالني إذا أطرقت ونمَّقت آتي بأحسن منها فخذها على علاّتها.

مـا أدهشتنـا مـن النجمـيّ قـافيـةٌ كأنّها الغادةُ الحسناءُ في العُرُسِ
لهـا سـوابـقُ قـد جـاءت مسلسلـةً على اطّرادٍ كعوب الذّبلِ الدّعَسِ
قـل فـي حبيـبٍ وبشّـارٍ ورهطهمـا والبحتـريّ ولا تضنَـنْ بـه وقِـسِ
هيهـات أفـرق إعجـابـي بـأيّهمـا من تلكمُ النفس أم من ذلك النَفَسِ
شِعـرٌ بـه تسكـر الألبـاب سـائحـةً كما تسافر بنتُ ألحان بالجُلُسِ
لا يعرف السامعُ الولهان نشوتَه مـن سبكـهِ الجـزل أم مـن نسجـه
لا يعـرف السّـامـعُ الـولهـان نشـوتَـه من سبكهِ الجزل أم من نسجه السَّلسِ
رَويُّـهُ العـذبُ فـي تحكيـم مـوقعـهِ من أول الشطر يُدرى غير ملتبسِ
لا يحـرم الله حـزبَ الحـق طـائفـةً أن تنصِلتْ في مجال الكرّ تفترسِ
قد آن للظلم أن ينجاب عن فرج لم يبرح الفجرُ مشتقاً من الغَلَسِ

لوزان ٥ صفر ١٣٥٠

شكيب أرسلان

مديح وشكران

وبعث الشاعر العراقي محمد علي اليعقوبي بقصيدة مدح فيها الأمير، وعندما اطلع الأمير عليها، أرسل من مقره في جنيف كلمة نشرتها جريدة «الجامعة العربية» بتاريخ ٢٧ شباط سنة ١٩٣٣، جاء فيها:

قرأت في «الجامعة العربية» أيّدها الله القصيدة التي تفضل بها الأستاذ الكبير والشاعر المفلق الشيخ محمد علي اليعقوبي من أعضاء جمعية الرابطة العلمية الأدبية بالنجف الأشرف حماه الله وكرم وجه ذلك المدفون في ثراه، وقد أشاد فيها بذكري الخامل وحلى من جيدي العاطل فوقفت متحيراً كيف أضع بإزاء هذا اللطف الساحر والعطف الوافر، وبماذا أقابل تلك المكارم التي غمرتني على بعد الديار وقطعت إلي كل بحر زاخر. فوجدت أني لا أقدر أن أكافىء هذا الفضل ولا أن أعارض هذا العارض الغزير الوبل وقصارى ما أقدر عليه هو الدعاء لهذا الشهم المنعم المتفضل المتكلم بكماله والحاكي صدى فعاله بأن يجزيه الله خيراً عما ستر من عواري وألقى من سجوف الحلم على آثاري وأني أنشده ما كتب إلي به صديقي المرحوم محمود سامي باشا البارودي من منفاه بجزيرة سيلان من قصيدة طويلة.

أحييتَ ذكري فهو غير مذمم ورعيت عهدي فهو غير مضيع
وبثقت لي من فيض جودك جدولاً غمر البحار بسيله المتدفع
عذبت مشارعه فلو ألقت به هيم السحاب دلاءها لم تقلع

جنيف ٣ شوال ١٣٥١

شكيب أرسلان

إلى شافع عبد الشافي

وهذه قصيدة نظمها الأمير في الحاج شافع عبد الشافي، ليست في ديوانه، وقد نظمها وهو في (صوفر) بتاريخ ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م، قال فيها:

يا شافعاً، ومشفَّعاً وسِمِّي سيِّدنا محمَّدْ
من آل عبد الهادِ، مجدهُم على الأحقاب سرمدْ
كم همة علياء قد نهضوا بجُمْلتها، وكم يدْ
قوم نماهم كلُّ أشوسَ في الرجال، وكل أصْيَد[(١)]
لو لم يكن فيهم سوا ك كفاهُم شرفاً وسؤددْ
أهديتني غُرَرَ الثناءِ، ففزتُ بالشرف المؤبدْ
حسبي شهادتُك التي أزهو بها في كل مشهدْ
دُرَرٌ بها جيدي غَدَا متقلداً عقداً منضَّدْ
أحسست فيها الفرقَ ما بين المعطَّل والمقلَّد[(٢)]
بيني وبينك صحبة أقوى من البرج المشيَّدْ
هي قد أرتك محاسني لاشك طرفُ الحب أرمدْ
إني أرى باهي وجو دِك نعمةً ليست تُحَدَّد

(١) الأشوس: الذي ينظر بشق العين، أو يصغر عينه ويضم الأجفان، أو ينظر بمؤخر العين تكبرا، وهذا في الفارس كناية عن شجعته وجراءته. والأصيد: الملك، أو رافع رأسه كبرا، أو الأسد.

(٢) المعطل: الذي ليست عليه حلية، والمقلد. لابس الحلية.

أبقـــاك ربـــي مُمْتَعـــا بسعـــادة ليســت تُنَكّـــد
لــو كــان يَخْلــدُ بــالــوفــا ءِ فتــىً إذن كنــتَ المخلّــد

تحية العروبة لأميرها

نظم الشاعر محمد حسن النجمي (من نجع حمادي)، قصيدة ثانية حيَّا فيها الأمير مرحباً بعودته إلى لبنان عنوانها «تحية العروبة لأميرها» بتاريخ ١٨ ربيع الثاني سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م.

وقد نشرتها «الشباب» بتاريخ ٧ تموز سنة ١٩٣٧، ثم نشرت ردَّ الأمير على الشاعر المذكور، في عددها ٤ آب من السنة ذاتها. والمقطوعة الأرسلانية لم تنشر في ديواني الأمير.

من قصيدة الأستاذ النجمي البالغة ٣٦ بيتاً نقدِّم ما يلي:

أرأيتـــه فـــي آلـــه وقَبِيلـــه كـالليـث عـاد مـن الفـلاة لغيلـه؟
أهــلا بمقــدِمِ عبقــريٍّ زمــانــه وحيــاةِ أمتــه، ومفخــرِ جيلــه
آب الأميــر، فمــرحبــاً بــإيــابــه وركـابـه العـالـي، ويـوم وصـولـه
خفقت لعودتك القلوبُ، وطالما خفقت لقربك قبلَ يوم حصوله
وهفـت إليـك جـوانـحٌ لـم يَتْـرك صبـراً لهـا هـذا الغيـابُ بطـولـه
عـرفـت بعـودتـك العـروبـةُ عيـدَهـا بضجيـج مـوكبـه، وقـرع طبـولـه
ومشـى إليـك الشـرقُ ينفض رُدْنَـه من قَال حاسدك الحقير وقيله[١]

فأجابه الأمير شكيب من البحر والقافية:

إن كــان يُعـرف سيِّـدٌ مــن قيلـه فــالسيِّـدُ «النجمـيُّ» فخــرُ قبيلـه
أثنــى علــيَّ بلطفــه، ولشخصــه حــقُّ الثنــاء عــريضــه وطــويلــه
جئنـا نعـالـج واجبـاً مـن شكـره أمـا السِّجـال فلـم نكـن بسبيلـه[٢]
أتخيَّــرُ الإيجــازَ عنــد لقــائــه فــالقِــرْن يبــرز عــادةً لمثيلــه
فــاقبـل ثنـاءَ مقصِّــرٍ بلـغ المنـى إن كــان مثلــك مُنعِمـاً بقبـولـه

---

(١) القال والقيل: اسمان للقول المفترى.

(٢) السجال: التعادل بين الطرفين. يقال: الحرب بينهما سجال، أي هذا مرة وذاك أخرى.

سامي شوَّا أمير الكمان

مرَّ الأمير شكيب في منتصف شهر آذار سنة ١٩٣٩ بمصر، وزار جريدة «الشورى»، وكان هناك سامي شوَّا أمير الكمان فعزف قطعة مصرية سرَّ منها الأمير، فارتجل البيتين التاليين:

أمير «الكمنجة» قد حملت إمارة ... لها، وغدا فيها لواؤك معقودا
فلو سمعتها منك «نجد» وأهلها ... أجازوا الكمنجة، والمزمار، والعودا

وعاد سامي إلى عزف قطعة ثانية، وكان الأستاذ كامل كيلاني بين الحاضرين، فارتجل الأبيات التالية:

يا مبدعاً يشدو لمبدعْ ... الفن في يمناك أجمعْ
شعر الأمير غدا لفنِّـ ... ـك درة التاج المرصَّعْ
ما بعد تقريظ الأمـ ... ـر لراغب في الخلد مطمعْ

وعاد سامي شوا إلى عزف قطعٍ أخرى منها البلدي والغربي، فزاد إعجاب الأمير فقال:

فلست لعمري مالكاً لرصانةٍ ... وإن أبلغ السبعين أن أترنما
إذا لعبت في كفِّ سامي «كمنجةٌ» ... فما أجدر الأوتار أن تتكلما

وثارت حماسة شوا في العزف، وراح يعزف قطعاً من مبتكراته، جعلت شكيباً يطرب ويهتز فارتجل:

أمير «الكمنجة» ما رأى العصرُ مثله ... ولا عرفت أمثالَه قبل أعصرُ
وقالوا أمير «الكمنجا» وما دروا ... فأنت لها ـ والله ـ كسرى وقيصرُ

حسان فلسطين

قال الأمير شكيب هذين البيتين في الأستاذ أبي الإقبال اليعقوبي (حسان فلسطين)، وقد نشرتها جريدة (الشباب) في عدد ١٥ نيسان سنة ١٩٣٩:

باهت فلسطينٌ بيعقوبها ... وغدت تَبُثُّ بنظمه أحزانَها
ماذا أقول به وحسبي جملة: ... هذي فلسطينٌ، وذا حسانُها

تلفون حسان

وقال الأمير، مداعباً صديقه المجاهد إحسان الجابري، الذي قضى وقتاً طويلاً مع الأمير في أوروبا، وكان يراه دائماً يركض وراء عمله السياسي:

يقضـي الليـالـيَ والأيـام «تلفنـةً» حتى يجلّي مـن الأشيـاء خـافيهـا
والمشكـلات التي بـاتـت تحيـرنـا لـولا «تـلافينـه» صعـبٌ تـلافيهـا
إحسان مع «تلفونٍ» وَسْط غرفته كـأن فـي يـده الـدنيـا ومـا فيهـا

الدكتور بيكل

أقام الأمير شكيب أرسلان فترة طويلة من حياته في سويسرة، وأصابه في أثناء إقامته بسويسرة مرض اشتدَّ عليه، وقام بعلاجه طبيب يدعى «بيكل» وهو من الأطباء المشهورين في (جنيف) يومذاك، ونشأت صداقة متينة بين الأمير شكيب وهذا الطبيب خلال هذا العلاج، وعندما شفي الأمير من مرضه، نظم قصيدة يثني فيها على الدكتور بيكل لعنايته به ونجاحه في علاجه، ثم ضمنها أشياء أخرى من باب التسلية والتندر والفكاهة، وأعطى الأمير قصيدته هذه لصديقه عبد العزيز عزت باشا، الذي كان يقيم بسويسرة آنذاك، وكثيراً ما كانا يتلاقيان، وكان الأمير شكيب يتحفه بين الحين والحين بالفكاهة والدعابة، وحينما بعث الأمير بهذه القصيدة إلى صديقه ليطلع عليها ويترجمها، كتب له في صدرها هذه العبارة:

«سيدي لا عدمته. أريد أن أسليك، وأن أفكهك من وقت إلى آخر، فإن اللذات العقلية لها دور لا ينكر، فهذه أبيات نظمتها لتطربك، فيها نكات ومُلح، وفيها مواعظ وحكم، وفيها تحمد وتوحيد، والله المستعان».

وهذه القصيدة غير منشورة في ديوانيّ الأمير شكيب المطبوعين، لكن مجلة (الرسالة المصرية) نشرتها بتاريخ ١٢ كانون الأول سنة ١٩٤٩. وهذه هي قصيدة أمير البيان:

أقـول (لبيكـل) مُـذْ قـد غَـدَا يســاوره دائــي المعضــلُ
قضـى بـك ربـي شفـاءً لسقمـي وربـــي لمـــا شــاءه يفعــل

تفردتَ في حكماء الزمان فأنت - بحقٍّ - لهم أول
وأحسنت ترفيعَ شيخوختي فللّه دَرُّك (يا بيكل)
وكنتُ قليلَ الرجا في الحياة فعادت حياتي كما أُومل
أعدت لعمري لذيذ الرقادِ وهل للكرى مَثَلٌ يَعْدل؟
وزاد اشتهائي لقَضْم الطعام فقد صلح النومُ والمأكلُ
وقد كان لي نَفَسٌ ضيِّقٌ إذا بات يصعد أو يسفل
فقد رجعت رئتي حرةً يجول بها النَّفَس الأطول
وقد كنت أمشي ببطء عظيم كمن قد غدا جبلاً يحمل
وما كان خطوي خطواً، ولكن خُطًى سحبتني بها الأرجل
وقد كنت أرجف بَرْداً، وإن تك النار في جانبي تُشْعَل
فقد صرت مستغنياً عن صَلاَها وأخرج ليلاً ولا أسأل
نعم قد أتاني أخيراً زكام وهذا بكُلِّ الورى ينزل
وهذا سُعَال، ومن ذا الذي يمر الشتاءُ ولا يسعل؟
على أنه قد مضى كلُّه وعاد إلى صفوه المنهل
ومهما يك المرء مستقصياً فلا بد من أنه يغفل
وينسى ولا سيما إن غدت هناك الخطوبُ التي تُذهل
فاستغفر الله، إني نسيت فللثُّوم في صحتي مدخل
وما في النبات لعمري نبات أجلُّ من الثوم، أو أمثل
كريهُ الروائح، لكنما ثَناه هو المسك والمندل
وإن الشرايين عند الشيوخ لتَيْبَس من فرط ما تذبل
بالثوم يمكن تليينُها ومجرى الدماء بها يسهل
فحُيِّيتَ يا ثومُ من بقلةٍ خيوطُ الحياة بها توصَل
معيدُ الشباب، وفي أكله يطول الشبابُ ولا يأفل
(وبيكل) للثوم مستحسن ومن ذا الذي فضله يجهل؟
فحمداً لربي على صحتي آلا نه وحدَه الموئل
عليه توكلت، وهو اللطيف الذي من يرجِّيه لا يُخذل
ولابد من معادٍ، ولكن معادٌ إلى الحق لا يثقل

ومن حلَّ يوماً بدار الكريم — فيا ليت شعري هل يُهْمَل؟
نحب الحياة، ولسنا لندري — لعلَّ الذي بعدها أفضل
ولكن عمراً طويلاً يلذ — ويحلو لكل امرىء يعقل
وإنا برغم كروب الحياة — لنرغب في أنها تمهل
وإن حياة الرجال العظام — حياة لغيرهم تشمل
وإن حياة الرجال الكرام — دوامُ الدعاء لها يَجْمُل
فأبقاك ربيَ يا سيِّدي — بثوب الهنا دائماً ترفل
وأبقى ذويك جميعاً بخير — سحائبُه أبداً تهطل
عملت من الخير شيئاً كثيراً — فأنعم، فذا خير ما يُعْمَل!

ولمّا اطلع الشيخ عبد القادر المغربي، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، على هذه القصيدة، نظم لصديقه الأمير شكيب أرسلان قصيدة يشير فيها إلى مرضه واسمه (كف الأسد)، وقد نشرت هذه القصيدة أيضاً، في مجلة (الرسالة) بتاريخ ٢٦ كانون الأول سنة ١٩٤٩، وهي خمسة وعشرون بيتاً، منها هذه الأبيات:

كفكفت كفك يا أسد — يا أيها الخصم الألد
بالله تم البنسلين — و (قل هو الله أحد)
وآويت من ربي ورحمته — إلى ركن قوي أشد

الأندلسية

وهذه قصيدة «الأندلسية» نظمها الأمير شكيب سنة ١٩٣٣، نشر بعضها المرحوم الأستاذ وديع ملاعب في مجلة «الميثاق» تموز وآب سنة ١٩٧٨، ثم عثرنا عليها كاملة في الجزء التاسع، من مجلة «الزهراء» سنة ١٣٤٧ هـ نقدِّمها في ما يلي:

لَكَ الله إن شئتَ الصَّبُوحَ فبكِّرِ — بكأسٍ دِهاقٍ مِنْ حُمَيّا التَّذَكُّرِ
وغَنِّ على ذِكْرَى الليالي التي خَلَتْ — قصائدَ إنْ تُنْشَدْ على الميْتِ يَنْشَرِ
فقد تَعْذُبُ الذكرى ولو لفجيعةٍ — ويَشْفي أُوارَ الصَّدْرِ فَرْطُ التحسرِ
ولولا المراثي والمآقي وراءَها — لأفنى الورى حرُّ الأسي المتسعِّرِ

تقضَّتْ لُباناتُ الرجال من الجَوَى ... بِتَـذْكـارِ مـاضٍ أو إثـارة مُضْمَـرِ
لعُمـركَ لا يُـرجـى لنشـأةِ مُقْبِـلٍ ... ومُستقبَـل مَـنْ لـم يفكِّـر بمـدْبـرِ
ومـا هـذه الـدنيـا سـوى متقـدِّم ... يُكـوِّر تجـديـداً علـى مُتـأخـر
أدِرْها تردُّ الرشدَ في عقلٍ ذاهب ... وتُـذْهِـبُ عَقْـلَ الـراشـد المتبصِّـرِ
وتَحيي لنـا عهـداً يصُـوب عهـادُه ... منازلَ قَلبٍ من هَوى الذِكْرِ مُقفرِ
وكـائنـةٍ لـم يعـرفِ الـدهـرُ أختهـا ... ولا حَدَّثَتْ عن مثلها كتبُ مخبرِ
يكـادُ الـذي يقـرا غـريـبَ حـديثهـا ... يَظُـنُّ خيـالاً أو أحـاديـثَ مُفْتَـرِ

* * *

يقـولـون: كـانـت أمـةٌ عـربيـة ... بـأنـدَلُـسٍ سـادتْ بهـا جَـمٌّ أعصـرُ
وقـد عَمَـرتْ أقطـارُ أنـدلـسٍ بهـم ... فكـم بلـدٍ فخـمٍ ومصـرٍ مُمصَّـرِ
وكـم أربُـعٍ خُضْـرٍ وحَـرْثٍ مُطبِّـقٍ ... وفـاكهـةٍ رَغْـدٍ وزَهْـرٍ منـوَّرِ
وكـم قـائـدٍ قَـرْمٍ وجنْـدٍ مـدرَّب ... وكـم سـائـسٍ فحـلٍ وأمـرٍ مُـدبَّـر
وكـم بطـل إن ثـارَ نقـعٌ رأيتَـه ... يبيـعُ بـأسْـواقِ المنـايـا ويَشْتـري
وما شئتَ من علمٍ ورأيٍ وحكمةٍ ... ودرسٍ وتحقيـقٍ وقـول محـرَّر
إلـى شَمَـمٍ جَـمٍّ ومجـدٍ مُـؤثَّـل ... وفـي عـزَّةٍ قعسـا ووَفْـر مُـوَفَّـرِ
نعم، كان فيها من نِزارٍ ويَعرُبٍ ... جُموع تحيل الأرض في يوم محشر
فراحَتْ كأنْ لم تُغْنِ بالأمس، وانقضى ... لهـم كـلُّ رِكـزٍ غيـرُ ذِكْـرٍ مُعطَّـر
كأنْ لم يكن بين الحَجُون إلى الصَفا ... أنيـسٌ ولـم يَسْمُـرْ هنـاكَ ويَسْهـرِ
كـأنْ لـم تكـن فـي أرضِ أنـدلـس لنـا ... جَحافِلُ إنْ تحمِلْ على الدهر يُذْعَر
فمـاذا الـذي أخنـى عليهـا، ومـا الـذي ... رمـاهـا بهـذا الخَسْـفِ بعـد التَصـدُّر
إذا أعمـلَ المـرءُ البصيـرَة لـم يجـدْ ... لهـا عِلـةً غيـرَ الخـلافِ المتبِّـرِ
خِـلافـان: هـذا بيـنَ قَيْـسٍ ويَعـرُب ... مقيـمٌ، وهـذا بيـن عُـربٍ وبـربـر
ولا شَـرَّ يحكـي شـرَّ حـرَبٍ إذا التقـتْ ... صَنـاديـدُ قيـس مـعْ غَطـاريـفِ حِمْيـر
لَعَمْـرُكَ لـولا الخُلـفُ لـم يـكُ مَشْـرقٌ ... ولا مَغْـربٌ يعصـي عليهـم ويَجتـري
لقـد عصفـتْ فـي شِقَّـةِ الغـرب ريحُهـم ... فسادتْ، ولكن لم تكنْ ريحَ صَرْصَر
فقـدْ أثَّلـوا فـي أرضِهـا مـدنيَّـةً ... ترى الخصمَ في عَليائها ليسَ يمتري
وسَـوَّوا جميـعَ العـالميـنَ بعـدلِهـم ... ومَـنْ يتمسَّـكْ بـالسـويـةِ يغْمـر

ولا عارضوا في دِينهِ غيرَ مسلم ... ولا عاملوا أهل الكتاب بمنكر
ولا نصبوا ديوانَ تفتيشهم على ... عقائد أقوام يجوسُ ويفتري
ولا أحرقوا بالنار مَنْ قِيل إنه ... على صِلةٍ معْ دِينه بالتستر
بذلك هاتيكَ الممالكُ أصبحتْ ... مِثالاً قويماً للعُلَى والتحضُّر
وقد صار نَهرُ الرون ثغرَ بلادِهم ... وكم صَبَّغُوهُ في الجِهادِ بأحمر
وشكّوا لواهم في ذُرَى قرقشنّة ... وسلّوا على تربولةٍ كل أبتر
ودانت لهم صِيدُ الجَلالقةِ الأُلىٰ ... بَلا منهمُ الرومان كلَّ غَضَنْفَر
ولم يقفِ البشكنس في وجه زحفهم ... ولا أوطأوا الجَرْمانَ ثغرَةَ معور
وإن يكُ لاقىٰ الغافقِيُّ حِمَامَهُ ... ومحَّص في يوم البلاطِ المقدَّر
فقدْ لبثتْ منْ بعدِ ذاكَ جيوشُهم ... تعَرَّضُ دَهْراً للفرنج وتَنْبَري
يقول الألى قد شاهدوا غَزواتهمْ: ... هم العربُ فوق الخيل، أم جِنُّ عَبْقَرِ
وصقْرُ قريش حينَ جاءَ مشرَّداً ... فأنشبَ فيهمْ أيّ ظفر مظفَّر
وشادَ بهاتيكَ القواصي إمارةً ... لها أجفل المنصورُ والدُ جعفر
وخلَّف أملاكاً سموا وخلائفاً ... أسودَ عرينٍ منهم كلُّ مُخدر
كفى بالإمام الناصر الفذ عاهلاً ... كسى أمة الإسلام حُلَّةَ مَفخر
تُقبِّلُ أملاكُ الفرنجةِ كفَّهُ ... ويقصدُ عالي بابهِ وفدُ قيصر
غداةَ تجلَّى للخلافةِ رَونقٌ ... به ظهر الإسلام أروعَ مَظهر
وأضحتِ (الزهرا) تميدُ جُموعُها ... فيالكَ من يومٍ أغرَّ مُشهَّر
تلعثم فيه كلُّ ربّ فصاحةٍ ... فعيُّوا سوى قاضي الجماعة مُنذِر
ولا تهمل المستنصرَ الحكَمِ الذي ... تلاه، ومنْ يستنصر اللهَ يُنصَر
غدتْ قبةَ الإسلام قرطبةُ العُلىٰ ... وسارَقَتِ الزوراءَ لحظةَ أزور
وبارىٰ بني العباس فيها أميةٌ ... وجرُّوا على بغدادَ ذَيلَ التبختر
وكانَ بها العمرانُ يزخر مثلما ... تلاطمُ أمواجُ الخِضَمّ المهدّر
ولما رأيتُ المسجدَ الجامعَ الذي ... بقرطبةٍ من فوق فوق التصوُّر
عضضتُ على كفي بكل نَواجِذي ... وقلتُ لعيني: اليومَ دورُك فاهمري
هو الجامع الطامي العُباب بوقته ... يحاكي به عُمّارُه لجَّ أبحر
ظللتُ به بين الأساطين سائحاً ... بفكريَ حتى غابَ عني مَحْضَري

تخيّلتُه ـ والذكرُ يُتلىٰ خِلالَه ـ   نظيرَ دويّ النحلِ من كل مصدر
تأمل خليلي كم هنا من مهلل   إلى ربه صَلّى، وكم من مُكبّر
وكم أزهرَتْ فيهِ ألوفُ مَصابح   وكم أوقدتْ أرطالُ عُودٍ وعَنبر
وكم قارىء بالسبع في وسط حَلْقة،   وكم خاطبٍ بالسجعِ من فوق مِنبر
وكم عالم يُلقي على الجمع دَرسَه   وكم واعظٍ يمري مَدامعَ محْجر
وكم مَلكٍ ضخمٍ وكم من خليفةٍ   هنا كان يجثو عن جَبين معفّر
تسدُّ فِجاجَ المغربَين جيوشُه   ويبدو هنا في ثوب أشعثَ أغبرِ
خليلي تأمَّلْ ـ كالعرائس تنجلي ـ   أساطينَ قد تُحصىٰ بألف وأكثر
أساطينُ من صُمِّ الجمادِ مَواثل   يَذوبُ لها قلبُ الحَنيف المفكر
تراها صفوفاً قائماتٍ كأنها   حدائقُ نُصّتْ من جمادٍ مُشجَّر
من العَمَدِ الأسنىٰ فكلٌّ يتيمةٍ   لها نَسَبٌ من مَقطَعٍ مُتَخيَّر
أجادَتْ تحرّيها قُرُومُ أميّةٍ   مَعادنُ شتّى من فِلزٍّ ومَرْمَر
نبتْ دونَها زُرقُ الفئوس وأصبحتْ   لَدَى الفري تَهزا بالحديدِ المعصفر
ولكنْ لفضلِ الفنّ ألقتْ قِيادها   فصالتْ بها الصنّاع صَولة، عنتر
فبينا هي الصمُّ الصلادُ إذا انثنتْ   مَقاطعَ جبنٍ أو قوالبَ سُكّر
عرائسُ للتخريم فوقَ رُؤوسها   أكاليلُ دُرّ في قلائدِ جَوهر
ووجِّهْ إلى المحرابِ طَرفَكَ يَنسرحْ   من الصخر في مثل الطراز المحبَّر
وحدِّقْ بهاتيكَ النقوشِ وزَهْوها   كأنّ فاتها صُنّاعها مُنذ أشهرُ
وبالقبّةِ العَلياءِ يَبْدُو شُعاعها   بأبلغَ من زهرِ النجوم وأزهر
لو أنّ الثُريّا في سَماها تعرَّضتْ   لَظَلّتْ تَحَدّى للثريّا وتَزْدَري
أقولُ لِخصمٍ يبخسُ العُربَ حقَّهم   أجاحدَ نورِ الشس دُونَك فانظُر
ويا سائحاً يبغي مآثرَ قومِه   ويَنْشُدُها في كل سهل ومَوعر
تطوَّفْ فلا تلقاك غيرُ بدائع   يميلُ لديها كل عطف مخصَّر
تَطَلَّعْ فلا تلقاكَ غيرُ رَوائع   لها اللّيثُ يَرْنو عن لَواحِظِ جُؤذر
خليلي فما فحصُ السُّرادقِ نائياً   وهذا برأس الطَوْد حصنُ المدوَّر
وهذِي رسومٌ للمُنيفِ ومؤنسٍ   وقصرِ السرورِ الدارس المتبعْثر
وكان هنا قصرُ الدمشقِ وإنه   يطاول عُلْيا بَعْلَبَكٌّ وتَدْمُر

وزاهرةُ المنصورِ لاشكَّ جنةٌ ... تمَدُّ من الوادي الكبيرِ بكَوثَر
وسائلْ عن المنصورِ نجل ابنِ عامر ... يُجاوبْكَ عنه كلُّ قوسٍ مُوثّر
غزا في العِدى ستاً وخمسين غزوةً ... وآضَ بها طُرّاً بنصر مُؤزَّر
خليلي وعرّجْ بالبهورِ فإنه ... تَقَطَّعَ عن أمثاله كلُّ أبهر
وهذِي التي كانت تسمّى شقندةً ... وتدخلُ في التخطيطِ ضمن المسوَّر
وفيها جرىٰ ذاكَ العراكُ الذي جرىٰ ... وروّى ثراها بالدم المتفجِّر
وقائعُ قيْسٍ واليماني، وكلها ... مصائبُ إن تُذكر لنا نَتفطر
وزُرْ ضفةَ الوادي الكبير وسُحْ بها ... وعرّج على الجسر الطويل المقنطَر
وهذِي الطواحينُ الشهيرَة لم تزل ... كأنْ تركوها أمسِ لم تتغيرِ
قصورٌ نبا عنها قصورُ مُشيّدٍ ... وعَلياءُ لم تَعلَمْ مَشيدَ مقصِّر
وأقنيةٌ تحكي الجنانَ نَضارةً ... وأقنيةٌ تجري على كلِّ أخضَر
وشُمٌّ حصون لا تُعدُّ، ودونها ... مَقاصِفُ إنْ تُذْكَر نُهزَّ ونَسْكر
على هِمَمٍ دَلَّتْ لهم وقرائح ... ويُعرفُ بالآثار قدرُ المؤثر
فاخنىٰ على تلكَ المحاسن كلها ... غرامُهمُ بالانقسام المشطّر
محا الخُلفُ من أوضاعهم كل نافع ... وصَوَّحَ من أعمالهمْ كلّ مثمر
ولم يَستفيدوا من تَقاطُعِ بينهمْ ... سوىٰ عيشِ ذلٍّ تحتَ نقمة موتر
فكلُّ الذي قد شيدوه بحزمهم ... أضاعوه حقاً بالشقاقِ المدمِّر
ولم يبقَ في هذِي الديار لنا سوى ... ممالكِ فكرٍ من حروفٍ وأسطر
ممالكُ لا تقوىٰ عليها كتائبٌ ... ولا سالبٌ تاريخَها زَحْفُ عسكر
إذا حضرتْ آثارُ قومي، وإن خلوا ... تخاطبني الأرواحُ من كل مقبر
وإني أرىٰ بالعينِ ما لم أكن أرىٰ ... حقيقته في وصفِ طِرسٍ ومزبر
لعل الذي قد كان منه بوارثُنا ... يعودُ علينا خيرَ وعظٍ ومزجَر

شكيب أرسلان

بيتان جاهليان

وعثرنا على هذين البيتين للأمير شكيب، في دفتر خاص، يحتوي على قصائد من نظمه.

لا تنشروا المال للأعداء أنهُم إن يظهروا يحتووكم والتِلادَ معا
هيهات لآمال من زرعٍ ولا إبلٍ يُرجى لغابركم إن أنفكم جُدِعَا

فلا يراني ولا أراه

يقول الأمير شكيب في إحدى رسائله إلى الشيخ محمد رشيد رضا، بتاريخ ٢٩ نيسان سنة ١٩٣١، يتحدث فيها عن انقطاع العلاقة بينه وبين الخديوي عباس حلمي الثاني، ذاكراً طائفة من المتاعب التي سببها له الخديوي.

ويقول في الرسالة «فذهب البشري خائب الأمل من استئناف العلاقة، وأخبرت إحسان الجابري بما جاوبت به البشري، وارتجلت قائلاً:

أذاه أربى على نداه .. سراه أربى على قِراه
هجرتُه هجرَ من تولّى وليس مستشرفاً وراه
فارقتُهُ ما بقيت حياً فلا يراني ولا أراه

الفصل الثالث

من هنا ومن هناك

سوانح من أفكار الأمير شكيب أرسلان الوطنية والسياسية والأدبية.

نظرات في أحوال أوروبا

وهذا شيء كتبه الأمير للتاريخ وفيه صورة ما فعلت الحضارة الأوروبية بالشعوب المستضعفة.

يقول ڤيكتور بيكه Victor Piquet الفرنساوي مؤلف الكتاب المسمّى «مراكش» الذي ظهر ١٩١٨ ما يأتي عن تاريخ إسلام البربر.

«إن البربر كان منهم مجوس ووثنيون ويهود وفي أوائل النصرانية قبلوا الدين المسيحيّ ثم نسوه عندما تمكنوا من الاستقلال ثم دانوا بالإسلام الذي ببساطة قواعدهِ يستميل العقل ويرسخ عند كل الأمم التي يظهر فيها».

ويقول عن مدينة طنجة:

«يجب على فرنسا أن يكون لها على طنجة ولاية معنويّة لأنه لا يمكنها أن تجّوز أن تتحوّل هذه المنطقة الشعوبية الدوليّة مركزاً «للجامعة الإسلامية» وملجأً في شمالي إفريقية لكل ناقم ومصدراً لدساس الأجنبية علينا».

ومراراً يذكر هذا المؤلف وجوب اعتناء فرنسا بالبربر وإيتائهم تربية فرنسوية نظراً لكونهم ليسوا بعرب وأنهم أسلموا إسلاماً لايزال مشوباً بأحوال خاصّة بهم وهو وغيره من الفرنسيين أطالوا البحث في هذا الموضوع فمن جملة ما يقول بيكه في آخر كتابه (Le maroc).

«إن العالم المتخصص في هذه القضية المسيو دوتّه الذي قد دقق في البحث وهو يجول بين القبائل نوّه بحسن سجايا هذا الشعب البربري الذي قال إن به مناط أعظم الآمال في شمالي إفريقية».

إنه شعب يظهر عليه الجنوح من نفسه إلى المَدَنيّة الفرنسوية فقبل كل شيء يجب أن نحذر من أن نعرّبه أكثر مما هو (وبعبارة أخرى يريد أن يقول: يجب أن نبعده من العربية بقدر الإمكان) ولأجل الوصول إلى هذه الغاية يتحتّم أن يدخل البربر في المدنية إلفرنسوية ويتكلموا بالفرنساوي قبل وصول المدنية

العربية واللسان العربي إليهم وعلى هذا الشكل يتحقق بلا شك أكثر مما مظنون الخيال العظيم بمراكش فرنسوية.

ويقول في صفحة ٤٠٢ من كتابه:

«وفي النية تأسيس مكاتب فرنسوية بربرية في الجهات غير المستعربة وهذا تصوُّر حسن جداً لكنه لسؤ الحظ قد تأخرنا في إنفاذه مستعمراتنا في شمالي إفريقية فإنه إن كانت بلاد القبائل وبعض أعالي جبال الجزائر ليس فيها إلاَّ بعض أقوام من البربر عددهم محصور فإن قسماً عظيماً في المغرب الأقصى لا يتكلمون العربية أو يتكلمون باللغتين العربية والبربرية وليس لنا أدنى منفعة في نشر اللغة العربية لغة الجامعة الإسلامية بل بالعكس».

إيرلندا

ذكرت جريدة البوبولار Populaire الفرنساوي عن خبر وارد إليها من دبلين عاصمة إيرلندا قالت:

إن أحد المبعوثين الإيرلنديين من فرقة «سِن فاين» ذكر في آخر اجتماع تفصيلات مهمة عن أعمال رجال الحكومة الإنكليزية في إيرلندا سنة ١٩١٧ و١٩١٨.

توقيفات ٤٠٧، ٣٩٤

تغريبات ٢٤٩١

منع اجتماعات ٢٣٢

دواوين حرب ٢٢٦٦

أحكام عرفية ٩٧٣، ٢٦٩

تونس

في عدد ٢٨ حزيران ١٩١٩ من جريدة «الأومانيته» الفرنساوية الاشتراكية فصل تحت عنوان «تونس ومؤتمر الصلح» احتجَّ فيه كاتبه على قرارات مؤتمر الصلح بفرساي بحق الأمم الضعيفة لاسيما الأمم الإسلامية التي قال بشأنها ما يأتي:

«إن الأمم الإسلامية قد حُرمت الحق واستُعبدت لمنافع «حُماة الحق» فإن تحريرهم مخالف لهوى كاتوليكنا الاتقياء وبروتستانتنا المتورّعين».

لكن تحت ضغط العَمَلة في الدنيا تجنّبوا لفظة «إلحاق» وجعلوا محلها لفظة «وصاية».

ثم ذكر أن تونس قدّمت لفرنسا ٥٥ ألف مقاتل في الحرب العامة و٤٠ ألف عامل فقتل من العساكر وجُرح ٤٥٠٠ ومات عدة آلاف من العَمَلة.

وقال «إن تونس التي تستغلُّها فرنسا بصورة مُخجلة قد أرادت أن تقدم مطالبها إلى مؤتمر الصلح فرفضت فرنسا قبولها وألغت المسألة التونسية بتاتاً حتى لا يكون حق لتونس بمراجعة جمعية الأمم يوماً من الأيام».
قال:

«وذهب المسيو فلاندين من فرنسا معتمداً لإنفاذ هذه الخطة التي يريدون أن تسبق تأليف جمعية الأمم والتي نريد أن نطلع العالم المتمدّن عليها.

البروغرام هو استصفاء أراضي تونس من أيدي أهلها وإعطاؤها للفرنسيس استنفار جميع الماليين الذين في إمكانهم الاستثمار وجميع الذين لا عمل لهم بفرنسا أن يذهبوا إلى تونس وهناك تُجرى لهم جميع التسهيلات اللازمة للإقامة وتقدم لهم التقاوي أو رؤوس الأموال بفائض ٢ في المائة وذلك من مال مملكة تونس نفسها. وإلى الآن صار ثلث أراضي تونس ملكاً (وهو مليون هكتار) لألفيْ مستعمِر فرنسوي (والثلثان الباقيان ملك مليونَي نسمة من التونسيين.

لكن بإنفاذ البروغرام الجديد هذا لا يبقى للتونسيين على التمادي شيء فإن المسيو فلاندين يُعِد مشروع قرض مقداره ١٠٠ مليون لإنفاذ هذا البروغرام وبهذا القرض الجديد يبلغ دين تونس ٥٥٠ مليوناً أي نظير إيراد تونس ثماني مرّات ونصف مرة دَيْن يحمل التونسيون المسلمون ثلاثة أرباعه وهكذا يُسلب التونسيون أملاكهم في بلادهم بنفس أموالهم».

انتهى كلام كاتب فرنسوي حُرّ في أكبر جريدة حرة فرنساوية.

الجزائر

عمل أونيسهم ركلوبس الفرنساوي في كتابه على الجزائر الحساب الآتي عما يختصّ بتملك الفرنسيس للأراضي الجزائرية.

«من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩١٣ أي في مدى ١٣ سنة اشترى الجزائريون في ولاية الجزائر من الأوروبيين ٣٩,٤٠٥ هكتار وباعوا ١٢٣,٩١٢ هكتار أي زاد الأوروبيون أملاكهم مقدار ٨٤,٧٠٧ هكتار.

وأما في ولاية وهران فازدادت أراضي الأوروبيين في هذه المدة ٢١٨,٨٤٧ هكتاراً.

وأما في ولاية قسنطينة فقد باع الأوروبيون ٨٨,٥٣٨ واشتروا ١٠٨٥٢٤ فلم يربحوا سوى ١٩,٩٨٦.

فيكون الأوروبيون في مدة هذه الثلاث عشرة سنة ربحوا ٣٢٣,٣٢٠ هكتار أي معدّل ٢٤,٨٧٠ هكتار كل سنة.

* * *

نشرت جريدة الأومانيته الاشتراكية الفرنسوية في عددها المؤرخ في ٣١ أكتوبر مقالة افتتاحية ورد فيها أن المسيو مورل أحصى عدد جنود المستعمرات الفرنسوية التي غشيت الحرب الكبرى بستمائة وخمسة وتسعين ألف مقاتل ومائتين وثمانية وثلاثين ألف مساعد وكان عند عقد المتاركة نحو ١٣٦٠٠٠ في إفريقية على أهبة الحركة وقد استعملت الحكومة الفرنسوية كل الوسائل الممكنة من وعد ووعيد وترغيب وإرهاب ولجأت أحياناً إلى طرق دنيئة كما في زمن خطف الرقيق لأجل تكتيب هذه الجيوش حتى أن بعض المأمورين الشهام مثل المسيو كلوزل والمسيو ڤان ڤوللنهوزن تركوا وظائفهم ورواتبهم ولم يرضوا أن يستخدموا تلك الطرق بل احتجوا عليها لكن وجدت الحكومة الفرنسوية سواهم لأجل القيام بهذا العمل.

وفي ٣٠ تموز ١٩١٩ بعد الحرب العامة بتسعة أشهر أعلنت الحكومة الفرنسوية قانوناً بتجنيد شبان المستعمرات كلها فكان على السنغال أن يقدم كل

سنة ٧٠٠٠ عسكري والسنغال الأعلى ٥٦٠٠ وغيناي ٤٠٠٠ وساحل العاج ٤٢٠٠ والداهومي ٢٥٠٠ إلخ.

فابتداءً من سنة ١٩٢٢ ينبغي أن يكون هذا الجيش ثلاث طبقات ويبلغ عدده ١٠٠٠٠٠ مقاتل (مائة ألف) ثم على ماداغسكر وساحل الصومال وجزء الباسيفيك تقديم ١٠٠٠٠ وعلى الجزائر ومراكش ١٠٠٠٠ بحملة ثلاثمائة ألف يخدمون ثلاث سنين منها سنتان بفرنسا.

ثم ختم الكاتب مقاله بقوله إن كثيرين من رجال المستعمرات بدأوا يثورون على هذا المشروع.

* * *

ذكر مارسل كاشين في العدد المذكور من الأومانيتة أن ديون فرنسا للولايات المتحدة هي ١٢ مليار دولار ذهب منها ١٠ لخزانة تلك الحكومة. وأن ما على فرنسا لانكلترا هو ١٨٠٠ مليون ليرة سترلينية ذهب وأن مجموع دين فرنسا بحسب تعريفة العملة الحاضرة ٢٧٠ مليار فرنك. وإن الفوائض فاحشة فقرض فرنسا المعقود في أميركا في ١٥ أكتوبر كان على معدل فائض ٩ في المائة.

وقال إن ناظر المالية الإنكليزية صرّح في جواب على سؤال أن الفائض الذي يلحق دين فرنسا في انكلترا يضاف إلى رأس المال وأنه بالغ سنوياً ٣٠ مليون ليرة أي ملياراً و٦٥٠ مليوناً.

المشروعات الخيرية في الإسلام

وهذا مقال مخطوط بعنوان «المشروعات الخيرية في الإسلام» عثرنا عليه بخط الأمير في دفتر خاص، وفيه مثال على ما بذله المسلمون في أعمال البرّ وإغاثة بني الإنسان.

من قبيل المثال للتفنُّن الذي تفنَّنهُ المسلمون في أعمال البرّ وإغاثة بني الإنسان إلى الدرجة التي لم تتجاوزها المدنية الحديثة لا بل قصرت عنها أحياناً نذكر ما يأتي.

يوجد في مصر وقف لسكنى الأيامى ووقف لكسوة الأولاد ووقف لإطعام الكلاب.

ويوجد في تونس وقف لتجهيز وتزويج البنات اليتيمات.

ووقف لصبيان المكاتب لهم يوم مخصوص هو يوم الخميس يراجعون دروس الأسبوع في مساء ذلك اليوم ويعطى كل منهم شيئاً من الدراهم تفريحاً لقلبه وتنشيطاً لهمّته.

ووقف للاستحمام مجاناً وذلك بأن توضع صرر من الدراهم من ريع الوقف فكل من لزمه غسل أو استحمام أخذ صرّةً من هذه الصرر ودفعها إلى الحمّامي ودخل وا- تحمّ.

ووقف غير الوقف الأول للبنات الأبكار اللألى يلزمهن الزواج ووقف للمجاذيم، ووقف للمجاذيب.

ووقف لختان أولاد الفقراء يُختن الولد ويعطى كسوة ودراهم ووقف توزّع منه حلويات في رمضان مجاناً.

ووقف لمن ينكسر بيده إناء يذهب ويأخذ بدله من ذلك الوقف ووقف لتوزيع السمك إذ هناك سمك مخصوص يأتي في يوم معروف من السنة فيصطادون منه شيئاً كثيراً بمال ذلك الوقف ويوزعونه مجّاناً.

ويوجد في فاس وقف أيضاً لمن تنكسر في يده آنية ووقف في فاس لمن يقع عليه مصباح، فيتلوث ثوبه بالزيت أو يقع عليه شيء آخر تتلوّث به ثيابه.

وهناك أيضاً وقف سيدي أبي العباس السبتيّ للعميان والزمني يأخذون من ريعه كل يوم على كثرة عددهم ذكوراً وإناثاً ووقف سيدي علي أبي غالب على ذوي العاهات، ووقف يؤخذ منه لرفع الحجارة من الطرقات.

ووقف للمؤذّنين الذين يحيون الليل بالنوبة كل واحد منهم ساعة ويسمى مثل هذه المؤذّن «مؤنس الغرباء» ومنهم من يسمى «مؤنس المرضى».

وفي مراكش وقف للماء البارد في أيام القيظ.

وهناك مكان اسمه «دار الدقّة» وهو ملجأ تذهب إليه النساء اللواتي يقع نفور بينهن وبين بعولتهن ولهن أن تُقمن به حتى يزول النفور وعلى دار الدقة هذه أوقاف عديدة.

ومكان سيدي فرج لسكنى ومعيشة المعاتيه والمجاذيب وعليه أوقاف ويدخل في أوقاف سيدي فرج تجهيز وتكفين الضعفاء والمساكين كما أنه يؤخذ من ريع أوقاف سيدي فرج ثمن ملابس توزع على الفقراء في أول الشتاء.

وأما البيمارستانات للمجانين في فاس ومراكش ومصر والشام وسائر بلاد الإسلام فلا تحصى.

وفي الشام وقف الآنية من انكسر من الغلمان في يده إناء من الصيني يذهب ويأخذ عوضه ذكره ابن بطوطة في رحلتهِ، ووقف للماء البارد في الصيف، ووقف لتزويج الفقيرات.

ووجد في الأوراق المخلَّفة عن مستشفى نور الدين العادل ما يدل على وجود وظيفة في المستشفى لا يوجد مثلها آلاف ولا في (على المدن مدنيّة وأعظمها رُقيّاً وهي وجود أشخاص يقفون بحيث يسمعهم المرضى ولا يظنون أنهم عملوا ذلك عمداً ويأخذون بالحديث عن المرضى بما يقوّي نفوسهم ويساعدهم على الشفاء كأن يسأل الواحد الآخر: ما مرض فلان. فيقول له: ليس بشيء وما هي إلاّ أيام حتى يتماثل ويخرج إلخ فيسمع المريض ويفرح وهذا من جملة الأدوية الناجعة.

ووقف المرجة لرعي الخيل التي هرمت أو تعبت في الجهاد.

ووقف المجاذيم في حوران هو الذي باعه أحمد باشا الشمعة لليهود وواقع عليه الدعوى.

وفي مكة المكرمة وقف لمنع الكلاب من دخول مكة.

ووقف تستعار منه الحلي والزينة في الأعراس وتعاد إلى الوقف ووقف تستعار منه أدوات السفرة في الولائم والوضائم.

أشعر شعراء العصر

سأل الأستاذ سليم سركيس، صاحب مجلة (سركيس) في مصر، الأمير شكيب عن رأيه في أشعر شعراء العصر، وذلك سنة ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م فنشر ردُّ الأمير في مجلته المذكورة، ثم أعيد نشره في (المؤيد) في مصر:

حضرة صاحب مجلة سركيس

سألتموني رأيي في الشعراء فأشعر الشعراء عندي هو محمود سامي ثم شوقي ثم حافظ وهؤلاء الثلاثة في هذا العصر هم السابقون في حلبة الشعر الفائقون في إجادته بل هم أشبه بالثلاثة الماضين أبي تمام الشعر ومتنبيه وأبي عبادته، بل هم اليوم لات الشعر وعزاه ومناته، والذين رجحت لهم على غيرهم بيناته. وأحب أن أشبه البارودي بأبي تمام في علو نفوسه وقوة ملكته ومتانة أسلوبه، وأن أشبه شوقياً بالمتنبي في دقة معانيه وسمو حكمه وكثرة جوامع كلمه، كما أن حافظاً يشبه البحتري في سلاسة لفظه وحسن سبكه وتأثيره في النفس وهو وأن لم يعل علو شوقي في بعض أبياته فإن عامة شعره أطلى من عامة شعر شوقي، وغاية ما يقال فيهما إن جيد شوقي أحسن من جيده وأن هذا أعلى وذاك أطلى.

وأما كون أسلوب شوقي ركيكاً فهو غير صحيح. وهذا القول في حق شوقي هو أشبه بالقول الآخر في حق حافظ بأنه صانع ماهر وأن حيلته أكثر من شعره وعندي ألف شاهد لولا خوف الإطالة لأوردتها على متانة أسلوب شوقي وتسنمه غارب العربية كما أن لي بقدرها على قدرة حافظ الحقيقية وأنه شاعر مطبوع الفصاحة فيه سجية لا تلهوق وأن مثل حافظ في الشعراء قليل. نعم أن شعر شوقي ليس طبقة واحدة حتى لا يخاله القارىء نسجاً واحداً وهو يذهب مذاهب غريبة أحياناً وربما أتى في كلامه بالتعقيد وهذا من وجوه الشبه بينه وبين المتنبي الذي كان كأنه يعمد إلى الإغراب في بعض المواضع فيأتي بالغث كما يأتي بالسمين.

وإنما استحق أبو الطيب هذه الشهرة مع هذه الهنات لأنه كان متى أراد بذ الأولين والآخرين وأنه متى علا لم يزاحمه أحد بمنكب، وأن الذي يحفظ من كلامه لا يحفظ من كلام شاعر سواه حتى صار شاعر العامة فضلاً عن الخاصة. وهذا ما أراه في شوقي

اليوم فإن عيون شعره لا يقدر على مثلها حافظ ولا غيره وقد يحلق في سماء الخيال أحياناً حتى يفوق البارودي نفسه وهو عندي حامل اللواء وأبو الجميع .

ولا يمكننا أن نسلم بركاكة أسلوب شوقي إلاّ على مذهب من يرى المذاهب الجديدة في الشعر ولا يريد الشعر إلاّ كاظمياً ، ومذهب من يرى في موافقة ذوق العصر مفارقة المناهج العربية . وهذا الرأي ليس بجديد بل هو قبل صاحب المنار . وقد كان بعضهم يعيب على المتنبي نفسه الحيدَ عن جادة العرب في شعرهم وفي مقدمة ابن خلدون أن المتنبي والمعري لم ينسجا على أساليب العرب ولكن لا يمكننا أن نقول إن هذا هو الرأي كله وأنه جف القلم بعد هذا القول بل لكل رأي ولكل وجهة .

وأحسن ما قيل في شوقي إنه في الشعر كأبي مسلم في القواد أقام دولة وأقعد دولة ، فإنه نسج على منوال جديد وانتهج خطة حديثة تلائم روح الوقت الحاضر لكن مع الوفاء بحق اللغة والأمانة مع العربية . ولو لا متانة لغة شوقي لما عد شاعراً أصلاً لأن نقاوة اللغة هي الشرط الأول للشاعر والكاتب والمعاني وحدها لا تكفي ، ولا ينهض بركاكة اللفظ علو المعنى وهذا أمر اتفق عليه العرب والعجم .

ومما أعجبني جداً في نعت شوقي أن شعره لوح الصبي في مكتبه وسبحة الناسك في صومعته وكأس الشارب ودمعة الباكي إلخ . فكل هذا القول في شعره حق لأنك تجد شعره بستاناً فيه من كل الرياحين أو على رأي أهل العصر معرضاً فيه من كل البضائع .

ومما يطيب سماعه عن شوقي وهو يتعلق بالأخلاق لكنه من رشح إناء الفضل قول القائل : إنه صفت نفسه فلم يستشعر في نفسه عيباً يحتاج إلى ستره بتنقص غيره وعلت همته فوقف بين حساده وقفة رابط الجأش يناضلهم بسكوته وإغضائه . ولعمري إنها عبادة شعرية لو نظمت لكانت من أحسن الشعر . وأحسن ما فيها مطابقتها الواقع . فلا ينكر أحد هذه الحال على شوقي وأنه لا يقابل حساده والطاعنين عليه إلاّ بالسكوت وهو أحياناً أقتل من الكلام . على أنه في الواقع غير ساكت فإذا لم يجاوب منتقده رأساً جاوبه من جهة ثانية بقصائده إلى الجمهور . فترى بإزاء كل «همزة من تلك الهمزات وحرف من هاتيك الحروف» كل قصيدة يقام لها ويقعد وكل بيت أذن الله أن يرفع ويشيد .

أما القول بأنّ محمود سامي هو مقلد شأنه معارضة الأولين وهيهات أن يلحق واحداً منهم فهو شبيه بالقولين الأولين في الظلم . وإنما اختار المعارضة في بعض

المظان ليعلم الناس شأوه مع من تقدمه. وليست المعارضة بشأن جديد بل كانت عند الماضين وقد استحسنوها ولم يحسبوها تقليداً ولا عدوها نسخة محررة ولا صورة مطبقة. وإنما كان ينظم الواحد قصيدة ترن في الآفاق فيعارضه شاعر آخر برنانة أخرى من البحر والقافية كما يجاري الفارس فارساً في مضمار. وهذه قصيدة أبي نواس الرائية في الخطيب عارضها ذلك الأندلسي قبل محمود سامي، وكل منهما أجاد، ولم يقل أحد أن الأندلسي مقلد لا مزية له، وإنه إنما صور صورة كانت أمامه. فمحمود سامي قد عارض وفاق من تقدمه وقال في غير معارضة فأتى بالشعر الفحل الذي يعي على الأوائل فضلاً عن الأواخر. وكل ذي مسكة يقدر أن يميز بين التقليد والتوليد. ولا يجب أن يؤخذ من كلامي هذا في تفضيل الثالوث الشعري الاستخفاف بقدر الباقين فإن الذين فضلوا حبيباً والمتنبي والبحتري لم يحصروا الشعر فيهم ولا ازدروا سائر الشعراء ولكن لسان حالهم يقول:

محاسن أصناف المغنين جمة ... وما قصبات السبق إلا لمعبد

ولابد في الميادين من مجل ومصل وتال ومرتاح إلى السكيت. وأني أرى الكاظمي وصبري وناصف والمطران وسائر من ورد ذكرهم من الشعراء أشبه بالناشيء والنامي والزاهي والمعري وأمثالهم فليست شاعرية أبي تمام والمتنبي والبحتري بنافية براعة هؤلاء بل لهؤلاء مواطن لا يلحقهم فيها أولئك.

بقي شيء استحسنته من كلام فاتح الباب وهو أن الشهرة لا تصح أن تكون بحال من الأحوال ميزاناً للفضل ولن يجري الفضل والذكر في ميدان واحد لأن في الناس من يغتصب الشهرة ويلصقها بنفسه. بينما الآخر قد قنع من الأدب بلذة نفسه فلا يترنم بقصائده في النوادي ولا يبتاع من الصحف الألقاب ولا يستخدم الكتاب لإطرائه ولا يتمم نقصه بالغض من مقام غيره. وهذه كلها جمل منحوتة من معدن الحقيقة وفلذات منقطعة من كبد الصواب فإن الشهرة مزلقة ولا يصح اتخاذها معياراً. وقد يقبع في كسور الخمول من لو اطلعت على حقيقته لأجللته وأحللته أعلى مقام[1]. ولا أريد من ذلك

---

(١) ومن هؤلاء أخي نسيب رحمه الله الذي كان من فحول الشعراء ولا يكاد يعرفه إلا الذين أتيح لهم أن يعرفوه اتفاقاً وذلك لفراره من الشهرة. وقريباً سيصدر ديوانه فيعلم الناس علو منزلته في الشعر وندور أمثال ملكته في العربية. ولعله لو عاش إلى اليوم ما طبع ديوانه.

الطعن في حب الشهرة وتضعيف هذا المشرب وهو مبعث الهمم ومثار كوامن الفضائل ومظهر درر القرائح من أصداف الأدمغة. ولكن أريد أن تكون درجة الشهرة هي درجة الفضل، فكم في الزوايا من خبايا. كذلك لم أعزز رأيي في الشعراء بالشواهد من أقوالهم ولعلي أرجع إلى البحث وأختار من دواوينهم على مهل فقد وجدت الشواهد التي أوردها غيري غير وافية وقد أهمل ما هو أحسن منها. وإنما استحسنت ما أطيل من شواهد شعر الكاظمي لأنه كان غني صوتاً واحداً في وادي النيل فلم نتحقق فضله على طوله فإذا به بعد هذه الأصوات كلها مغن على أصول. والله تعالى ذو الفضل العظيم (يزيد في الخلق[1] ما يشاء).

قد كان هذا كلامي في شوقي منذ خمس وعشرين سنة وفي هذه المدة كان قد انطوى البارودي فأصبح شوقي نسيج وحده لا يجد الناس عنه عوضاً ولا يبتغون به بدلاً وأصبح آثر في النفوس من كل شاعر سواه. ولم ينحصر المجد في نفسه بل تناول وطنه مصر فصارت تزهو به على غيرها، ولما كان لها المكان الأول في الشرق وكان خليقاً بها أن تكون ذات المركز الأول في كل فن جاء شوقي فحقق لها مكانها الأول في الشعر برغم أن كلا من الشام والعراق واليمن والسودان وتونس الخضراء فيها الشعراء المفلقون الذين لا يشق لهم غبار. وقد صدق شيخ الأدباء في هذا العصر مصطفى صادق الرافعي في قوله: إن اسم «شوقي» «كان في الأدب كالشمس من المشرق متى طلعت في موضع فقد طلعت في كل موضع ومتى ذكر في بلد من بلاد العالم العربي اتسع معنى اسمه فدل على مصر كلها كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة».

وقال الرافعي في مكان آخر: «انفلت شوقي من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها السائر في الجو فأصبحت مصر به سيدة العالم العربي في الشعر وهي لم تذكر قديماً في الأدب إلاَّ بالنكتة والرقة وصناعات بديعية ملفقة ولم يستفض لها ذكر بنابغة ولا عبقري وكانت المستجدية من تاريخ الحواضر في العالم».

---

(١) وقرىء «في الخَلق» بالحاء المهملة.

ولست متفقاً كل الاتفاق في هذا القطع مع أبي السامي. فالبلد الذي نبغ فيه مثل ابن الفارض والبهاء زهير وظافر الحداد الأبوصيري صاحب البردة الشريفة في القديم، ومحمود سامي البارودي ومحمود صفوت وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وأحمد محرم وإسماعيل صبري وغيرهم في الحديث لا يقال إنه منقوص الحظ من الشعر، وإن كان لم ينبغ في مصر أمثال بشار وأبي العتاهية وأبي نواس وأبي تمام والبحتري والمتنبي والمعري ممن أنجبتهم الشام والعراق. على أن الرافعي مصطفى صادق، صادق في قوله: إن جميع شعراء مصر في القديم والحديث «لم يستطيعوا أن يضعوا تاج الشعر على مفرق مصر ووضعه شوقي وحده» وما أحسن قوله كذلك: «ولم يترك شاعر في مصر قديماً وحديثاً ما ترك شوقي وقد اجتمع له ما لم يجتمع لسواه وذلك من الأدلة على أنه هو المختار لبلاده فساوى الممتازين من شعراء دهره وارتفع عليهم بأمور كثيرة هي رزق تاريخه من القوة المدبرة التي لا حيلة لأحد أن يأخذ منها ما لا تعطيه أو يزيد ما تنقص أو ينقص ما تزيد. وقد حاولوا إسقاط شوقي مراراً فأراهم غباره[1] ومضى متقدماً ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه ويرى بهما أن شوقي من النفس المصرية بمنزلة المجد والمكتوب لها في التاريخ بحرب ونصر وما هو بمنزلة شاعر وشعره» إلى أن قال: «ثم تولاه الخديوي عباس باشا وجعله شاعره وتركه يقول:

شاعر العزيز وما ... بالقليل ذا اللقب

وإذا أنت فسرت لقب شاعر الأمير هذا بالأمير نفسه في ذلك العهد خرج لك من التفسير شاعر مرهف معانٍ بأسباب كثيرة ليكون أداة سياسية في الشعب المصري تعمل لإحياء التاريخ في النفس المصري وتبصيرها بعظمتها وإقحامها في معارك زمنها وتهيئتها للمدافعة» وأحسن من قوله هذا قوله الآخر: «إن السياسة التي ارتاض بها شوقي ولابسها من أول عهده واتجه شعره في مذاهبها من الوطنية المصرية إلى النزعة الفرعونية إلى الجامعة

(١) قال المتنبي:

إذا رام أن يلهو بلحية أحمق ... أراه غباري ثم قال له الحق

الإسلامية كانت سبب نبوغه ومادة مجده الشعري وكانت هي بعينها مادة نقائصه فقد أبلته بحب نفسه وحب الثناء عليها وتسخير الناس في ذلك بما وسعته قوته إلى غيرة أشد من غيرة الحسناء تقشعر كل شعرة منها إذا جاءها الحسن بثانية. وهي غيرة وإن كانت مذمومة في صلته بالأدباء الذين لدعوه بالجمر ونحن منهم غير أنها ممدوحة في موضعها من طبيعته هو إذ جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظله، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه ونافس ذاته أيضاً ليجعل شوقي أشعر من شوقي».

الشعر والشعراء

للأمير شكيب رأي في الشعر والشعراء، وفي النهضة الأدبية والعلمية في الشرق مع بداية هذا القرن. وإن النهضة العلمية إذا ما وُجدت، وُجدت معها نهضات عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية. وقد أعطت اللُّغة العربية شعراء عباقرة كان لهم الفضل في مختلف الميادين.

إن اللغة العربية من حيث هي، طارت في هذه الخمسين سنة الأخيرة بجناحين وصارت إلى جلالها الماضي وعنجهيتها القديمة فكثر في السنين الأخيرة سواد الكتاب والشعراء حتى صاروا يحصون بالمئات إن لم يكن بالألوف، ونبغ منهم فحول يقدر الإنسان أن يلزهم في صفوف المنشئين والشعراء من أهل القرون الأولى للإسلام عندما كانت اللغة في إبان سورتها فلا تنظر في جريدة إلاَّ تجد فيها من النظم الفائق والترسل الرائق لشباب لم تسمع في عمرك بأسمائهم، هذا عدا المفلقين والعباقر الذين سارت بذكرهم الركبان وحفظ الرواة من شعرهم كما يحفظون شعر المتنبي وأبي تمام، ولم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق والمغرب معشار العدد الذي نجده في يوم الناس هذا من هذه الطبقة الراقية في الأدب منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما قبل، وكان إذا نبغ شاعر أو برع كاتب ضرب به المثل لتفرده وخلو الجو من حوله، والحال أنه لو نشرته اليوم من قبره، وعرضته في الجمع لوجدت أمثاله يعدون بالعشرات، وإن كانت لاتزال له طلاوة، فهذه الطلاوة لا ترتفع به إلى صفوف العبقريين وإنما تجعله في صف

المجيدين، وقد كنا في سورية لا نعرف شاعراً أحسن من ناصيف اليازجي اللبناني الذي نبغ في بيروت وصارت له تلك الشهرة الطائرة باستحقاق، وهو لو وجد في زماننا هذا لما كان إلاّ واحداً من جماعة، وكان في بيروت من الشعراء المجيدين عمر الأنسي البيروتي يقرأ الإنسان شعره بلذة وكان قبل الأنسي واليازجي أمين الجندي وبطرس كرامة كلاهما من حمص ولهما قصائد كسبا بها شهرة لاتزال لهما إلى اليوم، ولو أنهما عاشا في هذا العصر لم تكن لهما هذه الشهرة بالرغم من إجادتهما، وعلو طبقتهما، وقد سأل الأمير بشير الشهابي أمير لبنان في وقته الشيخ أمين الجندي عن المعلم بطرس كرامة قائلاً له: ما نسبة المعلم بطرس إليك في الشعر؟ فأجابه: نسبة الثعلب إلى الأسد، ولم يكن هذا الجواب صحيحاً لأن لبطرس كرامة من الشعر لاسيما في الغزل والنسيب ما لا يقل رونقاً عن شعر الجندي، وكان في بغداد ثلاثة شعراء أو أربعة اشتهرت أسماؤهم في بلادنا مثل عبد الباقي العمري وصالح التميمي وعبد الحميد الموصلي وعبد الغفار الأخرس، وكان أكثرهم شهرة عبد الباقي العمري وعبد الحميد الموصلي هنا بسبب مراسلاتهما مع ناصيف اليازجي كما أن شهرة صالح التميمي كانت بسبب المناقشة التي وقعت بينه وبين بطرس كرامة، وهذه الطبقة، وإن كانت تعد من الطبقة العالية في الأدب، فإن الذين جاؤوا بعدها ردوها إلى الوراء فبعد أن كانت من المجلين صارت من المصلين، اللهم إلاّ إذا حسبنا الشاعر الأرزي الذي لا يلز هؤلاء في قوته، ومن قبله ابن معتوق الذي كان يضارع الشعراء الأولين. وأما في مصر فما بدأ الشعر ينهض إلاّ بنبوغ محمود صفوت وبعده محمود سامي وهو صاحب النهضة الشعرية الكبرى، وقد أجمع مؤرخو الأدب على أنه مجدد الشعر العربي في هذا العصر، وأنه الذي أعاد إليه ديباجته الأولى التي كانت القرون الأخيرة لا تعرف منها شيئاً، وما كان شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء مصر إلاّ مبعوثين في عالم الأدب بأنفاس محمود سامي العالية، واليوم لا يكاد يحصى عدد المجيدين من شعراء مصر وأغرب منه نبوغ شعراء في السودان لا يقل شعرهم في الإجادة عن شعراء الأقطار العربية الأخرى، وقد نبغ في تونس في القرن الماضي محمد قباد وهو صاحب تشطير (أفاطم لو شهدت ببطن خبت) الذي دخل فيه مدخلاً لا يفترق عن الأصل، والذي له قصائد أخرى جياد، وجاء بعده شعراء في تونس لم أعلم منهم أحداً بلغ مداه، وقد هبت ريح الأدب في هذا العصر في أرجاء الجزائر والمغرب الأقصى، وظهر شعراء

ومترسلون يمكن أن يضعهم القارىء في صعيد واحد مع شعراء الشرق، ومهما قيل في ترقي الشعراء في هذا العصر الأخير فأعظم منه قد كان ترقي الكتاب التي لم تتقدم في فصاحة الألفاظ وتنقيح الجمل فقط بل علت ببلاغتها وحسن أسلوبها وتشبعها بالمعاني الكثيرة التي أوجدتها الحركة العلمية الحديثة فأديل من الصناعة اللفظية والسجع الرنان المسحة العلمية والإنشاء المرسل الملآن، وهذا النوع من الكتابة هو أصعب أنواعها لمن أراد أن يسمى كاتباً، ولا نزاع في أن ترقي كل من فني الشعر والكتابة في الأدب العربي قد كان وليد النهضة العلمية العامة التي حملت المتأدبين على مراجعة أحسن ما كتب العرب وخلفوه في زوايا المكاتب فسمت الهمم بسبب هذه النهضة العلمية إلى طبع الكتب التي لاتزال مجهولة، أو مما ينحصر اقتناؤه في بيوت الأمراء والكبراء فصارت هذه الكتب من مثل ترسل ابن المقفع والجاحظ وأمثالهما مشاعاً بين جميع عشاق الأدب، وكانوا كلما قرأوا كتب الأوروبيين شعروا بحاجة إلى مادة أغزر من اللغة العربية وأساليب أطلى وفنون أبدع ومجال أوسع فكأن اللغات الأجنبية هي نفسها قد كانت الحافز الأعظم على اتقان العرب المحدثين للغتهم وارتوائهم من معينها، ولا عجب في ذلك فالعلم يزيد بعضه بعضاً سنة الله في خلقه.

مسائل لغوية

مقالة كتبها الأمير يجيب فيها عن أسئلة لغوية طُرحت عليه.

١ ـ سألني أديبٌ ما تقول في لفظة «النوادي» فقد وجدناها في كلامك ووجدنا بعضهم ينتقد استعمالها بقولِه إنها لم ترد في متون اللغة وأن الوارد في جمع نادٍ هو أندية لا نوادٍ فما جوابك هذا؟

(قلتُ) لا يُنكر ورود أندية جمعاً لنادٍ في كتب اللغة المعروفة لدينا كما أنَّهُ لا ينكر كون القياس أن يكون جمعهُ نوادي لأنَّهُ كما لا يخفى يجمع فاعل على فواعل لغير العاقل. ثمَّ أظنُّ أنَّ الفيروزأبادي يُوثق بقولِه وهو يقول في مقدِّمة قاموسِه «خير من حضر النوادي» وإذا اعُترض بان الفيروزأبادي غير جاهليّ لم نعدم هذه اللفظة بهذا المعنى في كلام الجاهليَّة نفسِهِ. ورد في

مجمع الأمثال للميدانيّ عند شرح مثل (زُرْ غباً تزدَد حباً) أبيات رواها المفضل لمعاذ الخزاعي فارس خزاعة في وقتِه في قصَّة جرت لهُ مع جحيش بن سودة ومن جملة هذه الأبيات قولُه:

ضـربـتُ جحيشـاً ضـربـةً لا لئيمـةً   ولكـن بصـافٍ ذي طـرائـق مستـلِكِ
ولســتُ بــرعــديــدٍ إذا راع معضـلٌ   ولا في «نوادي» القوم بالضيق المسلِكِ

فإن لم نثق بالقياس وبالمسموع من كلام العرب فبماذا نثق وعمن نأخذ لغتنا؟

٢ ـ قال وما تقول في لفظة «استأسر» هل تأتي بمعنى أسر فقد أيَّد ذلك بعضهم وأنكرهُ آخرون.

(قلت) قد تمسَّك الذين جوَّزوا هذه اللفظة بحديث عبد الرحمن وصفوان نقلاً عن المطرّزيّ وهذا سنَد لا يُهزأ بهِ. وقد رأيتها في كلام الكبار مثل ابن الأثير صاحب التاريخ وابن الأثير هذا عَلمٌ في اللغة من دقَّق في عبارتِه هذه المرسلة عَلِم علوَّ كعبِه فيها ونصيبهُ منها وهو يقول في غزو شهاب الدين أجمير بلاد الهند وغلبتِه على ملك تلك البلاد عند ذكر وقوع الملك أسيراً في يد شهاب الدين: «إنَّ بعض الحجَّاب أخذ بلحيته وضربَهُ إلى الأرض حتى أصابها جبينهُ وأقعدهُ بين يدي شهاب الدين فقال لهُ شهاب الدين: لو «استأسرتني» ما كنتَ تفعل بي؟ فقال الكافر: قد استعملتُ لك قيداً من ذهب أقيِّدك بهِ إلخ. وهؤلاء قوم رأوا من الكتب ما لم نرَ وسمعوا ما لم نسمع.

٣ ـ قال وما تقول في لفظة «احتمى»؟. (قلتُ) هي واردة في كتب اللغة المعروفة عندنا بمعنى امتنع عن الطعام حِميةً. على أنَّ فحول الكتَّاب والشعراء الذين حفظوا اللغة نظير جامعي هذه المتون أن لم نقُل أكثر قد استعملوها في معنى طلب الحماية قال ابن الأثير: «واحتمى ثلثمائة من فرسان الإفرنج على تلّ فقاتلهم المسلمون». ووردت في كلامه مراراً وقال ابن هانىء الأندلسي المضروب بهِ المثل في الشعر وكان يحمل من اللغة أمراً عظيماً وذلك من قصيدة يهنىء بها جعفر بن غلبون بفتح قلعة كتامة:

بلـى هـذه تيمـاء والإبلـقُ الفـردُ   فَسلْ أَجَمات الأسد ما فعل الأسدُ

إلى أن قال:

فتوحات ما بين السماء وأرضها   لها عنـد يـوم الفخـر ألسنـةٌ لـدُّ
سيعبـق فـي ثـوب الخليفـة طيبُهـا   ومـا نـمَّ كـافـورٌ عليـهِ ولا نَـدُّ
حَـروريَّـةٌ مـا كبَّـر اللهَ خـاطـبٌ   عليهـا ولا حيَّـى بهـا ملكـاً وفـدُ
وكانت هي العجماء حتى احتمى بها   ملوكُ بني قَحْطان والشعرُ والمجدُ

٤ ـ قال وما قولك في «بارح» هل تأتي بمعنى بَرَح؟ (قلتُ) أوردوا على ذلك شاهداً من كلام الإمام عمر رضي الله عنهُ. وها أنا ذا مورد شاهداً آخر ذكر ابن عبد ربّه في باب التوديع في الجزء الثالث من عقدهِ الفريد هذه الأبيات من قول إعرابي:

امبتكــرٌ للبيــن أم أنــت رائــحُ   وقلبـك ملهـوفٌ ودمعـك سـافـحُ
الآن تبكــي والنــوى مطمئنــةٌ   فكيـف إذا بـارحـتَ مـن لا تبـارحُ
فإنك لم تبرح ولا شطَّت النوى   ولكـنَّ صبـري عـن فـؤادي نـازحُ

٥ ـ قال صاحبنا أمّا استعمال «النوال» بمعنى النَيل كما تستعملهُ الجرائد خصوصاً المؤيّد فهو غلط فاضح بلا شكّ. (قلتُ) لا أقدر أن أغلّط كلاماً تكلَّم بهِ أهل الجاهليّة ورد في ديوان الحماسة قولهُ من أبيات شهيرة:

وهل حملت عيناي في الدار غدوةً   بـدمـع كنظـم اللـؤلـؤ المتهـالـكِ
أرى الناس يرجون الربيع وإنّما   ربيعي الذي أرجو نوالُ وصالكِ
لئـن سـاءَنـي أن نِلْتنـي بمسـاءَةٍ   لقـد سـرَّنـي أنـي خطـرتُ ببـالـكِ

٦ ـ قال وهل يُقال عدوٌّ ألدُّ؟. (قلتُ) يظهر أن اللدد من الصفات التي قد يتّصف بها العدوّ. ويتبعهُ الحنق والحقد وما أشبه ذلك. قال الشاعر وهو ربيعة بن مقروم الضبّي:

والـدُّ ذي حنـقٍ علـيَّ كـأنّمـا   تغلـي عـداوة صـدرهِ فـي مـرجـلِ

فإذا كان يقال «ألدُّ ذو حنقٍ» فكيف يمتنع أن يُقال عدوّ ألدّ. فاستقصى صاحبنا البحث إلى ألفاظ وتراكيب أخرى زعم بعضهم عدم صحّتها وآخرون جوازها سائلاً فيها رأيي وإن كان يستوري بذلك زنداً لا يفيدهُ قَدحاً ويستحثّ ياسراً لا يجيل في مثل هذا قِدحاً. فقلتُ لهُ: تلك اعتراضات فيها وفي أجوبتها مجال واسع للقول والعربيّة بحرٌ لا ساحل لهُ وقد أخطأ كل من ظنَّ احتكار علمها أو التبحُّر في فقهها وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً.

السلطان سليم
والشعر العربي

وهذه مقالة بعث بها الأمير إلى الأستاذ يعقوب صروف صاحب (المقتطف) عن السلطان سليم العثماني والشعر العربي وقضايا أخرى، وقد نشرت في المقتطف في عدد كانون الأول ١٩١١.

قرأت في مجلة الآثار للفاضل المحقق عيسى أفندي اسكندر المعلوف هذين البيتين وهما:

الملك لله من يظفر بنيل منىً	يردُدْهُ قسراً ويضمن بعدهُ الدَّركا
لو كان لي أو لغيري قيد أنملةٍ	فوق البسيطة كان الأمرُ مشترَكا

منسوبين لساكن الجنان السلطان سليم العثماني الأول فاتح البلاد العربية فلحظت أن الكاتب تابع فيهما قول الذين ظنوا أن السلطان كتب هذين البيتين عندما فتح مصر من مقولهِ لا من منقولهِ مع أني كنت رأيتهما في ديوان المعرّي لزوم ما لا يلزم من جملة قصيدة من البحر والرويّ.

ويظهر أن الفاضل المحقق أحمد بك تيمور لحظ ما لحظتهُ وأشار إلى ذلك في العدد الأخير من المقتطف مشفوعاً بكونهِ وإن لم يكن السلطان بأبي عذرة هذين البيتين فإن اختيارهُ لهما في مثل هذا المقام لمن أدل الدلائل على عقلهِ وفضلهِ ورسوخهِ في الأدب ووفرة حظهِ من لغة العرب. وأنا أضيف إلى هذا القول إن ظن بعضهم كون

البيتين هما من قريحة السلطان مبنيٌّ على ما كان متحققاً بهِ رحمهُ الله من ملكة الأدب العربيّ إلى الغاية البعيدة وما كان سائراً عنهُ من الشعر الجزل العالي الطبقة المستولي على آماد الإجادة بحيث لم يكن ليستكثر عليهِ النظم الذي يلتبس بنظم المعريّ.

وفي هذا الصيف زرت مدينة حماه فدلّني بعض السادة الكيلانية السراة على الدار التي يقال إن السلطان سليماً نزل بها عند مروره بحماه فاتحاً للديار الشامية وعلى الغرفة التي بات فيها وهي غرفة سنيّة ذات طنف مشرف على العاصي وأنشدني بعضهم بيتين يقال إنهُ نظمهما يومئذٍ وهما:

بني جيلان هُنئتم بعيشٍ   أرى من دونهِ السبع الطباقا
أطاع لديكُم العاصي ولمَّا   تشرَّف بالجوار حلا وراقا

وأنت ترى على هذا الشعر من مسحة الكلام الملوكيّ وغضاضة الأدب السلطاني ولاسيما في قولهِ «تشرّف بالجوار» ما يصحح نسبة هذين البيتين إلى ذلك السلطان الأديب والفاتح العظيم فإن للملوك ولاسيما بني عثمان من الآداب العالية الغالية في الحديث والكتابة ما لا تخفى ديباجتهُ.

ومما قرأتهُ ولا أتذكر الآن بالتمام المظنة لبعد العهد بها أن السلطان المشار إليهِ كان مرةً يتنزَّه في البوسفور فبينما هو يسير في قاربهِ إذ مرَّ بالقرب منهُ رجل من علماءِ العراق راكباً إلى اسكدار فحانت من السلطان التفاتة فرآهُ وعلم من زيهِ وعمامتهِ أنهُ عراقيّ المنبت عربيّ اللغة فخاطبهُ بصوت عالٍ متمثلاً ببيت الطغرائيّ البغدادي من لامية العجم وهو:

فِيمَ اقتحامك لجَّ البحر تركبهُ   وأنت تكفيك منهُ مَصَّةُ الوشَلِ

وكان العراقيّ حاضر النادرة فأجابهُ بديهاً ببيت آخر من القصيدة نفسها وهو:

أُريدُ بسطة كفٍ أستعين بها   على قضاءِ حقوقٍ للعُلى قِبَلي

فاستحسن السلطان بديهتهُ وفي اليوم التالي استدعاهُ وأجازهُ وأمر بقضاء حاجاتهِ كلها.

وأتذكر أيضاً أنني وقفت على كتاب باللغة الفرنسية يقع في مجلد كبير حاوٍ تراجم المتأدبين والفضلاء من سلاطين آل عثمان آت على ذكر بعض مناقبهم الأدبية وآثارهم

العلمية على نوع من الاستيفاءِ فمن تأمل بعين الإنصاف في علو كعبهم في العلوم والآداب ومعرفة متعدد اللغات ومعاناتهم النظم والنثر إلى حد الاستيلاء على الغاية مع استغراق أوقاتهم بالفتوحات وتدبير الملك علم أن هممهم العلية لم تكن لترضى بسمة الفتوح دون التحلي بحلية العلم وأن عروش سلطانهم موشاة بطراز الأدب الرفيع مما يعز على عترة ملكية غيرهم ويندر أن يتسق بتلك الدرجة لغير فروع هذه الشجرة المباركة أدام الله ظلها.

صوفر شكيب أرسلان

الجهاد الأكبر

وأرسل الأمير شكيب إلى صاحب «المنار» السيد محمد رشيد رضا، برسالة بتاريخ ١٣ شوال سنة ١٩١١، من صوفر (لبنان)، وكتب فوقها (خصوصي)، واستأذنه السيد رضا بنشرها فأذن له، فنشرها في «المنار» في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١١. وفي هذه الرسالة الحث على المساعدة على الحرب بطرابلس الغرب، والحض على الجهاد:

لما أنذرتنا إيطالية البأس، وآذنتنا بالحرب، كتب إلينا صديقنا الأمير شكيب أرسلان الكاتب الشهير الكتاب الآتي. من صوفر (لبنان) في ١٣ شوال، وكتب فوقه (خصوصي) فلم ننشره في وقته، ثم استأذناه في نشره لما فيه من أصالة الرأي، وإيقاظ الفكر، وإذكاء نار الغيرة، وإنارة مصباح البصيرة، والتنويه بالإصلاح الديني، والإيماء إلى نفعه الدنيوي، ولم يصدنا عن ذلك اطراء الصديق لصديقه، وإعطائه أكثر من حقوقه، فأذن لنا فنشرناه، وها هو ذا بنصه البليغ:

سيدي الأخ الفاضل:

أعلم أن جهادكم في تهذيب الأنفس، وإقامة الشريعة على قواعد العلم، وأخذ المؤمنين بحقيقة الدين، وإثلاج الصدور ببرد اليقين، هو الجهاد الأكبر والبلاء الأسنى، والذي فيه استكمال الحسنى، وأن الأمة التي تفهم الدين فهمكم، وتفقه الشرع فقهكم، لا يخشى عليها من اعتداء إيطالي، ولا استبداد أجنبي، ولكن جهادكم هذا غرس لم يحن إيناعه، وزرع لم يئن ارتفاعه، ودون وصول ثمرته إلى درجة الوفاء بالغرض أيام وليال، وأعوام طوال، بما

رسخ من الأوهام، وسدك بالعقول من صدأ الترهات، ونحن الآن في خطب مستعجل الرأب، وفتق مستلزم سرعة السدّ، ولا يفيدنا فيه تعنيف مفرط، ولا لوم مقصر، ولا جزاء خائن أو مستهتر، ولا يغنينا مع إلحاح وافد الشر، وإطلال نازل البأس، إكبار الإهمال، والوقيعة بمديري هذه الأعمال، بل علينا قبل ذلك واجب أعجل، وهو تلافي ما فرط فيه غيرنا، وإبلاء العذر فيما يطلبه الرأي العام منا، وقد ظهر لنا بعد تقليب وجوه الحيل كلها، وتمحيص آراء الإغاثة بأجمعها، أنه لم يبق إلاّ طريق البر، وأن هذا الطريق مهما كان شاقاً صعباً طويلاً معطشاً فإنه هو الوصلة الوحيدة، والممر الممكن، وإن طريقاً سلكه آباؤنا مراراً في فتوحاتهم ومغازيهم لجدير بأن نسلكه نحن في أحرج موقف وأضيق مجال، فإن لم تساعد السياسة على إمرار جنود منظمة، فلا أقل من متطوعة، وإن لم يكن نهوض متطوعة ، فلا أقل من تسريب ذخائر وأرزاق على ظهور الجمال، بحيث لو بدىء بتسيير قطر الجمال قريباً صار المدد متصلاً، فإن في طرابلس وبنغازي والصحراء ومن قوم السنوسي رجالاً يشاغلون إيطاليا سنين طوالاً لو جرى تأمين مسألة معيشتهم، إذ هناك رجالات كثيرة، وفروسية ونجدة، وبغضاء للعدو، ولدى الدولة عدة آلاف من الجند، وأسلحة وعدة، وإنما يخشى على أولئك من الجوع وقلة الطعام. أفلا ينهض الإسلام في كل هذه الممالك إلى إغاثتهم بما يمسك أرماقهم على الأقل، حتى تطول الحرب ويستمر الدفاع، فإن طول أجل الحرب يستدعي تدخل الدول، ويفت في عضد تجارة إيطاليا، ويثير عليها ثائر سكانها، فتنتهي النازلة بصورة ليس فيها هذه الغضاضة وهذا الذل، ولا يطأطأ فيها الرأس أمام الطلياني، فيا ما أحلى الغلبة للإنكليزي بالقياس إلى هذه الحالة، ويا ما أحلى طعم الموت إذا صرنا نهزم أمام من هزمهم الأحباش، أفلا يمكنكم في مصر عقد الاجتماعات لوضع هذه الإعانة في موضع التحقيق، وإيفاد السعادة إلى الهند وإلى السنوسي، فأما من الهند فتمكن النجدة بالمال، وأما من الصحراء فبالرجال، وأما من جهة الضباط لتدريب الأهالي فالدولة تقوم بهذا الأمر، وما نستصرخ إخواننا المصريين أولي اليسار وأصحاب الحمية إلاّ للمدد المادي أن تعذر كل مدد غيره، وأي شهم يضطلع بمثل هذا العمل أكثر منكم، وأي عمل هو أشرف من هذا، وأي سقوط، حالاً واستقبالاً أعمق من سقوطنا إذا ذهبت

طرابلس الغرب. لا جرم أن حسن الدفاع عنها ليقف بالطامحين عن سائر حوزتنا، ويحفظ علينا هذا النزر الباقي من كرامتنا، وأن التخاذل عن هذه النجدة يكون الإجهاز على مهجتنا العمومية، إذ تعلم أوروبا أنه ليس ثمة من حياة ولا من أحياء، وأن هناك أعداداً بدون إعداد. قصدت استيراء زندكم في هذا الغرض، وليس ذلك على همتكم بعزيز، ونحن في انتظار الجواب شدَّ الله بكم الأزر، ووفقكم إلى هذه الغاية أفندم شكيب أرسلان.

(المنار) جاءنا هذا الكتاب يرمي عن قوس عقيدتنا، ويرينا في مرآته الصقيلة صورتنا، وقد استفزنا الذعر، واستنفزنا العدوان النكر، فطفقنا نستوري زناد الهمم، ونستسقي سحاب الجود والكرم، فذو المال يجود بماله، وذو القلم واللسان بمقاله، فكتبنا إلى الصديق نبشره بأن حسن ظنه بالمصريين قد صدق، وإن كل ما يمكن من تنفيذ رأيه قد نفذ.

شكيب أرسلان وانقلابه على جمال باشا

صدر العدد الأول من جريدة «الشرق» في دمشق، بتاريخ ٢٧ نيسان سنة ١٩١٦، وهي جريدة «سياسية أدبية اقتصادية» تصدر يومياً. وقد شارك في تحريرها عدد من المهتمين بقضايا الفكر وجهاز مميز من الكتَّاب والأدباء ورجال السياسة.

وتألف جهازها الإداري والتحريري على الشكل التالي: خليل الأيوبي، صاحب الامتياز، محمد تاج الدين الحسني، المدير المسؤول، شكيب أرسلان، رئيس التحرير، عبد القادر المغربي، مدير التحرير، علي حكمت ناهيد، مدير الإدارة.

وعيِّن لهذه الصحيفة عدد من المراسلين والكتاب في عدة أقطار، واختصاصيون في شؤون الاقتصاد والحرب والأدب والفكر والتاريخ وسبق صدور العدد الأول دعاية قوية مركزة في مختلف الأوساط.

وهنا، صورة طبق الأصل، عن كتاب أرسل إلى السيد محمود الطويل حمادة، أحد وجهاء وأعيان جبل لبنان، وهو من بلدة «بعقلين»، بعث به المسؤولون عن تحرير هذه الجريدة. وقع من: علي حكمت أناهيد، وعبد القادر المغربي، وشكيب أرسلان، وقد كتب التاريخ والاسم المرسل إليه بخط يد الأمير شكيب.

وهذا هو النص:

دمشق الشام في ١٠ شهر نيسان سنة ١٣٣٢ هـ.

أيها الأخ الفاضل : محمود أفندي الطويل حماده المحترم .

تحية الله وسلام عليك . وبعد فقد صحت العزيمة على إنشاء جريدة عربية كبرى باسم «الشرق» يكون مقرها دمشق الشام. وصاحب امتيازها حضرة خليل أفندي الأيوبي الأنصاري. ومديرها المسؤول حضرة محمد تاج الدين أفندي الحسني . وقد عهد إلى أحدنا «شكيب أرسلان» برئاسة تحريرها . كما عهد بإدارة التحرير إلى أحدنا «عبد القادر المغربي». وجريدة الشرق معضد لسياسة الحكومة العثمانية، كما أنها معضدة من جهتها وسيصدر العدد الأول منها في عيد الجلوس السلطاني .

وقد اخترناك أيها الفاضل لتكون عاملاً على نشرها في بلدك «بعقلين» . فعسى أن نجد لديك من العناية والاهتمام بأمر «الشرق» وترويجه بين المشتركين، ومواصلته الأخبار الصادقة - ما نتوقعه فيك وننتظره من غيرتك وحميتك . وسنرسل إليك مقداراً من الأعداد في أول الأمر بشكل إضبارة «رزمة» مع قائمة بأسماء مشتركين من بلدك أن وقع إلينا شيء من تلك الأسماء . ولك الخيار في أن تزيد فيهم أو تنقص . حتى إذا استقر أمرهم في نفسك . وارتحت إليهم في سرك . أرسلت إلينا قائمة بأسمائهم وعناوينهم فنطبعها ونرسل إلى كل واحد منهم نسخة بالبريد على حدة . اللهم إلاّ إذا فضلت أن يبقى إرسال الأعداد إليك بشكل إضبارة ثم توزع بمعرفتك على أصحابها - فلك ذلك . وبدل الاشتراك هو كما تراه مسطراً على طرة «الشرق» وسنرسل إليكم إضبارة أخرى من أعداد الشرق لأجل بيعها وتصريفها في بلدكم، فيحسن أن تعرفونا عن القدر الذي يمكن تصريفه لديكم وسيخصص لك قدر معلوم من مجموع حاصلات بلدك لقاء تعبك عدا أجرة التلغرافات التي يدعو إليها الحال في بعض الأحيان . والمقالة التي ترسل إلى «الشرق» ويكون كاتبها قد أحسن في اختيار موضوعها وتجويد سبكها وأسلوبها تؤدي إليه إدارة «الشرق» أجرة عليها . وتقدير الأجرة عائد إليها .

وقد كتب من هنا إلى حكومتكم المحلية بشأن ملاحظة «الشرق» وترويج أمره بين الأهلين . فيحسن أن تقدموا أنفسكم إلى حاكمكم المحلي وتعرفوه بوكالتكم «للشرق» . ولا بأس باطلاعكم له على كتابنا هذا إذا رأيتم له مقتضياً . ثم نرجوكم أن تعتنوا بالأمر أتم عناية وبتقصي الأخبار من مصادرها الصحيحة أشد تقص . وأن تكونوا

من الترفع عن الصغائر والأغراض. وما لا يغني من المداخلات ـ بحيث يباهي بكم «الشرق». ويصح له أن يعتمد عليكم في المستقبل. لاسيما إذا لاحظتم أنكم تمثلونه لدى الحكومة المحلية ولدى الأهالي معاً. فاعرفوا كيف يكون هذا التمثيل. وكيف تتجنبون ما أمكنكم الفضول والتثقيل. ومثلكم ما كان ينبغي مفاتحته بهذا الكلام لولا أن إدارة «الشرق» ارتأت تعميم هذه الكتابة إلى جميع وكلائها في كل الجهات. وعسى أن تعجلوا بالجواب وبأسماء المشتركين لنكون على بينة من أمر الوكالة في بلدكم، واجعلوا مخابراتكم المتعلقة بالشرق مع مدير إدارة جريدة «الشرق» رأساً وهو حضرة علي حكمت ناهيد بك. ودمتم.

والعدد الأول من هذه الجريدة، بمناسبة عيد جلوس السلطان محمد رشاد. واحتوى على ثماني صفحات من القطع الكبير، والورق الصقيل، بطباعة أنيقة، وإخراج جيد.

وازدان العدد الأول، بصورة السلطان محمد رشاد في ملابس العرش. وجاءت الافتتاحية بقلم الأمير شكيب أرسلان، تحدث فيها عن الحرب وويلاتها ومصائبها، وعرض لحضارة الشرق وعظمتها وأمجادها، داعياً للصمود في وجه الغزو الغربي، وإلى الوحدة تحت الراية العثمانية لتحرير الشرق الإسلامي، وإلى نبذ الخلافات، والوقوف في وجه الدسائس والمكائد.

ثم أشار إلى أن هدف الجريدة هو العناية بالتراث الشرقي العربي، ونشر المقالات المسهبة في سبيل رقي البلاد السورية وتقدمها والعناية باللغة العربية وآدابها.

وسارت الجريدة عدة أسابيع بدعم وتأييد من جمال باشا السفاح، الذي كان قائد الجيش الرابع في سورية. ولكن على أثر مجزرة أيار ١٩١٦ ووضوح نوايا جمال باشا تجاه الوطنيين، انقلب عليه الأمير شكيب، فاستقال من رئاسة التحرير، لأنه كان يعتقد أن جمال باشا كان الوحيد المؤهل لبعث نهضة إسلامية عريقة عن طريق الدول العثمانية، ولكن سرعان ما خاب ظنه، فانكفأ عنه، فحقد عليه جمال باشا، وأسند رئاسة التحرير إلى محمد كرد علي، الذي ترك رئاسة تحرير «المقتبس» إلى شقيقه أحمد.

وكان هدف جمال باشا من هذا، تحقيق غايتين : أولاً : الاستفادة من بلاغة وقوة تعبير محمد كرد علي .

ثانياً : استمالة محمد كرد علي إلى صفوف دعاة خدمة العثمانيين .

ولكن ما لبث أن استقال محمد كرد علي بعد حين، حين غادر جمال باشا بلاد الشام .

ويقول جوزف إلياس مؤلف كتاب «تطور الصحافة السورية في مائة عام» . . . استمرت جريدة الشرق لفترة محدودة قوية الإخراج، ثم انحدرت فأخذت تصدر في أواخر عهدها بورق ملون . ولم يصدر منها في ثماني صفحات سوى عددها الأول . وكانت عموماً في أربع صفحات عادية . ثم أصبحت تصدر في عامها الثاني في أربع صفحات صغيرة بسبب قلة الورق . ولم تلبث أن صدرت عام ١٩١٨ في صفحتين صغيرتين وورق ملون . وكان معظم جهازها الإداري، قد تخلى عنها منذ مطلع ذلك العام، بعد أن بدأت الراية العثمانية تتقهقر . وتراجعت نهائياً مع تراجع الحكم التركي عن سورية، ولاقت حتفها في خريف عام ١٩١٨ . وأن آخر عدد من أعدادها هو العدد ٦٩٠ بتاريخ ١٢/٨/١٩١٨ .

هذه هي جريدة «الشرق» التي ابتدأت لتكون لسان حال الدولة العثمانية، والناطقة باسم الحكومة، ولكن سياسة جمال باشا تجاه رؤساء تحريرها وفرضه إرادته الفاشية، لم يعط النتائج المتوخاة من إنشائها .

وهكذا قيض لهذه الجريدة أن تموت بعد مضي سنتين تقريباً على ولادتها .

الوفد السوري في لوزان

وهذا توضيح من الأمير حول أعمال الوفد السوري في (لوزان) وكلام مسيو بارير مندوب فرنسا في المؤتمر . وقد نشرتها جريدة (الأهرام) بتاريخ ٤ يناير سنة ١٩٢٣ .

اطلعت في أحد أعداد الأهرام الأخيرة على برقيات مراسلها الخاص بلوزان التي من جملتها كلام المسيو بارير مندوب فرنسا في مؤتمر لوزان عن الوفد السوري وهو :

«إن الوفد السوري لن يقبل في المؤتمر وأن شأنه شأن سائر الوفود الشرقية التي

تحوم حول المؤتمر والتي تدخل أعمالها في دائرة الدسائس التي لا يتجاوز نفوذها أسفل الساق» انتهى بنصه الشائق.

أقول كنا نحب أن يكون ممثل الدولة الحرة التي تزعم أن مأموريتها في هذا العالم إنما هي تحرير الأمم حتى زعم أخيراً القائد الفرنساوي في حلب بخطاب ألقاه أنها هي التي حررت أميركا بطولها وعرضها (أي أنها أرسلت الجنرال لافايت لمساعدة أميركا بغضاً بعدوتها انكلترا وتوهيناً لشوكتها لا غير) أقول كنا نحب أن يكون ممثل تلك الدولة أرصن وأدهى من أن يظلم ويفتخر بالظلم وأن يكون ممن إذا فاته العدل والإنصاف لم تفته الحكمة والكياسة ولا يعلن كون أعمال السوريين وسائر الوفود الشرقية الحائمة حول مؤتمر لوزان «إنما هي دسائس لا تتجاوز أسفل الساق».

أولاً ـ إن أعمالنا في لوزان وغير لوزان لم تكن دسائس لأن الدسائس هي ما يدسه الإنسان خفية ويمشي فيه ضراء متوارياً عن خصمه ونحن نعمل ما نعمله علناً ونقول ما نقوله للملأ بدون مخاتلة ولا مواربة ولا خشية ولا رهبة من حضرة المندوب الفرنساوي حتى ولا من دولته فرنسا مع اعترافنا بجلالة قدرها لأن الحق هو لنا ومن كان الحق في جهته لا يرهب قوة مهما كانت عظيمة.

ثانياً ـ إن أعمالنا يتجاوز تأثيرها أبعد من أسفل الساق بل من أعلى العنق وتفعل في نفس خطة فرنسا في سورية وتقلب من الرأي العام الأوروبي ويضطرب لها المسيو باريز ومن هم أهم منه من قومه وسيزدادون بحول الحق اضطراباً في يوم غير بعيد يقبح فيه الشعب الفرنساوي خطة رجاله بإزاء القضية العربية كما قبح الشعب الإنكليزي خطة لويد جورج بإزاء القضية التركية وخسفوا به من أجلها.

ثالثاً ـ ليس من العار علينا أن نطالب باستقلال بلادنا وجلاء الأجنبي الغاصب عنها وأن يصم المؤتمر بالواقع تحت نفوذ «الدول الاستعمارية» إذنه عن سماع ندائنا الحق وإجابة طلبنا العدل كما أصمها عن نداء الترك مدة أربع سنوات وأبى قبولهم في حظيرة الأمم ثم عاد الآن يرجوهم أن يشرفوا جمعية الأمم بقبول كرسي فيها. . ولكن العار كل العار على الذين بكبرهم وجبروتهم واستبدادهم بحرية الناس وإبائهم الإذعان للحق يستعملون نفوذهم على رفاقهم في المؤتمر حتى لا يقبلونا ويهددون بالشقاق والخلاف والمشاكسة والمعاكسة وينذرون بفصم عرى المؤتمر إن كانت الدول تريد أن تقبلنا فيه لبسط قضية تعلم أحقيتها الأكوان وإثبات أمور يشهد بصحتها.

الثقلان والتعبير عن شعور أمة بأسرها لا يند منها سوى بعض موالسين مدلسين لا يخلو من أمثالهم من الدمامل جسم أمة من الأمم . . وأعظم من ذلك عاراً وأفظع شناراً وأجدر بأن يوسعه العالم إنكاراً وإكباراً آن أولئك القوم الذين يتباهون بكونهم بقوتهم ونفوذهم يخنقون صوت الحرية يتجاسرون في الوقت نفسه على القول بأنهم هم الذين حرَّروا الأمم وفكّوا قيودها ووضعوا أغلالها عن أعناقها .

رابعاً ـ إن لغو المندوب الفرنساوي هذا لا يتناول الوفد السوري ولا الفلسطيني المنضم إليه فقط بل يشمل الوفد المصري الذي يمثل أقدم مملكة متمدنة وأمة الأمة المصرية هي من أفضل الأمم وأحقهن بالرعاية والكرامة فما ادعى هذا القول إلى الأسف لاسيما أن كثيرين من أبناء هذه الأمة يعتقدون عضد فرنسا لقضيتهم واستعدادها للأخذ بأيديهم (لو كان في قيد الحياة تنفثا) ولهذا جرى في حفلة الشاب التي أقامها الوطني الهمام الفصيح علي بك فهمي كامل كثير من التغني بمديح فرنسا معها هي جارية عليه في سورية شقيقة مصر بمرأى ومسمع من المصريين . فكما أن أهل سورية لا ينبغي لهم أن يترنموا بمدائح الدولة المحتلة مصر كما كان يفعل بعضهم ويا للأسف كذلك لا ينبغي لبعض إخواننا المصريين أن يترنموا بنشيد الإنشاد عند ذكر الدولة المحتلة سورية فالذي يظلم أخاك لا يمكن أن ينصفك أنت لاسيما إذا كان هذا الظالم لك متواطئاً مع الظالم لأخيك متعاهداً متواثقاً وإياه مراراً عليك وعلى أخيك . وما وصلنا نحن الشرقيين إلى الوهدة التي نغور الآن بها إلاَّ من فقدنا روح التضامن والتكافل وانكباب كل فريق إلى شغله الخاص غير مهتم بجاره بل ظاناً أن في ذلك الانفراد وتلك الإنانية منتهى الحكمة والسياسة . . .

وبهذه المناسبة أقول إنني في حفلة الشاي المذكورة لم ألق خطاباً عن الشرق كما جاء في الأهرام من لوزان بل كل ما قلته يومئذٍ هو هذه الكلمات أعيدها بعينها :

«إخواننا المصريين : لا أريد أن أتكلم بالسياسة في هذه الحفلة ولاسيما أنكم أنتم قمتم بالكلام عن جميعنا . كيف لا وأنتم في مقدمة الشرقيين ولسان حالهم . وإنما أكتفي من الخطب بهاتين الجملتين : فلتحي مصر مستقلة . فلتحيَ سورية وفلسطين مستقلتين . هذا بنصب مستقلة على الحالية من مصر ومستقلتين . على الحالية من سورية وفلسطين معاً .

لوزان في ٢٧ ديسمبر . الأهرام ٤ يناير سنة ١٩٢٣ . شكيب أرسلان

التاريخ لا يكون
بالافتراض ولا بالتحكم

وهذا مقال للأمير شكيب حول تشويه الغرب للشرق بأسلحته الخاصة في الحرب والسياسة والدعاية الدينية، وتشويه الفضائل التي يتمتع بها العرب، وقطع الصلة بالآباء والأجداد الذين تركوا لنا إرثاً طيباً وتاريخاً حافلاً بالمكارم والأمجاد.

ويأبى بعض المرتزقة من العرب، إلاَّ أن يكونوا أبواقاً للغرب فاتحين قلوبهم لنوع آخر من أنواع الاحتلال الأجنبي قد يكون شرّاً من احتلال البلاد بالحديد والنار.

ولكن هؤلاء، بدلاً من أن يكونوا عدَّة الشرق في تجهيزه بقوة الغرب المادية ولينقذوه من كبوته وضعفه نراهم متهافتين هدَّامين.

مقال صارخ لأديب العرب الأكبرالعلاَّمة المجاهد الأمير شكيب أرسلان، نشرته جريدة (كوكب الشرق) في مصر، ونقلته مجلة الزهراء في عددها، شعبان، جزء ٨ سنة ١٣٤٤ هـ ١٩٢٥.

لا أريد أن أناقش أحداً، ولا أن أسمي أشخاصاً، ولا أن أحمل على باحث أديب بتجهيل. وإنما ألح من خلال الكتابات التي يجود بها بعض أدباء الوقت منزعاً، إن كان في حد ذاته محموداً فقد ينقلب في إساءة استعماله مذموماً ويصير ضلالاً.

ولع بعض الأدباء باتهام التاريخ الإسلامي الذي لدينا، وسلوك طريقة في التعليل لم يسلكها الأولون؛ ارتياداً لوجوه جديدة، وأسبابٍ للحوادث لم تكن معروفة، بحيث يقال: إنهم كشفوا حقائق تاريخية لم يعرفها غيرهم، أو عرفوا أسراراً أعماها التاريخ الديني أو عمستها السياسة وأهواؤها عن الجمهور، ويسمون ذلك تمحيصاً وتحقيقاً، ويظنون أن التحميص والتحقيق هما بمجرد المخالفة والخروج عما عليه الرأي العام. والحقيقة أنه إن كان مقصدهم مجرد المخالفة وتغيير الأسلوب لعدم الصبر على طعام واحد فقد أصابوا الغرض. ولكن إن كانوا يزعمون أن هذه التعليلات الغريبة هي الأصل في تلك الوقائع فليسمحوا لنا أن نستعفيهم من التصديق. لأننا نعرف التاريخ بالأدلة العقلية والنقلية وملاحظة ما سبق وما لحق واستنباط النتائج من المقدمات، ولا نعرفه تخرُّصاتٍ وافتراضاتٍ وأبنيةً على غير أساس. فإن كان

هذا هو التمحيص التاريخي الـذي يتوخى بعض العصريين أن يقلّد به الإفرنج فلا كان هذا التمحيص الذي هو عبارة عن قلب الحقائق لأجل الاتيان ببدع، ويجلُّ علماءُ الإفرنج عن أن يكون تمحيصهم من هذا النمط. وقد خلط منهم من خلط في معرض التمحيص، ولكن نبه المدققون منهم على كونهم خلطوا.

فعندما يقوم واحد فيذهب إلى أن تاريخ حرب اليمامة محاط بالغموض، وأن مقاتلة أبي بكر لأهل الردَّة لم تكن من أجل إقامة الدين بل من أجل تأسيس الملك، وما أشبه ذلك من التوجيهات التي لم يقم عليها أدنى دليل؛ نعلم أنه حاول أن ينهج مناهج الممحّصين فظن التمحيص بمجرد الخروج عن الإجماع ولو كان الإجماع صحيحاً، فلم يصب المرمى.

وعندما يقوم آخر فيدَّعي أن السلف في صدر الإسلام وضعوا «سانسوراً» على الشعر الجاهلي المُشْرَبِ مبادىءَ الوثنية أو النصرانية أو اليهودية نعلم أن هذه الدعوى مبنية على الافتراض والتخيل، وأنها لا تستند على دليل، بل الواقع يناقضها من كل الجهات.

أعجبتني جداً عبارة الذي ردَّ على هذه الفئة فقال لهم «مَنْ مِنْ ملوك المسلمين وحكامهم أمر بوأد الشعر الوثني واليهودي والنصراني ومحوه؟ ومَن مِن أعوان هؤلاء الحكام الذي تولى ذلك؟ وكيف كانت طريقة المحو؟ وهل كتب لها النجاح في كل بلاد الإسلام؟ إلخ».

والحقيقة أنه ليس لهم من جواب على هذا السؤال، ولا حيلة لهم في التخلص منه، إلاَّ بإيراد أدلة واهية لا تدفع شيئاً من حقيقة حرية الرواية في ذلك العصر ومن كون بابها بقي مفتوحاً على مصراعيه. ولا تنفي أن عصر الصحابة لم يعرف «السانسور»، ولا مراقبة الرواية، ولا كمَّ الأفواه، ولا شيئاً من أوضاع «ديوان التفتيش».

وإذا تأملت في كلام هذه الفرقة رأيتهم يشيرون من طرف خفي إلى نزول درجة الحضارة التي كان عليها الصحابة، وأن شرائعهم وقوانينهم إنما كانت شرائع قوم في طفولية المدنية، وأنها «لا تمس الحياة» إلاَّ قليلاً، وما أشبه ذلك. ثم ينسون أن مراقبة الكتابات والروايات إن هي إلاَّ من أوضاع

الهيئات الاجتماعية المتمدنية التي استبحر فيها العمران وتأثَّلَ الملك، وأن (السانسور) لا يتأتى مع بداوة المجتمع، ولا يعقل وجوده في أيام السذاجة كالتي عاش فيها النبي (ﷺ) والصحابة.

فمراقبة الكتب والخطب كانت تقع في رومية والقسطنطينية لعهد عظمة القياصرة، وفي أيام سلطة الباباوات، وفي عهد ملوك فاتحين كلويس الرابع عشر وقد بالغ فيها نابليون الأول ثم نابليون الثالث. وقد وقعت من أيام العرب في عهد العباسيين وغيرهم من ملوك الأعاجم، أو الملوك العرب الذين اتخذوا أطوار الأعاجم. فأما القول بأنها كانت في عهد الخلفاء الراشدين وفي أيام الصحابة فمحض تحكم ومكابرة.

نعم كان هؤلاء الناس شديدي التحمس بالدين الجديد الذي جاءهم به محمد ﷺ ولكن حماستهم هذه لم تقلع ما في قلوبهم من حب الحرية التي نشأوا عليها في الجاهلية والتي لا يوجد في الشرق ولا في الغرب أمة بلغت شأو العرب فيها. ومن قال «إن العرب أعرق الأمم في الحرية» فغير مبالغ. لهذا تجدهم رووا بألسنتهم وكتبوا بأقلامهم جميع مطاعن المشركين في النبي (ﷺ) وصحبه ولم يخفوا منها قليلاً ولا كثيراً، ونقلوا الشبه والاعتراضات التي كانت تقع على الرسوال ورهطه، وذكروا كثيراً مما كان يَنْفَه به بعض العرب على رسول الله ﷺ، وكيف أن اثنين تخاصما إليه فحكم لأحدهما فقال المحكوم عليه: هذا حكم لم يرد به وجه الله. فقال عليه الصلاة والسلام: «أوذي موسى من قبلي بأكثر من هذا». وغير ذلك مما هو مستفيض في كتب السير النبوية وأخبار صدر الإسلام ومما رواه الرواة المسلمون وحرره الكتبة المسلمون وأقره العلماء المسلمون، ولم يكن عندهم حرج في نقل تلك الأحاديث وإيرادها كما جاءت، لأنهم كانوا على بينة من دينهم الذي دانوا به، وكانت قلوبهم مطمئنة بالإيمان، وكانت سيرة النبي (ﷺ) معلومة عندهم بدقائقها فلم يكونوا يحتاجون فيها إلى «السانسور» دَرْءاً للشبهات عنها وخوفاً من أن يفضي تداول هذه الروايات إلى زعزعة عقيدة الإسلام التي لم تكن منذ جاء بها صاحبها (ﷺ) إلى اليوم على شفا جرف هار. بل الإسلام مولودٌ رُزق الصحة ووثاقة التركيب منذ ولادته.

نعم، في هاتيك الأيام وما يليها كانوا يروون أهاجي بعض الشعراء للصحابة والأنصار و«لبني النجار»، وفي تلك الأيام كان يعاتب الرسول ويقال له:

ما كان ضرّك لو عفوتَ، فربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظُ المحنقُ

في أيام السلف كان ينادي الأخطل:

ولستُ بصائم رمضانَ عمري ... ولست بآكل لحم الأضاحي
ولستُ بقائل ما عشت يوماً ... قُبيل الصبح «حيَّ على الفلاح»

كان يقول هذا ويدخل على الخلفاء ويجيزونه الجوائز السنية، وكان هو وغيره من النصارى واليهود يفتخرون بدينهم ويعلنونه في أشعارهم التي كان يرويها المسلمون ويقيدونها في دفاترهم. ولما جاء الملكَ النعمانَ بن المنذر رجلٌ نصراني في اليوم الذي كان عنده يوم بؤس وأمر النعمان بقتله استماحه النصراني مهلة أن يذهب ويودّع أهله فأذن له على أن يقدم كفيلاً يحلّ محله في القتل إذا هو لم يرجع فرجع وتعجب النعمان من وفائه فسأله: ما حملك على هذا الوفاء؟ فأجابه النصراني: حملني ديني. فقال له النعمان: وما دينك؟ قال له: النصرانية. وتنصر النعمان بعد هذه. فكانت هذه الرواية مما حرَّره المسلمون، ولم يغمطوا النصرانية حقها، ولا غمطوا اليهودية أيضاً حقها. وأجمع العرب المسلمون على نقل مآثر السموأل مَضرباً للأمثال في علو النفس وكرم السجية إلى يومنا هذا حتى قال شوقي ـ شاعر العصر ـ منذ أيام قلائل:

كأنَّ من السموأل فيه شيئاً ... فكل جهاته كرَمٌ وخُلْقُ

فكيف يكون المسلمون الأوائل حاولوا خنق كل صوت غير صوتهم ومحُوا آثار النصرانية واليهودية والوثنية من شعر العرب؟

ثم إن شعر شعراء النصرانية من الجاهلية يملأ الدواوين، وما منهم إلاّ من حرص علماء الإسلام على التنبيه أنه كان نصرانياً. وقد نقلوا خطب قس بن ساعدة الذي كان مطراناً، ونقلوا ثناء النبي (ﷺ) عليه.

وأما كون ديوان شعراء النصرانية المطبوع في بيروت موضوعاً وأن الشعراء المروية أشعارهم فيه لم يكونوا نصارى بل جعلهم صاحب الديوان نصارى وهم جاهليون لا غير فمن يقول هذا؟ ومن يصل به المراء إلى إنكار أن أكثر أولئك الشعراء كانوا نصارى؟ غاية ما يقال إن بعض أولئك الشعراء لم تثبت نصرانيتهم. وهذا لا ينفي أن شعراء كثيرين مثل العبادي والأخطل والقطامي كانوا نصارى مجمعاً على نصرانيتهم، وأن المسلمين نقلوا أشعارهم كما هي ولم يحذفوا منها شيئاً. وكان شعراء المسلمين يناقشونهم ويداعبونهم، وكان جرير يقول:

قال الأخيطلِ إنْ رأى راياتِهمْ ... يامارَ سَرْجُسَ لا نريدُ قتالاً

فالقولَ بأن النبي (ﷺ) وأصحابه لم يبقوا على أي نزعة تخالف دينَ الإسلام وأنهم طووا شعر النصارى واليهود والمشركين محضُ تحكم لم يقم عليه أدنى دليل بل قام الدليلُ على حرية الإسلام وتساهله في الدين.

ونقلَ رُواة المسلمين ليس شعر النصارى واليهود والمشركين فقط بل أهاجي كثيرة قالها هؤلاء في النبي وأصحابه وأنصاره.

يا إخواننا إنه في صدر الإسلام كانوا يتناقلون مثل قوله:

لعبت هاشم بالدين وما ... نبأ جاء ولا وحي نزل

ليت أشياخي ببدر علموا ... قلق الخزرج من وقع الأسل

روى هذا المسلمون ومازالوا يروونه. وفي زمان بني أمية كان العهد بسذاجة الجاهلية قريباً فكانت الحرية في القول تامة والألسنة منطلقة. ومما عزى إلى يزيد يوم جيء برأس الحسين رضي الله عنه:

مذ أقبلت تلك الرؤوسُ وأشرقت ... تلك الشموس على ربى جيرون

صاح الغراب فقلت صِحْ أو لا تَصِحْ ... أني قضيتُ من النبيّ ديوني

ثم عُزي[1] إلى الوليد أنه قال وقد سكر ومزق القرآن:

---

(١) عبر الأمير في نقل مثل هذه الأشعار بقوله «عُزي» ليشير بذلك إلى أنها لم تتحقق نسبتها إلى من نسبت إليهم، وقد نبَّه إلى ذلك العلاّمة الشيخ شبلي النعماني رحمه الله في انتقاده كتب زيدان.
وهذا أبلغ في بيان سماحة المسلمين وحريتهم إذ أبقوا على مثل هذه الأقوال مع ضعف أنسابها.

إذا ما جئت ربك يوم حشر   فقل يا رب مزقني الوليد

نعم رويت هذه الأشعار وأمثالها مع لعن قائليها، ولكنها رويت وقيدت في التواريخ، ولم تمنع روايتها؛ ولا كان هناك قلم مراقبة ولا ديوان تفتيش، ولا كتب جائزة، ولا كتب ممنوعة.

وأما عدم حرمة النبي والصحابة للشعر وقولهم أن روايته ضلال فهذا زعم باطل مخالف للإجماع، فقد روى النبي ﷺ الشعر واستحسنه وقال «إن من الشعر لحكمة». ورواه عمر وعلي وسائر الصحابة وتناشدوه وطربوا له وكان فكاهة مجالسهم. وقصة كعب بن زهير مع رسول الله وإنشاده إياه؟ «بانت سعاد» واهتزاز النبي لهذه القصيدة وإنعامه على كعب ببردته الشريفة كل ذلك لا يحتاج إلى بيان. ولكن الشعر كسائر الأشياء إذا أسيء استعماله انقلب إلى الضرر. وإذا كان وقع من عمر رضي الله عنه ـ وهو من أبصر الناس بنقد الشعر وأشدهم اهتزازاً لجيده ـ تضييق على الشعراء فيكون في المواطن التي أسيء فيها استعمال الشعر وصار باباً للمشاحنات والفتن، وكما أن للخليفة طبيعة ينفش بها إلى الأدب ويعجب بسحر البيان فإن عليه واجباً هو حماية الأعراض وحفظ السلام.

وأما أزراء الشعر بالعلماء وما قاله بعض هؤلاء في الأعراض عنه والتعوذ منه فهو من باب التورّع عند بعض الفقهاء، وذلك لأنهم كانوا يرون فيه مبالغة وغلواً وعبثاً، فاشفقوا من أن يؤثر الاعتماد عليه في أخلاق الناشئة ويصرفهم عن العبادة. ولكن هذا الزهد في الشعر لم يحملهم ولا حدا الخلفاء والسلاطين على منع قرض الشعر وروايته والتأدب به. وذلك كما أن نصرانية الأخطل والقطامي وأمثالهما لم تمنع متأدبي الإسلام من رواية أشعارهم وحفظها والتأدب بها. وأن وثنية أكثر شعراء الجاهلية لم تحل دون انطباع طلاب الفصاحة من المسلمين بأساليبهم ونسجهم على منوالهم. ومَنْ مِنَ العلماء والمؤرخين المحققين يقدر أن يقول إن أدباء العرب بعد الإسلام رغبوا عن شعر الجاهلية وأهملوا روايته من أجل أن قائليه كانوا مشركين؟ أو أن المسلمين طووا كلام قس بن ساعدة لأنه كان نصرانياً؟ أو لم يعجبوا بقصيدة «إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه» لأن صاحبها كان يهودياً؟ مَن يا رب

يقول هذا إلاّ الذين يبنون التاريخ على الأهواء والخيالات؟.

وقع التشدد في مثل هذه الأمور في أيام الدولة العباسية، لبعد العهد بسذاجة الدور الأول، وميل هذه الدولة إلى مناحي الأعاجم، ونشوء الفلسفة اليونانية والفارسية والهندية في دار السلام، مما أخاف الخلفاء ووزراءهم على العقيدة الدينية وحفزهم على الاحتياط لعدم انحلالها. وهذا أشبه بما كان في أوروبة في القرون الوسطى، لا بل في القرون الأخيرة، لا بل بما لاتزال بقاياه إلى هذه الآونة. وبرغم ما كان من هذا الاحتياط في أيام العباسيين ومَن في أعصرهم من ملوك الإسلام فقد كان الناس يروون أهاجيهم ومثالبهم، ويتناشدون المطاعن الفاحشة في أعراضهم حتى في مجالس أقربْ الناس إليهم. وقد قال المأمون للقاضي يحيى ابن أكثم: من ذا الذي يقول:

قاضٍ يرى الحد في الزناء ولا يرى على من يلوط من باس؟

يشير إلى أن هذا البيت قيل فيه. فأجابه هو الذي يا أمير المؤمنين يقول:

لا أرى الجورَ ينقضي وعلى الأمة والٍ من آل عباسِ

وقد شاعت أقاويل التعطيل والإلحاد في هاتيك الأيام برغم الضغط والمراقبة:

ودونت أقول الملحدين والدهريين.

ورويت أشعار المعري ومن في سبيله حتى فيما يخالف الدين الإسلامي مثل قوله:

وقومٍ أتوا من أقاصي البلادِ لرمي الجمارِ ولثمِ الحَجَرِ

وكثير غير هذا من أقواله. ورسالة الغفران وصلت إلينا ولولا أنها تُدُوْيلت بالنسخ من قِراب ألف سنة ما وصلت إلينا. ولو كان هناك «سانسور» ما أبقى عل رسالة الغفران.

وتجادل نصراني في الدين مع أحد بني العباس ونال النصرانيُّ من العقيدة الإسلامية. وبلغ المأمونَ ذلك فقال ما معناه: ما كان أغنى ابن عمنا عن تعويض دينه للطعن.

والكتاب الذي كتبه أبو بكر الخوارزمي لشيعة نيسابور أشهر من «قفا نبكِ» وليس بكتاب خاص أو رسالة مكتومة بل هو خطاب لأهل بلدة كانت من أشهر البلاد. وفيه من السب لمعاوية ما فيه ومن النعوت لخلفاء بني أمية وبني العباس والخوض في أعراضهم ما لا يرد في أقذع الجرائد. وهو الذي يقول عن الرشيد «هرون بن الخيزران»، وعن المتوكل «المتوكل على الشيطان لا على الرحمن» وهلمَّ جرّاً. وكان أبو بكر الخوارزمي في زمن بني العباس، وكان إذا قال آثر الناس قوله وتدارسوه.

ولا أنفي ـ مع ذلك ـ أن الدول الإسلامية في القرون التالية كانت تحجر أحياناً على الفلسفة التي يراد منها التعطيل أو الإلحاد ويسمون ذلك الزندقة، فإما إزالة شعر النصارى أو اليهود أو المشركين ومنع روايته فشيء لم يقع لا في زمن الصحابة ولا في أيام بني أمية ولا أيام بني العباس. وقد ألَّف النصارى في تعظيم دينهم في زمان بني العباس كتباً كثيرة وتواريخ أيّدوا بها مذهبهم وما اعترضهم أحد ولا منعت الدولة كتبهم.

وإن كان النبي (ﷺ) أمر بأن لا يجتمع في جزيرة العرب دينان، وأجلى عمرُ النصارى واليهود عنها، فلم يكن ذلك لينقص شيئاً من حرية النصارى واليهود في دينهم في سائر بلاد الإسلام، بل من حرية الصابئة والمجوس. وما قال مؤرخ غربي ولا شرقي أن الإسلام أكره أحداً في الدين، أو منع كتب الملل الأخرى.

فيا إخواننا إن التاريخ لا يكون بالظن، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً. وهذا نتف من كثير، ووشل من بحر، ولو كانت بيدنا الآن كتب لاحلناكم على شواهد لا تنتهي. فإن كنتم مع هذا تصرون على المخالفة لأجل المخالفة فليس هذا مما يزيد الثقة بعلمكم بل هو مما ينقصها، وبدلاً من أن يضع العلم على قواعد اليقين يضعه على قواعد أوهى من بيت العنكبوت. . .

رومة في ٨ مارس

شكيب أرسلان

حاجة مصر إلى سياسة وطنية

قرأ الأمير موضوعاً في جريدة «الأهرام» بعنوان «حاجة مصر إلى سياسة وطنية بحتة» فبعث بكتاب تعليق نشرته الجريدة بتاريخ ١٤ يناير سنة ١٩٢٥ :

قرأت في «الأهرام» في عددها المؤرخ ١٨ ديسمبر المنصرم تحت عنوان «حاجة مصر إلى سياسة وطنية بحتة» فصلاً وردت فيه هذه الجملة .

«إن بين فرنسا وتونس وبين فرنسا والمغرب معاهدات صريحة قبلت بها ووقعتها حكومات تلك البلاد وأن بين تركيا وإيطاليا معاهدة تنازلت بها تركيا عن طرابلس للطليان» .

لا أريد أن أخوض الآن في حديث معاهدة فرنسا مع باي تونس المعروفة بمعاهدة الباردو ولا معاهدة فرنسا مع عبد الحفيظ سلطان الغرب وكيف تم التوقيع على هاتين المعاهدتين . . . وإنما أحصر كلامي في المعاهدة التركية الإيطالية بشأن طرابلس . فأقول :

إن تركيا لم تتنزل عن طرابلس لإيطاليا أصلاً بموجب هذه المعاهدة التي اضطرت تركيا إلى عقدها على أثر إعلان دول البلقان الحرب عليها سنة ١٩١٢ وقد حاولت إيطاليا كثيراً بجميع الوسائل أن تقنع تركيا بهذا التخلي الصريح لإيطاليا فلم تفز من هذه الجهة بطائل وكان كل ما رضيت به تركيا أن تترك حقوقها على طرابلس وتذر الأهالي وشأنهم يختارون لأنفسهم ما يشاؤون. وبديهي أنه بين نزول تركيا عن طرابلس لإيطاليا ونزولها عن طرابلس لأهل طرابلس فرق عظيم لا يحتاج إلى كلام .

نعم تمكنت إيطاليا بسبب نازلة البلقان التي فتت في ساعد تركيا أن تأخذ من هذه كلمتي نصح عن لسان المرحوم السلطان محمد رشاد إلى أهالي طرابلس بالوئام مع الطليان .

ومعلوم أن هذا النصح نفسه الذي نالته إيطاليا تحت ضغط حوادث كل أحد يعلمها لا يفيد التمليك ولا التخلي عن البلاد لإيطاليا . وبهذا يتمسك السادة السنوسية وأهالي طرابلس قائلين دائماً أن الدولة العليّة قد تركت لنا الخيار في مصيرنا فنحن اخترنا الاستقلال وأثبتناه لأنفسنا بالفعل بجهاد ١٤ سنة لا يزال مستمراً على أنه لو قدر

أن السلطان ـ وهو غير الواقع ـ نزل على أرضنا لدولة أجنبية بدون رضانا، فلا تملك هذا الحق لا بصفة السلطنة ولا بصفة الخلافة فالحكم الشرعي في هذه المسألة معروف والقانون الدولي معروف .

برلين ٣ يناير

شكيب أرسلان

قضية الحجاز وفضُّ الخلافات هناك

وهذا موضوع سياسي آخر يتطرق إليه الأمير شكيب في رسائله . وهو مسألة الحجاز والنزاع عليه . وقد قدّم الأمير بعض الاقتراحات لحلّ هذه المشكلة ، في معرض ردّه على موضوع كتبه أحد الفضلاء . ونشرته جريدة «الأهرام» في ٢٧ حزيران سنة ١٩٢٥ :

كتب إلي واحد من أقرب الناس إلي يفضي إلي بموجدته مما رأى في مقالاتي الأخيرة من دلائل الميل على الملك حسين وأولاده بعد أن نهجت في أول الأمر منهجاً بقوله سوريا. فأجبته أنني من الأول إلى الآخر ما نظرت في هذه المسألة إلاّ إلى المصلحة العربية والمصلحة الإسلامية التي هي في اعتقادي مندمجة فيها وما رميت إلاّ إلى غرض سدّ هذا البثق بأقرب ما يمكن قبل أن تمتد إليه أيدي الفساد وقبل أن تنبث في جوانبه سموم الأفاعي .

ولم أزل إلى هذه الساعة مقترحاً على ابن مسعود وعلى ممثلي المسلمين ممن سيحضرون مؤتمر مكة للتعجيل في حل المسألة على أحد الوجوه الآتية :

أحدها ـ الصلح مع الملك علي وإبقاؤه ملكاً على الحجاز على الشروط التي يرتضيها المؤتمر الإسلامي الذي سينعقد بمكة، وليس الملك علي بمن يجب أن يناصب العداوة لمجرد كونه نجل الملك حسين وقد يرجى منه حسن السياسة وإخلاص النصح للعرب والود لجيرانه وربما صحت الأجسام بالعلل .

الثاني ـ استدعاء الأمير علي حيدر من الأستانة وتسليمه مقاليد الحجاز على الشروط التي يقررها المؤتمر أيضاً . وليس في ذلك أدنى اعتداء على حق أحد لأن هذه الإمارة كانت في بيت آل زيد ولا عجب أن تعود إلى آل زيد فضلاً عن كون الأمير علي حيدر من أليق بالناس بإمارة مكة بل بما هو أعلى منها . ويكفي أولاد الملك حسين أن

يبقى منهم ملك في العراق وأمير في الشرق العربي وليس لهم أن يجعلوا عروش العرب حكرة ولا أن يحلأوا كل من ليس منهم وإليهم عن مناهل الإمارة.

الثالث - تقليد الأمير علي باشا أمير الحجاز السابق هذه المملكة على شروط المؤتمر وبذلك تكون الإمارة وإن تكن خرجت من بيت الحسين فقد بقيت في آل عون فلا يخفى أن الأمير علياً هو ابن عم الملك حسين لحًا وهو من اللائقين بهذا الكرسي وممن استوى عليه من قبل وكل من هذه الوجوه الثلاثة أولى من تمطّي هذه الفتنة بصلبها وبقاء الحج مقطوعاً وترك الناس يتحدثون بما يسيل من الدماء حول البيت الحرام. فإن الذي ينبغي أن يكون رائداً لسياستنا وشيدة لمساعينا في هذه المسألة هو البت فيها على الوجه الذي تحقن به الدماء وتسكن الدهماء ويعود الأمن إلى نصابه ولا يبقى معه سبيل إلى التضريب والإغراء وانتهاز الفرصة لانتقاص الأطراف كما هو جار الآن ولكن الذي يضر بالحسين وأولاده ويفض من حولهم قلوب الأكثرين بحيث يتعذر ردُّ شواردها إليهم هو ما يأتي:

١ - الدكتور ناجي الأصيل لم يزل في لندن يعرض باسمهم على الحكومة البريطانية تصديق المعاهدة التي كان الحسين تلكأ عن إمضائها بدون تعديل. والمعنى أنهم أصبحوا اليوم حاضرين للاعتراف بالانتدابات وبالحالة الحاضرة بفلسطين وراضخين للإنكليز بكثير من حقوق العرب بشرط أن الإنكليز يكفونهم شر ابن مسعود.

٢ - الدكتور ناجي الأصيل عرض باسمهم قبول الحجاز عضواً بجمعية الأمم ومن المعلوم أن الملك حسيناً كان أرسل منذ عامين إلى جنيف الجنرال الأمير حبيب لطف الله سفير دولة البيت الحرام في رومة لأجل تبوء مقعد الحجاز في جمعية الأمم فاشترطوا عليه يومئذٍ أن يعترف بالانتدابات المضروبة على أرقى أجزاء البلاد العربية فراجع سيده فلم يأذن له بالدخول على هذا الشرط وعاد الجنرال بدون شيء. فإذا كان ناجي الأصيل يعرض اليوم بلندن استئناف دخول الحجاز في جمعية الأمم فذلك منبهة على كون الملك علي متهيئاً لقبول جميع الانتدابات التي هي شرط الدخول... هذا عدا كون إدخال الحجاز في عصبة الأمم هو في الحقيقة تسليطاً لنحو خمسين دولة غير مسلمة على البلاد المقدسة الإسلامية. وإذا كانت بريطانيا العظمى أبت أن تودع إلى جمعية الأمم حراسة ممر السويس تفادياً منْ إشراك غيرها من الدول بأمرها فأجدر

بالمسلمين الذين هم أضعف من بريطانيا العظمى أن يتحاشوا إشراك ٥٠ دولة أجنبية عنهم في إدارة الحرمين الشريفين. . . وإذا كان الملك حسين وأولاده فرضاً وتقديراً يجدون كل الرضائخ جائزة لأجل أن تصدَّ لهم انكلترا ابن مسعود عن الحجاز فليعذروا الناس في عدم مرافقتهم إلى ذلك الحد. فإن الممالك فوق الملوك وأن الأشياء فوق الأشخاص وأنه يهون علينا سقوط أي ملك بالحجاز بجميع أسرته أكثر من خسارة قرية مثل معان مثلاً من أراضي الحجاز المقدسة.

٣ ـ معلوم أن الرأي الأحزم هو مراعاة الحق وتوفير ملك الحجاز لأهل الحجاز فجملة «الحجاز للحجازيين» هي جملة حق بشرط أن لا يراد بها باطل. إذ لا يخفى أنه وجد في الحجاز مدينتان اسمهما مكة والمدينة وأن هاتين المدينتين وأن كانتا في أرض الحجاز فليستا ملكاً لأهل الحجاز وحدهم ولا يقدر أهل الحجاز أن يذودوا عنهما سائر المسلمين. فنغمة حزب الملك حسين بالشام والعراق التي معناها: ما للمصري والهندي والتركي والجاوي والأفغاني إلخ في إدارة الحجاز إن كان المقصود بها مملكة الحجاز من حيث هي فهي حق لا نزاع فيه. ولسنا نرى للفاتح النجدي نفسه حق منازعة أهل الحجاز على ملكهم. وأما إذا كان المقصود بها شاملاً الحرمين الشريفين فلا نفهم كيف يجرأ هؤلاء الناس على هذا القول؟ لأنه يفيد كون أهل الحجاز هم وحدهم أصحاب الحرمين الشريفين ويكون لهم بعد ذلك الحق بمنع أي كان من غشيانهما ومن ثم يتحتم عليهم وحدهم أيضاً واجب حراستهما وحمايتهما لأن بإزاء كل حق واجباً كما لا يخفى. فهذه الدعوى التي هي عبارة عن حمية جاهلية لا أكثر ولا أقل لا يقبلها عقل ولا شرع ولا مصلحة عربية ولا مصلحة إسلامية ولا معاش ولا معاد. لأن الحجازيين عقلاً لا يمكنهم أن يدعوا الاستئثار بمدينتن يغشاهما ويسكنهما الملايين من سائر الشعوب منذ مئات من السنين ولا يقدرون أن يمنعوا عنهما حاجا ولا زائراً ماداموا مسلمين. ثم أنهم لا يتيسر لهم وهم أهل هذا الوادي الذي ليست بذي ذرع أن يعيشوا بدون هؤلاء الحجاج والزائرين الذين مجيئهم إلى الحجاز هو في الحقيقة قوام حياة أهله كما أنهم مهما بالغنا في وصف قوتهم ومنعتهم فلا نقدر أن نقول إنهم قادرون على صيانة الحرمين الشريفين بدون عضد سائر مسلمي الدنيا ووضعهم معهم في هذا الميزان. وبديهي أن ٣٥٠ مليوناً هم أقدر على صيانة هذين المكانين المقدسين من مليون ونصف آدمي تعوزهم أكثر الوسائل المادية والمعنوية. وكنا نودّ لو كانوا

وحدهم كفؤاً لهذه الحملة ولكن قد أثبتت الحوادث الأخيرة مع الأسف أن ١٥ ألف نجدي ليسوا من الجند المنظم استولوا على مكة وأزالوا تلك الدولة وهاتيك الصولة وألجأوا ذلك الشيخ المسكين إلى الفرار إلى حيث قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت ونرى هذه القوة النجدية التي هي في حد ذاتها ضئيلة تهاجم جدة ولربما تجهض الملك علياً بن الحسن عنها. فبعد هذا يصح لنا أن نقول إن الحرمين الشريفين اللذين هما بيت الله الحرام ومرقد رسوله عليه السلام هما في ذمة أهل الحجاز وحدهم لا يشاركهم فيهما مشارك ولا ينازعهم منازع ويقوم أناس ممن يدعون الحمية القومية العربية فيقولون ما للمصري والمغربي والهندي والجاوي بل ما للمؤتمر الإسلامي وشكل الإدارة في الحجاز؟

إذا كان الإسلام لا حق له أن يتكلم في الحجاز فأية صفة لعمري تبقى للحجاز؟ إن المحميات القومية التي من هذا النمط هي من قبيل كثير الحب بالجهل ومن باب الإدعاء الباطل. لا بل أصحاب هذه الأقوال لا يهمهم فيما يظهر إلاّ أن يقال عنهم إنهم حماة الحقيقة العربية سواء كانت هي الحماية ممكنة أو غير ممكنة. فكل من يدعي حماية الحقوق العربية يجب أن يعترف بأن الحرمين الشريفين ليسا لأهل الحجاز وحدهم بل لسبعين مليون ناطق بالضاد بل لثلاثمائة وخمسين مليون مسلم وأنهما تحت كفالة هذه الأمة بأجمعها. ثم لم نفهم ما معنى التهافت على تصوير شقاق واقع بين المسلمين والعرب...

وما هي الفائدة للعرب من تخيل هذا النزاع؟ ثم لم نفهم لماذا هذه الفتنة يجب أن نتصورها واقعة بين المسلمين غير العرب والعرب؟ والحال أن آل سعود هم عرب مثل آل هاشم وأن أهل نجد هم عرب مثل أهل الحجاز. وإننا لنجد بعد ذلك السواد الأعظم من أهل جزيرة العرب وقسماً كبيراً من أهل الحجاز أنفسهم موافقين لسلطان نجد فلماذا انحصرت العربية والعروبة في تلك الفئة القليلة ونصل من العربية والعروبة كل هؤلاء الملايين من عرب الجزيرة ومصر والمغرب والشام إلخ وصار كل هؤلاء شعوبيين؟ قد يجاوبونك أننا لا ننكر كون ابن مسعود عربياً ورهطه عرباً ولكننا عددناه شعوبياً لكونه ينفذ سياسة أهل الهند وأهل مصر. وليس هذا الاعتبار بصحيح وإنما الصحيح هو كون الفتنة هي بين إمارتين من إمارات العرب ذراب البغضاء مبثوثة بينهما

من قدم الزمان وأن هوى مصر والهند كان هذه المرة مع الإمارة النجدية كما كان منذ مائة عام مع الإمارة الحجازية. فكون هوى أمة غير عربية مصادفاً أحد فريقي العرب المتقاتلين لا يسجل على هذا الفريق صفة الشعوبية. وحاشا السلطان عبد العزيز بن سعود أن يكون شعوبياً أو أن يرمي بعداوة العرب. وأما كونه يدعو العالم الإسلامي للتشاور في خطب الحرمين الشريفين فليس بدليل تعصبه على العرب بل كان من غار في هذا الأمر وأنعم النظر في هذه القضية يعلم أن ابن سعود يسعى في ذلك بتعزيز العرب ولف جموع الإسلام من حول حوضهم إلى أن تكون جزيرة العرب اشتملت على القوة الكافية التي هي ملية وحدها بحفظ الحجاز. فإما القتال بجمجمة الكلام وقعاقع الألفاظ فقد آن لنا أن نشبع منه وأن واجه الحقيقة كما هي فمتى واجهناها كما هي علمنا أن أهل الحجاز لا يقدرون أن يستقلوا بحفظ الحرمين الشريفين وأنهم مع كونهم من خيرة رجالات العرب لا يستغنون عن نجد ولا عن اليمن ولا عن مصر ولا عن سائر الأمة الإسلامية. ثم أن هناك للشرع أحكاماً لابد من مراعاتها على من شاء أن يكون مؤمناً. ولسنا نرى في هذه الأحكام ما يخالف مصلحة العرب في شيء بل رأينا الدين الإسلامي سبب سعادة العرب ولاسيما أهل الحجاز ولقد علمنا أن التورانيين أو فئة يسيرة منهم ذهبت إلى كون الإسلام أضرَّ بسلطان الترك في العالم وأنه كلما علا الإسلام انخفضت المغولية التي هي أصل الترك على ما يزعمون فتراهم جادين في تحويل الصبغة الإسلامية إلى صبغة تركية قومية على تأويل أن هذه السياسة أجدر بعلو الأتراك في الأرض. وليس لنا أن نجادلهم في هذا الموضوع ولا أن نتعرض لهم فيما يعدونه من مسائلهم الداخلية المحضة بل عندهم فيه من يجادلهم من أبناء جلدتهم ولعل الذين ينكرون منهم هذه النظرية أكثر جداً ممن يتمسكون بها. ولكن الذي لا يمكن أن نفهمه هو قيام فئة من العرب إذا غار الواحد في كلامهم وجدهم يرمون إلى جعل الإسلام نقيضاً لمصلحة العرب القومية. وإني أحاشي أن يكون الملك حسين وأولاده من هذه الفئة ولكنني لا أحاشي من هذه المبادىء بعض المتحذلقة من حزبهم ممن هم أغر من ظبي مقمر . . . لو شكا من الإسلام كل الأمم فلا حق لعمري في مثل ذلك العرب! فإن العرب قبل الإسلام كانوا أمة وكانت لهم حضارة وآثار عظيمة لا ينكرها أحد ولكن لم يكونوا الأمة التي لها ما بين المشرق والمغرب. ولم يكونوا الأمة السائدة ما بين ألبيرانه والحملايا. ولم يكونوا الأمة التي تركت مكاناً نادر النظير في التاريخ والتي لم تبلغه لولا محمد (ص). وإلى هذا اليوم مطبوعة لغات ٣٥٠ مليوناً من البشر بطابع اللغة

العربية بسبب الإسلام بسبب القرآن العظيم والنبي الكريم. ولنفرض أن عربياً لا يعتقد بالدين ولا يعنيه تعليم القرآن أفلا تراه يعتقد بالدنيا ويعترف بأهمية سيادة الأمم؟ فليقل لنا من مهد هذا الملك الكبير وأثّل هذا المجد الرفيع للعرب؟ وهل ترى العربي الجاحد أعرق في الإلحاد من فولتير هامة الفلاسفة الماديين ومزعزع أركان الديانة في أوروبا فأقرأ ما نقلته جريدة الطان في شهر أكتوبر الأخير من سياحة لأحد أكابر رجال أوستريا المعاصرين لفولتير زار فيها هذا الفيلسوف بمقره في فرناي Ferney على ضفاف بحيرة جنيف فتجاذبا أهداب البحث في مواضيع كثيرة ووصلا إلى موضوع الإصلاح الديني وما قام به منه لوتير وكلفين فقال فولتير بالحرف: كلاهما في موضوع الدين لا يصلح أن يكون حذاء لنعل محمد. هذه شهادة فولتير في النبي العربي العظيم وحسبك بها مقنعاً لمن لا ينزل إلا على حكم ملحد أوروبي كبير.

جنيف في ١٥ أيار　　　　　　　　　　شكيب أرسلان

الأمير وأحمد شوقي

وبعث الأمير شكيب برسالة إلى صاحب جريدة «كوكب الشرق» في مصر، أحمد حافظ عوض بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٢٦، وفيها مداعبة طريفة بين أحمد شوقي أمير الشعراء، والأمير شكيب، وقد نشرت في الكوكب في العدد المؤرخ في ٤ جمادي الآخر سنة ١٣٤٥ وفق ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٦:

حيث أن أمير الشعراء قد فتح صدره لدعابة صديقه القديم هذا فلنترك الآن الأستاذ العلاّمة أحمد زكي باشا ولنعد إلى أميرنا أحمد شوقي بك محاذبه بقية الحبل.

يقول شوقي بك أني أنا الذي بدأ بدعوته إلى المطعم التونسي وقهوته مع أعضاء الوفد السوري المحترمين ويشكر هذا الداعي.

وأنا أتباهى بهذه الدعوة وأشكر لمجيبيها حسن التلبية فقد كنت أول من دعا وكان هو أول من لبّى. وكان يوماً مشرقاً سروراً وأنسا، وكم قال أبهج من أن ينسى. لا بل كان كيوم دارة جلجل. ويعلم الله أن ملاقاة أخي شوقي بغية تقصد ومنهل يورد وأني لأحج إليها من بلد إلى بلد فكيف وهي على طرق

التمام وأني لأحن إلى لقاء هذا الأخ الحميم ولو في رمضان بعد العصر فكيف على كسكس وشكشوكة وما شاكلها من الطعام.

ولست بأقل شكراً منه للأديب الفاضل السيد طاهر الصباغ الذي رأينا من حفاوته ونحافة ذوقه، وسرعة لحظه، وشدة حفظه؛ ما يعد نادراً في بابه. ويقول الأخ الأكبر - وشوقي بحسب تاريخ ولادته أكبر مني بسنة - أن طاهر أفندي الموما إليه راوية من رواة شعره، وأنه كان ينشد شعره الحاضرين وأقول كلنا رواة لشعر شوقي ننشده الحاضرين ونزهو به على الغابرين ونقول:

كم ترك الأولون للآخرين. ولعمري أن الدهر من رواة شعر شوقي، أفيكون الصباغ أصعب من الدهر؟

قال أبو الطيب:

وما الدهر إلاّ من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

ومن يا ترى يصح أن يخلف المتنبي اليوم؟ أولها أحمد وآخرها أحمد!

أفلم يسألني سائل منذ عشرين سنة (تراني لاأزال متمسكاً بالتواريخ) عن رأيي في شعر شعراء العصر فأجبته: وجوابي منشور في مجلة سركيس - وقد تكرر نشره في المؤيد - بأن المفلقين منهم كثيرون وذكرت الكاظمي والرصافي والمطران وغيرهم ولكني قلت إن البارودي وشوقي وحافظ إبراهيم هم الثلاثة السابقون في الحلبة، ومازلت أقول إنهم ثالوث الشعر الأقدس، وذلك كما كان أبو تمام والمتنبي وأبو عبادة البحتري في الماضي لات الشعر وعزاه ومناته، وهكذا لقبهم صاحب المثل السائر، وشبهت البارودي بحبيب لما بينهما من التناسب في علو النفس وجزالة اللفظ وتدفع القول حتى كأنه العارض المنصب، وشبهت أحمد شوقي بأحمد بن الحسين الكندي لما بينهما من التناسب في دقة المعاني وكثرة الحكم والجري مجرى الأمثال ورأيت في حافظ كثيراً مما في البحتري من حسن الصنعة وعذوبة الألفاظ وطلاوة النسج وملكة الانسجام.

فلا عجب أن روى الدهر لشوقي كما روى للمتنبي، وكم من أبيات لشوقي يستشهد بها الكتاب بل العوام وهم لا يعلمون أصلها. ومن وجوه شبه

أحمد شوقي بالمتنبي أن أبا الطيب استشهد الناس بشعره في عصره ودارت أمثاله وأبياته اليتائم على عذبات الألسن ورؤوس الأقلام شرقاً وغرباً وهو بعد في الحياة، وأن شوقي له شعر كثير لا يأخذه الإحصاء يستشهد به الخاص والعام ويدور على الألسن والأقلام وهو يعد في الحياة لا بل في الشباب إن جاز لنا أن نقول هذا.

إلاّ أني سمعت السيد طاهر الصباغ يروي لحافظ مثلما يروي لشوقي وربما أكثر فلا ينبغي أن أغفل ذلك لأن التحري واجب في الرواية حتى عن الرواية.

ولكن قد بالغ شوقي في الاعتماد على ذاكرة صاحبنا طاهر الصباغ وفي الاعتقاد بإحاطته بشعره إلى أن ذهل عن إهدائه إياه ديوانه (الشوقيات) بعد أو وعده به وقال له: إني كتبت اسمك على النسخة. وهو عقد عجل شوقي فسخه لذهابه أن بين صدغي الصباغ من ديوانه نسخة.

وذهب شوقي إلى (ڤيشي) وقد ظن الصباغ أنه (فايش) في وعده بالكتاب، وبقيت أنا وحدي عرضة للعتاب، كأنني أنا وشوقي متكافلان متضامنان (ليسمح لنا الوحيد) بالتكافل والتضامن فقد صارتا من الاستعمالات الضرورية ولو لم يرد في كتب اللغة تضامن فلان وفلان ولا ورد من الكفالة إلاّ قولهم فلان مكافل لفلان (بمعنى معاهد) ولا غرو فبين الأدباء رحم وذمام، ولاسيما إذا كانوا إخوانا من قديم الزمان. فصرت أسمع غمزة بعد غمزة، وكثرت الحروف التي فيها همزة، وخشيت أن يتذكر صاحبنا الآية الكريمة في الشعراء وهي التي فيها (يتبعهم الغاوون) إلى آخر ما وصفهم تعالى به مما ينتهي بالألف والنون.

وأن شوقي سيدهم وحامل لوائهم يوم القيامة، فكنت أؤكد للأديب الصباغ وهو عربي قح مولده الحجاز، إن لابد لذلك الوعد من الإنجاز، وأن عليه أن ينتظر وصول شوقي بك إلى مصر، فالأمور بخواتيهما، والقصائد بقوافيها، والنسخة الموعود بها آتية لا ريب فيها.

كنا في العود الذي وعدنا به ولم نسمعه، فصرنا في النسخة التي انتظرها

الصباغ ولم يرها، ولاشك عندي أن العود تعطل كما قال الأخ، وأن النسخة أهديت إلى أناس كانوا مستعجلين، إلاّ أني لست بتارك حقي في هذا العود إن شاء الله في كرمة ابن هانيء نفسها، فقد كان أمير الشعراء وعد بليلة طرب من أجلي بأثناء ذهابي إلى حرب طرابلس الغرب (١٥ عاماً) والبدوي أخذ ثأره بعد أربعين سنة وقال إنه بكر، أما السيد طاهر الصباغ فإنه بدوي أكثر مني، فإن لم يعجل إليه بالنسخة فلا تغني بعد ذلك المكتبة بأسرها.

أما ما رواه بعضهم من وجود الشرب والرقص في ذلك المقهى العربي بباريس فلا نصيب له من الصحة، بل مشرب الزائرين قهوة البن وهي التي قال فيها عبد الغني النابلسي رضي الله عنه:

قهوة البن حلال ما نهى الناهون عنها
كيف تدعى بحرام وأنا أشرب منها

والشاي بأنواعه لاسيما الأخضر وهو ما أدخله إلى المغرب السادة السنوسية رضي الله عنهم وكفى بهم قدوة. وليس هناك سكر ولا رقص ولا في المقهى مكان للرقص وإنما قد تنشد أحياناً بعض الأبيات المرققة للقلوب وبعض الأزجال المقبولة، وليس في ذلك نكير، ولعمري أن مقهى بدون قهوة ولا شاي أشبه بقلب بلا وجد أو (بغراموفون) في نجد.

لوزان في ٣٠ نوفمبر ١٩٢٦ شكيب أرسلان

الأهرام ٤ يناير سنة ١٩٢٣

(*) من كتاب «شوقي أو صداقة أربعين سنة»، بقلم أمير البيان شكيب أرسلان، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ١٩٣٦.

لا وجود للأرسلانيين في جرمانا

وأرسل الأمير إلى صاحبي مجلة «المقتطف» يعقوب صروف وفارس نمر بهذه المقالة التي نشرت في عدد المقتطف تحت باب «المراسلة والمناظرة» في سنة ١٩٢٦ بخصوص مسائل تاريخية غفل عنها المؤرخون وقد رأينا أن من المفيد إعادة نشرها، وهي التالية:

حضرة الأستاذين الكبيرين صاحبي المقتطف الأغرّ

بين العالمين الفاضلين عيسى أفندي اسكندر المعلوف وسليمان بك أبي عز الدين اختلاف رأي في تحقيق بعض نقاط تاريخية تتعلق بحرب القيسية واليمنية وبحرب إبراهيم باشا المصري والدروز وسنترك هذين الفاضلين يفرغان جعبة أدلتهما كلّ من تأييد رأيه فيكون من وراء هذه المباحثة فوائد للقراء لابأس لها وتتمحّص حوادث يجمل تثبيت الوجه الأصح فيها.

وللمؤرخ البحاثة المجتهد عيسى أفندي اسكندر المعلوف تدقيقات لطيفة في التاريخ يقدرها أدباء العصر قدرها ومباحث غزيرة المادة له فيها فضل على تاريخ سورية لاسيما ما تعلق منهُ بأصول الأهالي ومساكنهم وتنقلاتهم وانساب الأسر المشهورة ووقائعها مما أصبح أخصائيًا فيه وقد يأتي يوم يكون فيهِ حجَّةً يستشهد بهِ.

لهذا ولمشربهِ في التدقيق وجب أن ندقق عليه ولاسيما في خبر غريب أوردهُ عنا في الجزء الأخير من المقتطف.

فقد ذكر في أثناء إيراده الشواهد على هجرة اليمنيين من لبنان إلى دمشق والغوطة وحوران أن منا أُسرة في جرمانا (من قرى الغوطة على مسافة ساعة من دمشق) قد تركت الإمارة والتحقت بعامة الناس. والمفهوم من كلامه أن هذه الأسرة هاجرت من لبنان إلى جرمانا بسبب حروب القيسية واليمنية. وهذه أول مرة سمعنا فيها أنهُ يوجد في جرمانا أسرة أصلها من الأرسلانيين.

ولو سأل عيسى أفندي اسكندر المعلوف جميع أهالي قضاء الشوف من جميع الطوائف وبنوع أخص أهالي غرب لبنان ـ وطننا الخاص ـ الذين يعلمون أخبارنا القديمة والجديدة بدقائقها ويحفظونها بجزئياتها لأننا ساكنون بينهم يعلمون كل شيء عنا ويروون بالتواتر عن آبائهم وأجدادهم سير آبائنا وأجدادنا لم يقدر أن يسمع هذا الخبر من أحد على الإطلاق.

كما أنهُ لا يوجد في تاريخ عائلتنا ولا في نسبنا ولا في تواريخ لبنان المعروفة أدنى إشارة إلى أن منا بيتاً هاجر في الماضي إلى جرمانا مع أنهُ يوجد في نسبنا أخبار كثيرة من هذا القبيل مثل أن الأمير فلاناً هاجر إلى مصر وأن الأمير فلاناً اختار محل كذا لسكنه وتفاصيل أقل شأناً من هذه مثل أن الأمير فلاناً بنى سنة كذا داره في القرية الفلانية لا بل سنة كذا بنى المقعد الفلاني في داره إلى غير ذلك. فلو كان ارتحل منا أحد وسكن جرمانا أو غيرها من الغوطة لكان ورد ذلك في تاريخنا الخاص على الأقل.

ونحن نسأل أيضاً الفاضل المحقق سليمان بك أباعز الدين مناظرهُ في الموضوع أسمع من أحد أو قرأ في كتاب قصة كهذه؟

قد يوجد في لبنان وفي سورية اسم أرسلان ـ وفي مصر وتركيا ـ وممن يسمى بأرسلان الولي الكبير الشيخ رسلان (مخفف عن أرسلان واسم عائلتنا في الجبل لا يلفظ إلاَّ بالتخفيف أي رسلان) الذي مزارهُ على باب دمشق وليس بقرابة لنا. وكذلك في حمص أسرة وجيهة هم بنو رسلان اسمهم شهير وليسوا بأنسبائنا. ومن الدروز عائلة برأس المتن اسمهم بيت أبي رسلان وليسوا منا. ولما كان أصل قرية بعبدا ملكاً لأجدادنا فقد كان أناس من بعبدا وهم مسيحيون يسمون أولادهم باسم أرسلان وبديهي أنهم ليسوا بأقاربنا. فأخشى أن يكون عيسى أفندي سمع باسم كهذا في جرمانا فظنهُ منا مع أنهُ يكون اسماً على اسم كما يقال.

ثم أني أعرف جميع وجوه جرمانا وقد زرت هذه القرية مراراً وما سمعت أن فيها أحداً أصلهُ منا. بقي هناك أمرٌ لعلهُ هو مصدر هذا الوهم.

عندما انكسر اليمنية في واقعة عين دارة كان رؤساؤهم يومئذٍ المتولون كبر المقاومة للقيسية هم الأمراء آل علم الدين. وقد قُتل أكثرهم في تلك الوقعة وانهزم فلهم لاحقاً بدمشق منذ نحو مايتي سنة. وكان من أعقاب هؤلاء الأمراء رجل يقال لهُ الأمير سليمان مقيم بدمشق لم يبق لهُ شيء من الإمارة ولا من الوجاهة سوى كونه من آل علم الدين. ولما وقعت الواقعة بين الأمير بشير الشهابي واليزبكية والنكدية (لا أتذكر الآن تاريخ السنة وليس أمامي كتب أراجع فيها) وخرج هؤلاء من الجبل وذهبوا إلى دمشق يشكون أمرهم إلى واليها ـ وهذه الحادثة بعد وقعة عين دارة بنحو مائة سنة ـ يقال إن الشيخ علي العماد والد خطار بك العماد الشهير تعرَّف إلى الأمير المجهول سليمان علم الدين هذا وقال له: أفلا تسمع مني يا أمير سليمان ونأخذك إلى الجبل ونجعلك

أميراً مكان الأمير بشير ؟ فقال له الأمير سليمان : هيهات تلك أمة قد خلت .

قد سمعت هذه الرواية من فم المرحوم الشيخ محمد حماده شيخ عقّال طائفة الدروز وكان أحفظ من عرفت في عصره وأوعى الناس لتواريخ جبل لبنان لاسيما وقائع الدروز وكان إذا تحدث عن الوقائع التي جرت من أيام الأمير فخر الدين المعني إلى زماننا هذا سردها بأسانيدها وأيّدها بادلتها ووصفها وصفاً يخيل لك أنك شاهدها . وإني لآسف من أمر واحد هو كونهُ لم يحرر إلاّ القليل من معلوماته وأن الروايات القيمة الثمينة التي كان يرويها لا يحفظ الناس بعدهُ منها إلاّ نبذاً غير متسلسلة .

وقد كنت سألت المرحوم الشيخ محمداً هل يعلم للأمير سليمان هذا أعقاب . فقال لي : يقال إن من ذريته أناساً سروجية في السوق المعروفة بالسروجية التي تتصل بشارع السنجقدار في دمشق . وسمعت بعد ذلك من غيره أن في سوق السروجية أناساً أصلهم من الدروز .

وسنة ١٩٠٩ كنت قائم مقام قضاء الشوف وزارني في بعقلين مركز القضاء الصيفي شاب من دمشق اسمهُ عز الدين أفندي ابن شيخ السروجية وكان معهُ صديق لي من وجوه الميدان بدمشق هو المرحوم عطا حباب . وكنت سمعت باسم عز الدين ابن شيخ السروجية وقرأت لهُ مقالات في جريدة المقتبس وهو من الأدباء الألبّاء المعدودين في الشام . فسألتهُ عن أصل نسبهِ فلحظت أنهُ يسمع من أهلهِ أن سلفهم من آل علم الدين وأنهُ يبغي تحقيق ذلك . وربما كان مقصدهُ من زيارة بعقلين هو الوقوف على هذا الأمر فأخذتهُ إلى الشيخ محمد حماده ورحمهُ الله وأنبأتهُ بالقضية . فأعاد الشيخ الرواية التي كان يرويها عن علي العماد وقال لهُ : إن كنت أنت من ذرية الأمير سليمان هذا فأنت من آل علم الدين . ويظهر أن عز الدين أفندي كان قد سمع من والديه ما يؤيد ذلك وسمع من الناس بالتواتر أن أصلهم من ذلك البيت فعاد من عندي وهو مصمم على أنهُ أمير من بني علم الدين وصار يضع أمضاءَهُ «عز الدين علم الدين» وبلغني أنهُ كان إذا ناقشوهُ في هذا النسب في مجالس أدباء الشام يستظهر بي على إثبات دعواهُ . وأتذكر مرة أنهُ كتب إليَّ كتاباً وأمضى عليهِ قائلاً «ابن عمكم عز الدين علم الدين» وهذا باعتبار أن الأمراء آل علم الدين كانوا ذوي قرباناً وأنهم يمنية مثلنا .

والحقيقة أن الأرسلانيين وآل علم الدين ذوو قربى بعضهم لبعض ولكن ليست الأسرتان أسرة واحدة . أما كون الأسرتين يمانيتين فلا يدل ذلك مطلقاً على الوحدة في

النسب وأن كان بعض الناس يروون أن الأرومة واحدة .

ثم أن الأرسلانيين وأن كانوا يمانيين لم يشهدوا واقعة عين دارة في صفوف اليمنية وذلك لأن الأمير يوسف الأرسلاني صاحب الغربين كان تولى إمارة لبنان كله عندما توفي الأمير أحمد المعني بلا عقب في صلبه وأقام بدار الإمارة دير القمر وقد أيدتهُ الدولة العثمانية في منصبه . ولما كان آل معن قيسيين وعصبية قيس قوية في الشوف لم ينقادوا برضاهم إلى حكم الأمير يوسف أرسلان ومازالوا حتى أتوا بالأمير حيدر الشهابي حفيد الأمير أحمد المعني من جهة ابنته وجعلوهُ أميراً على الجبل وذلك لكون الشهابيين أمراء حاصبيا مثل المعنيين . ويقال إن القيسيين توصلوا بالرشوة حينئذٍ إلى إقناع الوالي التركي الذي كان بصيدا فتخلّى عن الأمير يوسف الأرسلاني ورضي بإمارة الأمير حيدر الشهابي وهذا مبدأ حكم آل شهاب في جبل لبنان . وأما اليمنيون وعلى رأسهم آل علم الدين فبدلاً من أن ينصروا الأمير يوسف الأرسلاني الذي هو منهم خذلوهُ أو خذلهُ بعضهم ذهاباً مع آل علم الدين الذين نافسوا جدنا الأمير يوسف وطلبوا الإمارة لأنفسهم . فكانت عاقبة التخاذل أن الأمير يوسف انصرف من دير القمر إلى بيته في عين عنوب بدون أن يلي الإمارة محلّهُ ابن علم الدين بل كان وليها ابن شهاب القيسي . فحقد الأمير يوسف من جراء ذلك على آل علم الدين ولزم بيتهُ يوم عين داره غير متحيز لأحد . فلما دارت الدائرة على اليمنية في عين داره اكتفى الأمير حيدر الشهابي المذكور وهو أمير البلاد ورئيس القيسية إذ ذاك باقتطاع الغرب الأعلى - عاليه وبيصور وعيتات وسوق الغرب إلخ - من إقطاع الأرسلانيين وأقطعهُ الشيخ محمد تلحوق - جد المشايخ التلاحقة - مكافأة لهُ على خدمتهِ ونصرتهِ لهُ في يوم عين داره . وبقيت مقاطعة الشويفات في يدنا . لم يسلم الأمير يوسف من ضرر واقعة عين داره لكنهُ كان نصف مصيبة .

ولما كان البحث متعلقاً بتاريخ لبنان ووقائع القيسية واليمنية لم نجد بأساً من إلحاق هذه النبذة بالمباحثة الدائرة بين الفاضلين الآنفي الذكر والحديث شجون .

لوزان .

شكيب أرسلان

فؤاد كليم على فؤاد سليم

وكتب الأمير شكيب رسالة بتاريخ ١٤ رجب سنة ١٣٤٤ هـ. بعنوان «فؤاد كليم، على فؤاد سليم» ضمنها شعوره تجاه الثورة العربية السورية الكبرى وجهاد الوطنيين الأحرار فيها.

وقد نشرت في جريدة «الشورى» بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٢٦ الموافق ١٤ رجب سنة ١٣٤٤ هـ.

لابدَّ أن تستقل سورية برغم بعض أعداء العرب... من أهلها. ولابدَّ أن يخرج منها الأجنبي كما خرجت أسلافه من ثمانمائة سنة غير مستفيد شيئاً، غير الضرر، والقتل والدمار وسوء الأحدوثة والعار. وسيكون لمحرري سورية يومئذٍ تاريخ يقترن بتاريخ نهضة الأمة العربية، وتسجل أسماء الأبطال الذين بدمائهم اشتروا حياة العرب، ولابدَّ أن نحصي أسماء من قتلوا من الثوار من أول الثورة إلى أن تنتهي وأن نطبعها وننشرها، وننشر بجانب كل اسم منها مكان القتل وتاريخه، ونعلم أولادنا وأحفادنا هذه الأسماء حتى تكون لهم قدوة كلما أحس الوطن بالخطر. ولا يوجد في هذه الأسماء اسم يستحق التقديم على اسم فقيدنا فقيد الثورة السورية، بل فقيد الأمة العربية المرحوم فؤاد بك سليم آتانا الله على مصرعه صبراً جميلاً.

فؤاد بك سليم أعظم حجر في ركن الاستقلال السوري. وسيكون له مأتم سنوي كلما مرَّ اليوم المماثل ليوم سقوطه شهيداً في سبيل حرية سورية. فؤاد بك سليم ويوسف بك العظمة، هما من أبطال شهداء الوطن الذين قضوا في الدفاع عنه، الواحد في (ميسلون) والآخر في (مجدل شمس) فلا جرم أن يبكيهما السوريون طويلاً وأن يعقدوا لهما كل سنة مناحة كما تعقد الشيعة المناحة على الحسن والحسين رضي الله عنهما.

ذكرت جريدة (الشورى) وغيرها مواقف بطلنا فؤاد بك سليم في الجهاد عن حرية سورية وعن البلاد العربية، فلا حاجة إلى إعادتها، ولكننا نقول إن الأقوال في سيرة كل رجل تزيد على الأفعال، إلاَّ أن أفعال فؤاد بك سليم تزيد على الأقوال عنه، ولي من قصيدة قديمة هذا البيت:

وفعال الضرغام أوقع في النفـ ـس من القول أنه الضرغام

في الأمة العربية أبطال كثيرون ولله الحمد، ولكن قلما رأينا فيهم من جمع بين السيف والقلم مثل جمعه، ونظم بين البراعة والشجاعة مثل نظمه، فقد كان في ساحة الجلاد الأسد الهصور والبطل الأبتع وفي ساحة الجدال العالم المصقع والكاتب الأبرع. ومن من قرّاء العرب لم يعجب بمقالاته في الشورى وكوكب الشرق والسياسة، تلك المقالات الشائقة الفائقة التي تنم على ذكاء خارق للعادة وحكم باهر المنطق واطلاع واسع المدى ولغة ثقفية النغمة ونفس عالية ولا كالنفوس، ورأس مفعم بالإباء والعزة بالآباء ولا كالرؤوس، فمن قرأ كلامه ـ والكلام مرآة المرء ـ عرف قدره ولو لم يعرف وجهه. لم أعرف فؤاد شخصياً، وقد يعجب الناس من كوني ـ لا أعرفه وما ثمة بداع للعجب. في أول الحرب العامة كان فؤاد ضابطاً صغيراً في سن العشرين فلم تكن لي به معرفة وإنما كان والده الدكتور يوسف سليم صديقاً لي، وكان طبيباً حاذقاً من خريجي الكلية الأميركانية في بيروت، وقضى أكثر حياته طبيباً رسمياً لقضاء الشوف، وكان مع شدة حذقه في الطب ساكناً هادئاً حسن السمت. وكان كل من أخيه الأكبر الدكتور أسعد سليم وأخيه الأصغر الدكتور داود سليم طبيبين حاذقين، وقد توفوا جميعاً إلى رحمة الله فكانوا ثلاثة أخوة أطباء علماء. وكان لهم والد اسمه حسن أفندي سليم كان وجيهاً في ناحية الشوف. وكان أعمامنا جعلوه ناظراً لمدرسة (عبيه) الخاصة بالدروز. وعائلة سليم من العيال المعروفة في الشوف الحيطي ومسكنهم في قرية(جباع) الشوف، وهي غير جباع الحلاوة التي أهلها شيعة ـ وأهل جباع ومن جملتهم عائلة سليم هؤلاء مشهورون بالشجاعة والحماسة حتى بين الدروز الذين أكثر ما توجد هذه المزية بينهم. ومما يذكر أن قرية جباع هذه من أعلى قرى جبل لبنان وأبدعها مطلاً وأطيبها ماء وأصحها هواء، ولا شك أن لحسن المناخ وصحة الهواء علاقة بحسن التركيب وصحة العقل. وقد تزوج الدكتور يوسف سليم بفتاة جركسية فولدت له أولاداً منهم فؤاد، فكان نابغة في عقله وقلبه وما بلغ الخامسة والعشرين من العمر حتى طبق اسمه برّ الشام، لاسيما في الوقائع التي جرت بين الفرنسيين والوطنيين في عهد فيصل. فقد كان مجرد اسمه يلقي الرعب في صفوفهم، وهو الذي جلاهم من

(مرجعيون) وكسرهم شرَّ كسرة في المرة الماضية، ثم عاد فكسرهم في مرجعيون، وأخذ منهم (قصبة الجديدة) هذه المرة أيضاً. ولنترك الجرائد المتفرنسة في (بيروت) تثرثر ما شاءت وتهذي ما شاءت عن أسباب هزيمة الفرنسيس في (الجديدة) وكيف ارتدَّ الجنود السنغاليون بحشمة ووقار... والحقيقة أن الدروز بطشوا بهم تحت قيادة زيد الأطراش وفؤاد بك سليم وهزموهم أقبح هزيمة لا تغنى دباباتهم ولا طياراتهم شيئاً. ولو أرادوا أن يتأثروهم إلى (النبطية) لقدروا، ولكنهم لم يريدوا أن يمسوا عواطف إخوانهم الشيعة بالتوغل في أراضيهم بدون مراضيهم، على أنه إن كان تقهقر الفرنسيس جرى بانتظام ذلك اليوم فلا جرم أن تقهقر أبناء وطننا المتطوعين اللبنانيين خدمة فرنسة لم يقع فيه شيء من الانتظام بل لم تقع العين على العين حتى ولوا الأدبار. وحسبهم شهادة فرنسا فيهم وفي شجاعتهم وثناء (ساراي) في البرلمان الفرنساوي على مزاياهم العسكرية... ولتنويه البلاغات الرسمية الفرنسية بشدة عزمهم في الركض إلى الوراء يوم وقعت الجديدة...

لو خير المرحوم فؤاد سليم في الموت، ما اختار على هذه الشهادة التي تتوجت بها أفعاله العنترية وتركت له اسماً خالداً في تحرير سوريا. ولكننا نحن عرب سورية يحتاجون إلى مثله وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر...!

فمن كان هذا شأوه وهو قريب العهد بالثلاثين كيف يكون شأنه لو بلغ الستين؟ عليك سلام الله يا فؤاد! يا مفخرة من مفاخر العرب. ومثلك فليكن لأبنائهم قدوة. وكفى بني معروف قومك بك فخاراً على كثرة أبطالهم. وأعلم أنك إن مت بالجسم، فأنت حيٌّ في القلوب. وحسب الرجل الشريف أن يعيش عيشتك ويموت ميتتك.

برلين ١٠ يناير ١٩٢٦

شكيب أرسلان

مبادىء قديمة
محتها الأفكار الحديثة

وكتب الأمير إلى صاحب جريدة «الفتح» الأستاذ محب الدين الخطيب، حول مبادىء وأمور قديمة محتها الأفكار الحديثة، نشرها الخطيب في عدد الفتح يوم الخميس ١٧ ذي القعدة سنة ١٣٥٠ هـ. ١٩٣١ م العدد ٢٩٠:

حضرة الأخ الأجل الأفضل صاحب الفتح:

في العدد الأخير من الفتح أشرتم إلى ما استظهر به لتأييد أعمال أنقرة ذلك الذي قال إن قواعد الإسلام «مبادىء قديمة محتها الأفكار الحديثة». واستخلصتم من ذلك الإقرار الذي قطعت به جهيزة قول كل خطيب أن أولئك الجماعة لا يتقيدون بمبادىء الإسلام ويعدونها مما محته الأفكار الحديثة!

وقلتم إن الإسلام يؤخذ من المبادىء القديمة التي جاء بها محمد ﷺ قبل أربعة عشر قرناً.

وقلتم «وأما دول الغرب فدول نصرانية والنصرانية دين آخر غير دين الإسلام».

وأنا أؤيد كلامكم هذا ولكني أزيد عليه أن الدول النصرانية لاتزال هي أيضاً متمسكة بعقائد وقواعد أقدم عهداً في الزمن من عقائد الإسلام وقواعده لأن الإسلام مضى عليه ١٤ قرناً والنصرانية مضى عليها ١٩ قرناً ولم نسمع أن الأوروبيين قالوا إن هذه المبادىء القديمة المسيحية التي مضى عليها ١٩ قرناً وزيادة «قد محتها الأفكار الحديثة»!

فأوروبا أعرق في «الأفكار الحديثة» من أنقرة وأرقى في كل شيء ولم تبرح تعض بالنواجذ على مبادىء مضى عليها هذا الدهر الطويل وتقول إنها لن تخرج عنها.

وإن قيل إن أوروبا لبثت مسيحية في العقيدة لكنها أحدثت نظماً حديثة غير مسيحية لأجل الإدارة والقضاء وما أشبههما، أجبنا: بأن هذا الكلام هو أيضاً غير صحيح فالأوروبيون لم يخرجوا عن المبادىء الإنجيلية أصلاً إلاّ في

أمر واحد اقتضته الضرورة القاسرة وتبعوا فيه سماحة الإسلام وهو إجازة الطلاق عند الضرورة. ثم إن الشرع الإسلامي وإن كان قديماً ففيه قواعد كلية يمكن بها الاجتهاد في الحوادث وتطبيق ما يجب تطبيقه ويتحقق نفعه من القوانين الحديثة بدون أدنى خروج عن الإسلام.

والقوانين الأوروبية كلها مبنية على القانون الروماني. والقانون الروماني الذي كان قبل النصرانية ويقال له «القانون البريتوري» قد تعدل بقانون يوستينيانوس المشرب بروح المسيحية.

قال الأستاذ العلاَّمة صاوا باشا اليوناني في كتابه «نظرية علم الحقوق الإسلامي» ومأخذه من الشريعة: (إن قانون يوستينيانوس هو شرع مسيحي محض) وفصل ذلك بما لا محل هنا لنقله بمكاننا من فورة الشغل وضيق الوقت. فمن أراد فليطالع ذلك في كتاب صاوا باشا وفي تأليف «أورتولان» الحقوقي الفرنسي الشهير وفي تآليف جميع من كتبوا تاريخ علم الحقوق الروماني واشتقاق علم الحقوق الحديث منه. ويا ليت شعري أيّ شيء حديث غير مبني على أصل قديم!.

ومرة كان «برنوس» الكاتب الرحالة الفرنسي في أنقرة ـ وقد حضر جلسات مجلس النواب فيها ـ فسمع محمود أسعد ناظر العدلية وغيره من رفاقه يخطبون على منبر المجلس ويقولون ـ وقد ظنوا أنهم جاءوا بالحجة الملزمة ـ أنه لا يمكن إجراء أحكام اليوم على مقتضى آراء كانت من قبل ومضت عليها قرون فلذلك هم ألغوا مجلة الأحكام العدلية واتخذوا القانون المدني السويسري.

وقد كان برنوس مبتهجاً بعملهم هذا لأنه فرنساوي كاثوليكي يكره الإسلام إلاَّ أنه ذكر في رحلته إلى الشرق «إن قول الأنقريين هذا فيه نظر لأن النظريات القديمة لاتزال هي محور التشريع في أوروبا. فالقانون السويسري مأخوذ من القانون الروماني وهذا هو من قانون مسيحي كما لا يخفى».

فكيف تكون «الأفكار الحديثة» محت «المبادىء القديمة»؟

جنيف: ٢ ذي القعدة.

شكيب أرسلان

حديث حول قائمقامية الشوف

وهذه رسالة على شكل مقال، أرسلها الأمير شكيب، من لوزان، سويسرا، أول تشرين الأول سنة ١٩٣١، إلى صديقه أمين الغريِّب، تتعلَّق ببعض القضايا حول القائمقامية، وقضايا أخرى في غاية الأهمية، فنشرها الغريِّب في مجلة «الحارس» بتاريخ تشرين الأول وتشرين الثاني سنة ١٩٣١. وهي لأهميتها نعيد نشرها في هذا الكتاب وهي التالية:

من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩١١ كانت متصرفية يوسف فرنكو باشا على جبل لبنان. ولقد تكلمت مجلة الحارس على حوادث كثيرة من ماجريات متصرفيته اطلعت عليها فوجدتها مطابقة لما أعلمه. أو قريبة منه. وإن كان كثير من المعلومات لم يرد في الحارس فإن المؤرخ أياً كان لا يستطيع الإحاطة. ولا أريد أن أبحث أن في تلك الحوادث ولا في متصرفية يوسف فرنكو ولا كيف بدأت، لكني أريد أن أذكر كيف ختمت وكيف جرى تعيين أوهانس باشا قيومجيان متصرفاً للبنان. فإن أهالي جبلنا يظنون بلادنا قطب دائرة الوجود وأن قضية تعيين متصرف على لبنان كانت تشغل الملوك والوزراء وتشكل حادثاً سياسياً تعنى به الدول العظام ولا يبقى عظيم إلاّ يضرب فيه بسهم. وحقيقة الحال أن الأمر أيسر من ذلك بكثير. نعم أن الدول السبع كانت تشترك في انتخاب متصرف لبنان بمعنى أن الدولة العثمانية في وقتها كانت إذا أرادت تعيين المتصرف أو تجديد مدة المتصرف دعت سفراء الدول الست هي انكلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا والنمسا وإيطاليا وعرضت عليهم اسم من ترشحه للمتصرفية فإن وجد من السفراء معترض فربما أخذت المسألة بعض المذاكرة وإن لم يوجد اعتراض لأحد من السفراء انتهى الأمر في جلسة واحدة بل في جلسة قصيرة لأن السفراء من عادتهم أن يكونوا مشغولين بما هو أهم. ومن عادتهم أيضاً أن لا يعارضوا الدولة إلاّ في ما لهم فيه منافع ذات بال. وكان أكثر من يعتني بمسألة متصرفية لبنان دولة فرنسا نظراً لما كان لها من الطموح إلى سوريا مما قد أيّدت الحوادث بعد الحرب وجود مقدماته من قبل الحرب. لذلك لما أرادت الدولة العثمانية تجديد مدة رستم باشا متصرفاً على لبنان وكان هذا عدواً لفرنسا ظاهر العداوة أبدى سفير فرنسا اعتراضه على ذلك التجديد ولم تشأ الدولة العثمانية أن تغيظ فرنسا حينئذٍ فضربت عن تجديد مدته صفحاً. أما أن تقدر سفارة من السفارات على ترشيح مرشح لها وتنفذ مآربها فلم يكن من ذلك شيء. قد كان الترشيح للدولة وحدها وكان يحق لكل من السفراء أن يبدي رأيه وفي غالب

الأوقات كانوا يوافقون الباب العالي .

في سنة ۱۹۱۱ بعد خلاف ليس هنا محله استعفيت من قائمقامية الشوف وأرسلت إلى يوسف فرنكو وهو في عاليه كتاباً أقامه وأقعده ونشأ عن لهجة كتابي الشديدة أنه استدعى المتصرف كمبربتش قنصل انكلترا وأطلعه على كتابي وتقرر بينهما تعيين المرحوم نسيب بك جنبلاط خلفاً لي لأنه كان قد وقع الصلح بيننا وبينه وانتهت العداوة القديمة . فرأى المتصرف والقنصل (والحقيقة أنه رأى ناصيف بك الريس الذي كان بيده زمام المتصرف) أن الأولى تسكين الأمور بتعيين نسيب بك الذي لم يكن لي اعتراض على تعيينه . وأما أنا فذهبت وأقمت في صوفر مصطافاً . وفي تلك المدة شنت إيطاليا الغارة على طرابلس الغرب محض اعتداء لم يسبق له مثيل في التاريخ برغم كثرة ما ورد من الحوادث الغريبة في تاريخ الاستعمار الأوروبي . فثقلت هذه الكائنة على جميع الأمة التي كان يقال لها وقتئذٍ الأمة العثمانية وثقل على العرب بنوع خاص لأن طرابلس الغرب قطر عربي بحت . وكنت من أصل نشأتي شديد الحمية على قومي أكره أقل اعتداء من أبناء قومي على الغير لكنني أكره أقل اعتداء من الغير على أبناء قومي فما ظنك باعتداء فظيع كهذا . فأول ما خطر ببالي أن أذهب وأجاهد في صف إخواني العرب الذين قاموا يناضلون عن وطنهم المعتدى عليه طرابلس . فذهبت إلى الشام ومنها إلى مصر ومنها إلى طرابلس في خبر طويل ليس هنا موضعه وقد ننشره تباعاً في وقت آخر . وما كان مقصدنا هذه المرة إلاَّ قضية أوهانس باشا التي جئنا بهذا الخبر بصددها .

فلما كنت في بر طرابلس جاءني كتاب من المرحوم ملحم بك الخوري أمير الاي السابق في لبنان يقول لي فيه إن مدة يوسف فرنكو باشا أوشكت أن تنتهي وأنه شائع إمكان تجديد مدته . وكنت عندما تلقيت هذا المكتوب في ساحة الحرب في بنغازي فأبرقت إلى المرحوم أنور باشا القائد العام وكان في مخيم عين منصور بظاهر درنة والتمست منه أن يبرق إلى الأستانة بعدم موافقة التجديد لمدة يوسف . فأبرق أنور باشا في الحال وكان الصدر الأعظم يومئذٍ كوجوك سعيد باشا وكان يميل إلى إبقاء يوسف فرنكو فلما وردت برقية أنور إلى رفاقه الاتحاديين حملوا الصدر الأعظم على تغيير فكره فكانت تلك الضربة القاضية على يوسف فرنكو .

فانصرف يوسف فرنكو إلى الأستانة وأديرت المتصرفية بالوكالة . ثم أنني جئت

إلى الأستانة بعد أن أقمت في بنغازي ودرنه نحو ثمانية أشهر وذلك عندما أوشكت الحرب البلقانية أن تشتعل وخيف من أن الدولة تصالح على طرابلس الأمر الذي وقع فيما بعد، فجئت بالباخرة من بورسعيد إلى بيروت ولم أنزل إلى البر وبقيت سائراً بها إلى الأستانة. ثم نشبت الحرب البلقانية ووقعت الدولة في خطوب جسام ثم دارت الدائرة على عساكرها فازدادت اضطراباً. وكانت الصدارة قد تحولت من مختار باشا الغازي إلى كامل باشا وكنت قد واجهت كامل باشا من أجل طرابلس وقال لي: إننا لا نقدر أن نحارب أربع دول البلقان ودولة إيطاليا معهن. فقلت له: إننا نقبل هذا العذر لكننا نطلب منكم ألا تهملوا مجاهدي طرابلس بالإعانات التي يمكن إرسالها بصورة غير علنية. وهكذا كان. ثم أنه لما اشتدت الحرب البلقانية جئت إلى كامل باشا وقلت له: إن بقاء لبنان بدون متصرف في أوقات حرجة كهذه غير موافق. فوافق على كلامي وقال لي: إنه يوجد في مصر يوسف سابا باشا فكيف ترونه. فقلت له إننا نسمع الثناء عليه. فقال لي: أكتب إليه كتاباً عن لساني وأسأله هل يقبل متصرفية لبنان وجاوبني عند جوابه. فكتبت إلى سابا باشا كما قال لي الصدر الأعظم فجاءني الجواب بأنه راض ورجا مني أن أعرض لفخامة الصدر عظيم شكره. فجئت إلى كامل باشا وأخبرته فقال: حسن. وتقرر أن يكون سابا باشا متصرفاً للبنان. وكان يومئذٍ بعض اللبنانيين من إخواننا الموارنة يسعون في الأستانة لفتح ميناء جونيه تأسيس محكمة تجارية للجبل وإضافة عضو ماروني في مجلس الإدارة ينوب عن دير القمر. وكان قد بلغني ذلك فقلت لكامل باشا ليس لي أدنى اعتراض على مطالب الموارنة ولكن ينبغي مقابلة ذلك بشيء من التعويض على الطوائف المحمدية. فقال لي كامل باشا: قدم لي لائحة بذلك. فقدمت له مذكرة فيها طلب ميناء في خلده وفيها طلب تحويل عضو الدروز الذي كان عن جزين إلى قضاء الشوف بحيث يصير عضوان للدروز عن قضاء الشوف بانتخاب أهالي الشوف. فوجد كامل باشا مطالبي بغاية الاعتدال. ولما كان هو يعرف البلاد حق المعرفة قال لي: أما في خلده فلا يوجد ليمان طبيعي فليكن النبي يونس. فقلت له: فليكن النبي يونس فليس مقصدي إلا أن نفتح ميناء في جنوب لبنان بمقابلة جونيه. فاستدعى نورادنجيان أفندي الأرمني وكان ناظراً للخارجية وجرت بيننا المذاكرة بذلك ومن ذلك الوقت تعرفت إلى نورادنجيان وصارت بيننا مودة ولا يزال إلى اليوم في قيد الحياة وهو رئيس الجمعية الأمنية في أوروبا وقد التقينا معاً في هذه السنين الأخيرة بعض مرات في سويسرا. فلما صرت أتلافى في الباب العالي

بنورادنجيان أفندي صار يبحث معي في أمور لبنان وسألني عن الشخص الذي ينوي الصدر الأعظم أن يجعله متصرفاً على الجبل فقلت له : يريد تعيين سابا باشا . فقال لي : الأحسن أن نعين واحداً من عندنا من هنا فإن سابا باشا ناشيء بمصر . فقلت له : مثل من. فقال لي: يوجد هنا شخص لايق جداً للمتصرفية هو أوهانس بك مستشار الخارجية والحقيقة أن نورادنجيان لم يكن يريد أوهانس مستشاراً للخارجية لا يكون ناظرها أرمنياً ومستشارها أرمنياً. فأراد أن يخلص من هذا المحذر بإرسال أوهانس باشا إلى لبنان ويكون ذلك ترقية لأوهانس بك إلى رتبة الوزراء. فقلت لنورادنجيان أفندي: تكلم أنت مع الصدر الأعظم فإنني أنا لا يمكنني أن أنقض غزلي وقد وافقته على تعيين سابا باشا . فقال لي : تكلم أنت معه وأنا أساعدك من جهتي . وألحَّ علي في الموضوع. فذهبت إلى كامل باشا وحكيت له عن مسألة تعيين أوهانس. فقال لي بالعربي: لكن هذا إنجبار ومعنى إنجبار باللغة العامة كما لا يخفى ساذج أو بسيط . فقلت له كيف يكون إنجباراً وهو مستشار الخارجية . فسكت . فبعد ذلك سألني ناظر الخارجية وسألني أوهانس بك نفسه عما جرى فقلت لهما : والله لقد تكلمت مع الصدر الأعظم ولا أعلم ماذا سيعمل . فالتمسا مني أن أراجعه أيضاً . وكنت أنا أرى أن أوهانس بك إذا صار متصرفاً عن يدي فقد يكون أسمع لكلامي من غيره . وهذا عكس ما حدث لأن الحديث الشريف يقول: «إتق شر من أحسنت إليه». فكثيراً ما يسدي الإنسان الجميل ويرى غير الجميل. ثم ازدادت خطوب الدولة وأصبح كامل باشا في شيخوخته رازحاً تحت أعبائها فجئت إليه وقلت له : الأحسن أن تنهي مسألة متصرفية لبنان وتعين أوهانس بك لأنه من مأموري الباب العالي . فقرَّ قراره على ذلك بسببي .

وجئت أنا إلى أوهانس وبشرته وأتذكر أني قلت له إذا تمَّ التعيين النهائي فأطلب منك أن تعزل فلاناً وتعيِّن مكانه من شئت . وأن تعيِّن فلاناً أيضاً في رئاسة مجلس الإدارة . فأخذ اسم الشخص الذي أشرت بعزله واسم الذي أشرت بتعيينه . وقال لي إذا تمَّ الأمر بشكل نهائي فعلت ذلك كما أني سأفعل غير ذلك بحسب آرائك . ثم مضى أسبوعان فجاءني منه بطاقة يقول فيها إنه يريد أن يجتمع بي في أي محل عينته له . فذهبت إلى الباب العالي وقابلته . فقال لي : أنا راض من منصبي الحالي ولكن أريد أن أعلم نفسي هل تتم لي متصرفية لبنان أم لا؟ فأخلص من هذا التردد . وكنت أنا كتبت إلى صديقي الذي أشرت إلى أوهانس بتعيينه لرئاسة الإدارة وقلت له إنني ساع لتعيين رجل

إن تمَّ تعيينه فقد وعد بأن يفعل ما هو كذا وكذا وسأخبرك عن اسمه وإن لم يتم تعيينه فلا حاجة بك إلى معرفة اسمه. ثم ذهبت إلى الصدر الأعظم وقلت له: مادمت قد قررت تعيين أوهانس بك فليصدر أمرك بإجراء المعاملة الرسمية فقال: قريباً نستدعي السفراء ونتمم الأمر. وكان سعيد باشا ابن كامل باشا قد علم بتحويل القضية إلى أوهانس فجاء إلى أبيه وسأله عن سبب تغيير فكره ويظهر لي أنه تلقى كتابةً من سابا باشا. فالصدر الأعظم أجاب ابنه بأني أنا كنت السبب في عدوله عن فكره الأول. فجاء سعيد باشا وعاتبني وقال لي: ما كان ينبغي أن تحمل والدي على تغيير فكره بعد أن كتبتم إلى سابا باشا وعرضتم المنصب عليه. فاستحيت منه وقلت له: إن السبب الحقيقي في ذلك هو نورادنجيان أفندي ناظر الخارجية الذي ألحَّ علي في الموضوع.

ثم تمَّت المعاملة الرسمية وحرِّر الفرمان السلطاني وجئنا فهنأنا أوهانس باشا بالمتصرفية والوزارة وشكر لنا كثيراً وذكرناه بمواعيده فقال أنه سيتممها. وكتبت أنا إلى صديقي الذي سبق الكلام عليه بأن المتصرف الجديد هو أوهانس باشا وأنه وعد بعزل من أشرنا بعزله كما أنه وعد بتعيينك لرئاسة المجلس. ثم أن أوهانس دعاني للعشاء عنده وتحدثنا كثيراً عن أمور الجبل ومن جملة ما قال لي إنه دخل لوداع الحضرة الشاهانية.

فقال له السلطان: ماذا تريدون أن تفعلوا في الجبل. فقال أوهانس باشا للسلطان. نريد أن نجري إصلاحات كذا وكذا. فقال له السلطان ولكن هذه الإصلاحات تحتاج إلى نفقات. فقال له أوهانس: نزيد الأموال الأميرية. فقال له السلطان: لا أريد أن تزيدوا أموالاً على أهالي لبنان فإنهم فقراء. وقد ظهرت على وجه السلطان علامات الشفقة. فروى أوهانس لي هذه القصة ثم رواها في لبنان مراراً استشهاداً على رأفة آل عثمان بالرعية.

وجاء أوهانس إلى لبنان وذهبت إلى مصر ثم جئت إلى فلسطين ثم الشام ومنها بيروت كان قد مضى على أوهانس عدة أشهر فحمل أعدائي على نفوذي حملة شديدة استعانوا فيها ببعض القناصل. فبعد أن كان أوهانس لي موالياً واعداً بأنه يسير بحسب آرائي انقلب مناوئاً يوشك أن يتربص بي الدوائر. ولما قابلته أول مرة في بيروت بدت الغيرة على وجهه وكأنه كان يتمنى أن تكون زيارتي له قصيرة وقد قال لي: أما من جهة فلان فقد عزلته بمجرد وصولي كما رغبت إلي وعينت مكانه فلاناً كما عينت فلاناً أيضاً

لرئاسة الإدارة. فقلت لا منة لك بذلك فإن الذي عزلته كان يدير أمور لبنان من زمن طويل وكان يفعل ما يشاء وقد آن له أن يلزم بيته. وأما الذي أحلت إليه رئاسة المجلس فهو أليق رجل بها. ثم لم أطل الزيارة وخرجت عارفاً أنه أصبح خصماً. وبعد ذلك ذهبت في أيام الصيف إلى بيت الدين ودعاني للعشاء عنده لكنني بعد العشاء ذكرت له مسائل كثيرة أجراها وقلت له: إنك تتذكر كونك عرضت علي قائمقامية الشوف عند تعيينك للمتصرفية ورفضتها وأوصيتك بالتمسك بنسيب بك جنبلاط وتتذكر أيضاً أنك سألتني في الأستانة عما أريده في الجبل فقلت لك ليس لي مطالب شخصية أصلاً لكني أريد منك المحافظة على حقوق الحزب الأرسلاني هذا كل ما أريده. فأنت الآن تعمل لهضم حقوق هذا الحزب فربما يسفر الجو بيني وبينك من أجل ذلك. ولم ينجح هذا الكلام فيه لشدة وطأة خصومي عليه. وأثناء ذلك نشبت الحرب العامة فقبل مجيئي من الأستانة إلى لبنان قدمت تقريراً إلى طلعت وتقريراً إلى أنور بمآل واحد وهو أنهم إذا كانوا يريدون عدم فتح مشكلات وحصول حوادث في الجبل فليحافظوا على امتيازات لبنان كما كانت لأن أهالي جبل لبنان برغم اختلافهم متفقون على لزومها لهم فتصعب عليهم الخدمة العسكرية ويصعب عليهم دفع أعشار ويصعب عليهم دفع أكثر ما يدفعون من المال الأميري المقطوع وهم يريدون أن تكون مأموريات الجبل في أيدي أبناء الجبل فليس في هذه المطالب ما يضر بسياسة الدولة وإنما كان يضر بالدولة تدخل الأجانب فقط فإذا كنتم أنتم تسدون الباب على الأجانب بشرط حفظ هذه الامتيازات التي من أجلها يتدخل الأجانب فاللبنانيون لا يعترضون عليكم. فأنور وطلعت تلقيا هذه الأفكار بالقبول. ولما جئت إلى لبنان كان أوهانس لا يزال في المتصرفية فقلت لجمال إنه كان ينبغي تبديل هذا الرجل وتعيين متصرف مسلم محله لأنه منذ أوائل المتصرفية تعين سبعة متصرفين وهذا هو الثامن وكلهم مسيحيون كاثوليكيون وهذا غير عدل ولابد من إعطاء نصيب للطوائف الأخرى فما ضر لو صار المتصرف في إحدى المرار مسلماً نعم إن نظام لبنان فيه نص على أن يكون المتصرف مسيحياً ولكن هذه النقطة ليست من النقاط التي تهم أهالي الجبل وإنما يهم الجبل حفظ الامتيازات الأساسية التي لا يقدرون أن يعيشوا بدونها كالاستثناء من الخدمة العسكرية ومن الأعشار وكانتخاب المأمورين من الجبل وحده. فقال لي جمال باشا: اكتب أنت إلى طلعت صديقك وأنا أؤيد رأيك. وكان هذا قبل أن يسفر الجو بيني وبين جمال بسبب

العسف والقتل والنفي التي عارضته فيها ولم أزل معارضاً له فيها حتى فارقت بسببها سوريا في أواسط الحرب وذهبت إلى الأستانة وشكوت سوء سياسته إلى جميع المراجع العليا كما يعلم ذلك جميع أرباب الحل والعقد في الأستانة. فكتبت هذه الملاحظات كلها إلى طلعت فاستحسنها وأصدر الأمر بعزل أوهانس باشا، ولما كان علي منيف بك صديقاً لي ولابن عمي الأمير أمين مصطفى قال له طلعت: يمكنك أن تتولى متصرفية لبنان مدة أشهر حتى تستتب الحال ثم تعود إلى هنا وأنا سأبقي لك مستشارية الداخلية مفتوحة لا يشغلها سواك وأنت لك في لبنان عضد متين من أصحابك الأرسلانيين. فجاء علي منيف وأحسن الإدارة وأظهر حنواً وعدلاً لايزال يذكرهما له جميع أهالي الجبل ولم نتوسط لديه لا أنا ولا ابن عمي إلاّ بخير. أما أوهانس فما رأيته بعد ذلك إلاّ مرة واحدة عندما جئت الأستانة أواخر سنة ١٩١٦ بعد خلافي مع جمال باشا فقد صادفته في النفق الحديدي بين بك أوغلي وغلطة وكان حاضراً صوفي بك رئيس بلدية بك أوغلي فقال لي صوفي بك: كيف كان أوهانس باشا معك عندما كان في لبنان؟ فقلت له: لم أكن شاكراً له لأنني كنت السبب في تعيينه للمتصرفية وأقول هذا في وجهه وقد اغتاظ مني أناس بهذا السبب وهو قد كافأني بغير ما كنت أنتظر مع أني لم تكن لي عنده مطالب شخصية وكانت نتيجة مساعدتي له أنه لما ذهب إلى الجبل أخذ يهضم حقوق حزبنا الذين هم أصدقاء الدولة. وكان أوهانس يسمع ويغبر وجهه ويضطرب ولا يجيب بكلمة. فقال لي صوفي بك: وكيف كان من جهة عفته ونزاهته؟ فقلت له: أما من هذه الجهة فلم أسمع والله شيئاً يشينه. قلت لك إنني غير شاكر سياسته معي لكنني حاشا أن أقول ما لا أعلم وأتهمه بشيء لم أسمعه عنه. فعندما سمع أوهانس باشا هذا الكلام عاد فأشرق وجهه وفرح وعندما خرجنا من النفق قال لي: أشكرك شكراً جزيلاً وأما الماضي فقد مضى وأعتذر عما فرط منه. فهذه قصة متصرفية أوهانس باشا التي ربما كانوا يظنون في لبنان أن الملوك والسلاطين والوزراء والسفراء لبثوا مدة يدوكون فيها وقد كانت بسيطة جداً كما تقدم.

شكيب أرسلان.

رسالة من طنجة وجواب الأمير

أرسل أحد الفضلاء من طنجة في المغرب رسالة إلى الأمير شكيب بتوقيع «تج» لم يكشف عن اسمه، وقد أجاب عنها برسالة نشرتها جريدة «الفتح» العدد ٢٦٥، في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٥٠ هـ.

سعادة المجاهد الكبير السيد الأمير شكيب أرسلان دمتم في رعاية الله. وسلام على مقامكم العزيز مصحوباً بالرحمة والبركة.

أما بعد فالذي يمنعنا من مكاتبتكم هو الذي لا يخفى عليكم من تسيطر الاستعمار المستبد فلقد طالما خفقت قلوبنا لنتشرف بمخاطبتكم اللذيذة لأنها لا زالت ترن في آذاننا تلك العبارات اللطيفة التي كنت تلقيها علينا حينما كنتم ببلدنا «طنجة» قياماً أسرع تلك السويعات التي كنا نتنعم فيها بطلعتكم البهية، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله. فقد والحمد الله نتنعم بما تجود به قريحتكم الوقادة على الصحيفة الإسلامية «الفتح»، فإننا بعد التي والتيا والوسيطة والوسائط نتوصل إليها ونستورد من مائها العذب ونشفي علتنا بما نرده عليها، لأن هذه الصحيفة الإسلامية ممنوع دخولها لطنجة تبعاً للمنطقة الفرنسية كما هو بعلمكم. ورغماً عن هذا المنع فإننا نخاطر حتى تصل إلينا. هذا والذي أرجوه منك الآن هو أن تجاوبني على صحيفة الفتح عن المدرسة المسماة: «النجاح» في نابلس الشام هل لها اتصال بالمدارس الأمريكية للمبشرين في بيروت أم لا. فهذا ما نرجو الجواب عليه من شهامتكم لأنني أرى بعض التلاميذ يزيدون على العشرة من مدينة تطوان يؤمون هذه المدرسة، أردت إظهار الحقيقة هل هم مغرورون أم لا وختاماً تفضل يا حضرة المجاهد الكبير بقبول فائق احترامنا. وعذرنا عن عدم وضوح اسمنا واضحٌ.

طنجة تحريراً ٢١ ربيع النبوي عام ١٣٥٠ — تج

وقد أجاب الأمير عن هذه الرسالة بما يلي:

حسبي شاهداً على ظلم الاستعمار وعلى شدة استبداد فرنسة بإخواننا المغاربة أن يأتيني كتاب من طنجة لا يتجاسر فيه صاحبه أن يذكر اسمه.

هذا وطنجة منطقةٌ دولية لا فرنسية محضة. فإذا كانت المنطقة موزعة بين عدة دول وهذه حالها، فكيف تكون المنطقة التي تحت حكم فرنسة مباشرة والتي يلي

أمورها مثل ذلك «القديس».

ولم يكف طنجة المسكينة الضغط الاستعماري الذي ناء عليها بكلكله وحرمها حرية الاجتماع والقول والفكر بفضل محررة الأمم فرنسة!!! حتى حلّت بها من الضيق الاقتصادي حولها من منطقة دولية إلى منطقة إسبانيولية إلى منطقة فرنسية.

وكل منطقة من هذه الثلاث مملكة على حدة لا يقدر أحد أن يخرج من واحدة إلى أخرى إلاّ بمعاملات طويلة عريضة وإشارات على تذاكر الجواز ولا يمكن بضاعة أن تمر من منطقة إلى منطقة حتى تدفع المكوس أولاً وثانياً وثالثاً.

فالبضاعة التي ترسل من طنجة إلى الداخل عليها دفع مكس إسبانيولي ثم مكس فرنساوي فلهذا نقطع تقريباً إرسال البضائع عن طريق طنجة.

وبعد أن كانت طنجة من أزهر مرافىء البحر المتوسط وأبسم ثغور المغرب عادت إلى التقهقر والتردي وأصبح كل ما يرد إليها من البضائع طول السنة ٨٠ ألف طن لا غير.

وإن طالت هذه الحال على طنجة فليس أمامها إلاّ الخراب، ويا للأسف، لأنها من أجمل المدن البحرية في العالم وأهمها موقعاً، وهي درة جيد بحر الزقاق وليس لها نظير في نحور البحور.

ولقد ثار أهل طنجة في الأيام الأخيرة من مسلمين وأجانب، وقدموا شكواهم إلى الدول مما ينذر بلدتهم في الخراب التام فتذاكرت الدول في هذا الأمر وقررت عقد مؤتمر للبحث في طريقة للتنفيس من خناق طنجة الاقتصادي - لا السياسي الذي لا تنفيس له إلاّ بإعادة البلاد إلى أهلها - وبينما هم منتظرون الفرج إذ ورد الخبر بأنه تقرر عقد مؤتمر للمذاكرة بأمور طنجة وذلك في باريز.

وجريدة (جورنال دوجينف) وهي المشهورة بتعصبها لفرنسة نشرت أمس خبراً لمراسلها في طنجة يقول فيه: إن أهالي طنجة تلقوا جميعاً بدون استثناء خبر عقد مؤتمر طنجة في باريز بمزيد الاستياء.

منكرون للجميل هؤلاء الطنجيون، كافرون بنعمة الأم الحنون!!!

أما وقد وصفنا شيئاً من حالة طنجة فإني أجيب ابنها البار الذي لا يجرؤ أن يوقع

على كتابه لي ويلتمس مني نشر الجواب في «الفتح».

مدرسة النجاح بنابلس مدرسة إسلامية صرفة ليس لها علاقة بالمبشرين، وهي تتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وهي من خيرة المدارس في الشرق وحبذا لو تعدّدت في العالم الإسلامي المدارس التي هي مثلها.

ومن أزكى ثمرات هذه المدرسة الشبان التطاونة من آل بنونه وغيرهم ممن سيكونون أنجماً في أفق المغرب.

فليحرص السادة الطنجيون على إرسال أولادهم إلى مدرسة النجاح في نابلس وليضعوا أيديهم من جهة فساد المبشرين في ماء بارد.

فأرض نابلس في مقدمة الأرضين التي لا ينبت فيها بزرة واحدة للتبشير.

لوزان: ٨ ربيع الثاني ١٣٥٠.

شكيب أرسلان

حسن كامل الصباح

وجدت هذه الرسالة بين أوراق المرحوم محمد قره علي (١٩١٣ ـ ١٩٧٨)، والنسخة الأصلية لم نعثر عليها، كتبها الأمير في ٧ شوال سنة ١٣٥٦ هـ. وتناول فيها المخترع اللبناني حسن كامل الصبّاح (١٨٩٥ ـ ١٩٣٥) أحد نوابغ العصر الذي سجلّ اختراعات في مجال الفيزياء الكهربائية والالكترونية، جعلته من كبار العلماء في العالم.

قد كانت لي علاقة مع صاحب هذا القبر السيد كامل الصبّاح العبقري العربي المخترع الكبير مفخرة العرب وحجة الشرق على العرب وقد كانت لي معه مراسلات هي من أجمل ذكرياتي إلاّ أنه لم يقسم لي القدر أن أحظى برؤيته ومازلت أتشوق إلى ذلك إلى أن توفاه الله إلى رحمته وفجعت به الأمة العربية، فكنت أحنُّ إلى زيارة قبره ومازلت أحنُّ إلى أن يسّر اللهُ ذلك في هذا النهار وزرت جدته الشريف قارئاً له الفاتحة وسائلاً مرجع الخلق جميعاً سبحانه وتعالى أن يجمعنا في عالم الأرواح ويحشرنا مع الذين أنعم عليهم، وأن اجتماع الآخرة هو خير وأبقى من اجتماع الديار.

٧ شوال ١٣٥٦

شكيب أرسلان

اللُّغة بين أميرين

كانت للأستاذ أمين آل ناصر الدين ملاحظة على بعض كلمات وردت عند الأمير فأجابه الأمير، وعلى الجواب تعليق لأمين بك، نوردها في ما يلي(*):

جناب الأخ الأجل الأفضل:

إن الكلام في فضل الأخ ورسوخه في اللغة وتحقيقاته الممتعة ومآثره في إقامة العربية على قواعدها كله يعد زائداً ولا تحتاج الحال إلى بيان مثلي.

ولكن أرجو من الأخ أن يسمح لي بالملاحظات الآتية:

لا يجوز جمع المصدر ولا تثنيته. هذه قاعدة لا أُجادل فيها، ولقد ذكرتها من قبل. ولكن لكل قاعدة شواذ، ولست أوافق على أنهم لما قالوا في جمع بيع «بيوع» أرادوا بالبيوع الأشياء المبيعة. كلا لم يريدوا بها الأشياء المبيعة بل أرادوا أنواع البيع المتعددة نفسها وهي كثيرة لا حاجة بنا إلى شرحها يعرفها من طالع كتب الفقه. وهذا لا ينفي أن «البيع» قد يأتي بمعنى «المبيع» ويجمع في اللغة على «بيوع» كما في لسان العرب والتاج.

وأما «الدعاية» فإن كانت وردت في الأثر النبوي فليس بضروري أن نظنها من خطأ النساخ. وليس انقلاب واوها ياء شيئاً غير معهود في كلام العرب.

الأخ يرى أنه إن كانت وردت صيغة «فعالة» من فعل «دعا» فلابد أن تكون «دعاوة» لأن الفعل واوي. وهذا صحيح وهو القاعدة.

ولكن قد جاء في هذا الباب ما يخالف هذه القاعدة.

بل في مادة «دعا» نفسها جاء «الأدعيَة» كما جاء «الأدعوَة».

قال صاحب لسان العرب: «والأدعية والأدعوة ما يتداعون به». ثم أردف صاحب اللسان كلامه هذا بقوله: «صحت الواو في أدعية لأنه ليس هناك ما يقلبها ياء ومن قال «أدعية» فلخفة الياء على حد «مسنية».

(*) نشرت هاتين الرسالتين جريدة «الفتح» في العدد ٣٢٣ في ١٧ شعبان سنة ١٣٥١ هـ.

مراده أن «الأدعوة» تقال لأن أصل الفعل واوي وأن «أدعية» تقال ولو كان أصل الفعل واوياً وذلك لخفة الياء كا قالوا أرض مسنية أي أرض سناها الغيث يسنوها فحقها أن تكون مسنوة.

إذاً قد جاء من أفعال واوية صيغ بالياء وإليك هذا المثال الآخر:

فعل «حجا» واوي يقال حجا السر يحجوه أي يحفظه، وراع لا يحجوا أبله أي لا يحفظها ومع هذا فقد جاء منه «الأحجيّة» كما جاء «الأحجوّة».

قال في اللسان: حاجيته فحجوته وهي الأحجية والأحجوة وبينهما أحجية يتحاجون بها وقال الأزهري: والأحجية اسم المحاجاة وفي لغة «أحجوة» والياء أحسن.

وأما «مسنية» التي جعلها اللسان مثالاً فكان حقها أن تكون «مسنوة» لأن فعل (سنا) واوي يقال سنا الغيث الأرض يسنوها قلبوا الواو ياء كما قلبوها في (قنوة) فقد جاء قنوة وقنية والفعل الأصلي واوي.

فإن ثبت ورود (دعاية) في الأثر فلا موجب للقول بأنها خطأ في النسخ لأنه قد وردت في كتب اللغة لفظة (الدعاوة) ويجوز أن تكون (الدعاية) من باب العدول عن الواو إلى الياء لخفة الياء. وذلك كما قالوا أدعوة وأدعية كما مرّ بك.

والسلام على أخي ورحمة الله وبركاته.

جنيف شكيب أرسلان

* * *

أما ما تفضل به الأمير أيّده الله من الشهادة لهذا العاجز بالرسوخ في اللغة والتحقيق فهو مما يرفع الرأس ويوجب الفخر، ولكن ما عهدته في نفسي من نضوب الروية وقلة العلم يحملني على أن أعدَّ شهادة أمير البيان من قبيل حسن الظن.

وأما رأيي في (الدعاية) فقد بنيته على القياس اللغوي لا ابتداعاً ولا اجتهاداً لقول علماء اللغة أن المقيس أحق من الشاذ بأن يتبع وإذا كانوا قد

أجازوا قلب الواو ياء فقالوا (دعاية) و(أدعيّة) و(مسنية) (وأحجية) و(قنية) قصد التخفيف، فذلك لا ينفي أن القاعدة الأصلية غير ذلك.

ومهما يكن من الأمر فإن ما يراه الأمير حسناً في الاستعمال من مذاهب اللغويين ليس لمثلي أن يأخذه عليه ورأيه مفصل الصواب، وكل باحث في اللغة له مذهب فيها منذ كان البصريون والكوفيون إلى يوم الناس هذا.

أمين ناصر الدين

الثقافة العصرية والذهنية الشرقية

وهذه مقالة نشرها الأمير في جريدة (الجهاد) الحلبية لصاحبها محمد لطفي الحفار، في ١٦ أيار سنة ١٩٣٢، تحت عنوان «الثقافة العصرية والذهنية الشرقية» وقد ضمنها آراءه في الثقافة والسياسة والأدب والفقه.

مما لا شك فيه أن الثقافة العامة لاتزال في الشرق قاصرة وأن أكثر أهالي الأقطار العربية يخبطون في الأمور العامة خبط عشواء ولو كان السواد الأعظم منا عامياً ساذجاً لا يبدي ولا يعيد في الأمور العامة تاركاً إياها لأربابها المختصين لكان الخطب أيسر مما نراه الآن إذ كان هذا الجمهور يسلم أموره لأولئك النفر المتخصصين ويسير على قاعدة من قلد عالماً لقى الله سالماً. ولكن الحالة مع الأسف ليست كذلك. بل كثير عندنا في الشرق هذا النوع الذي هو بين العالم والجاهل. هذا النوع الذي ليس لعالم فيدري وليس بعامي فيدري أنه لا يدري. هذه الطبقة التي تظن نفسها وصلت إلى درجة العلماء وهي في الحقيقة لم ترتفع إلاّ قليلاً عن حضيض الجهلاء. وهذا هو البلاء الأعظم وهذا هو المصاب الذي يزيد بكثير على مصاب الأمم بالجهل المطبق فإن الجاهل كما قلنا يذعن وينقاد للعالم الذي هو من فوقه فيزيد بذلك القوة المؤيدة للعلم ولهذا قيل إن الجهل البسيط هو أقل خطراً من الجهل المركب الذي هو العلم الناقص. وأما الذي يصح فيه لقب نصف عالم أو ثلث عالم أو ربع عالم فإنه لا يعد نفسه ممن يجوز أن يقلد عالماً أوسع منه علماً ولا يرى هذا القليل الذي عنده قليلاً بل يراه كثيراً ويراه بحراً زاخراً وكيف يمكنك بعد هذا أن تقنعه بنظرية لم تدخل في عقله أو برأي قصر عنه علمه الذي ليس قاصراً في نظره هو وإن كان قاصراً في الواقع.

وأكثر الخبط إنما يقع في السياسة لأنها متناول الجميع ومدار الأحاديث اليومية فكل العلوم يقع فيها التجدد والحدوث والتولد المستمر إلاّ أن السياسة أعرق في التجدد والحدوث من كل شيء لأنها كل يوم في شأن وقد توجد في سائر العلوم قواعد مقررة أبدية أو مظنون أنها أبدية أو على كل حال مما تفني القرون قبل أن يتبدل أو مما لا يمكن أن يتبدل أصلاً لأنه مبني على المنطق الذي هو متعلق بالعقل البشري الحالي وبتركيب الدماغ الفسيولوجي على ما هو عليه.

أما السياسة فإنها وإن كانت لها قواعد وضوابط فإنها أبعد عن الدخول تحت الضبط وأنشز عن الإحاطة وذلك لأنها تتعلق بالحوادث اليومية وترجع إلى الحركات المستمرة التي لا تعرف قراراً. وقد تكون فيها الأهواء الشخصية والمنافع الخاصة بالأفراد أو بالجماعات أوسع عملاً من الحقائق الثابتة ومن المنطق السديد. والعقل يعمل في العلوم ولكن السياسة يعمل فيها العقل والهوى معاً.

ولما كانت السياسة أعرق الأمور في التجديد والتقلب كان بديهياً أن تكون مدار الأحاديث والأسمار ومناطاً لجوانب الأخبار. فالناس على الإطلاق يشتغلون بها. كل من الناس يشتغل بها على قدر فهمه ولكنه يشتغل بها مهما كان رأس ماله في هذا الباب ضعيفاً. وإذا كان المشتغل بالسياسة ممن يقرأ ويكتب وكان مشتركاً بجريدة ففي أكثر الأحيان تكون أفكاره السياسية بحسب أخبار الجريدة التي يقرأها.

وليس تأثير الجريدة في ذهن المشترك أمراً خاصاً بالشرق بل هو عام للشرق والغرب معاً.

ولكن عمل الجريدة في ذهن الشرقي أعظم منه في ذهن الغربي لأن الثقافة الفكرية في الغرب أوسع نطاقاً وأبعد مدى. فالغربي قد يثور على جريدته وقد يحاكمها وقد يقايس قولاً بقول آخر أما الشرقي فعلى وجه الإجمال لم يبلغ هذا المدى وربما لا يهضم كل ما يقرأه فيفهمه على غير وجهه ويأخذ من الحادثة والحادثتين قواعد كلية. وقد تكون الجريدة هي نفسها مخطئة في استنتاجاتها فيزداد ضلال القارىء وتصير ظلمات بعضها فوق بعض والقارىء نصف العالم أو ربع العالم أشبه بمن سمع بعض أشياء من الطبيب فيظن أنها كافية له أن يتعاطى الطب فتجده يأخذ بالعمل على غير هدى ويستنتج نتائج واسعة من مقدمات ضيقة فيهلك من يستطب عنده.

ومن أجل خوض الناس فيما لا يعرفون تجد الرأي العام أحياناً يتيه تيهاناً بعيداً عن الحقائق وكثيراً ما يورد الأمة موارد الهلكة لاسيما إذا كان قواد الرأي العام من هذه الطبقة التي يصدق عليها وصف «نصف عالم» أو كانوا من العلماء بالفعل ولكن ممن الأغراض الشخصية أعمتهم عن الحقائق وجعلتهم يستثمرون لأغراضهم وأهوائهم جهل العامة. فإن كثيراً من الزعماء ذوي الأطماع الواسعة لا يجهلون الحقائق وإنما يتجاهلونها عمداً ويظهرون اقتناعهم بالآراء السخيفة التي تدور في الشوارع حرصاً على استمالة الدهماء إليهم فحيث لا يقل العلم قد يقل أحياناً الوجدان وكلاهما إذا قل مورد هلكة لا ريب فيها.

ولما كانت الأمثال ضرورية لجلاء الحقائق وتقريبها إلى الأفهام كان لابد من إيراد بعض الأمثال على الخبط الناشيء عن المقدمات الساذجة والمعلومات الناقصة وذلك في أكثر بلادنا العربية.

فإنه من المعلومات العامة المقررة أن الغرب قوي والشرق ضعيف وأن القوي من المخلوقات يأكل الضعيف. سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ثم أن من المعلومات المتفق عليها في الشرق أن الدول الغربية القوية لا ترتاح إلى نهوض الأمم الشرقية لاسيما الأمم الإسلامية التي ألقى عليها الاستعمار الغربي بجرانه. . وكل أمة شرقية أو إسلامية لا تقدر أن تتحرر إلاَّ بشق الأنفس وسفك الدماء وليال طويلة ظلماء وذلك بسبب جشع الدول الغربية المستعمرة التي إنما تسعد بشقاء الشرقيين وتحيا بفنائهم وهذه القواعد صحيحة ثابتة لا غبار عليها ولا كلام فيها. ونحن كنا ولا نزال في طليعة القائلين بها والداعين إلى الحذر من الأوروبيين من أجلها. ولكن من أشد الأمور خطراً على الشرقيين وأجدرها بأن تضلهم عن طرق السلامة تلقي هذه القواعد على إطلاقها والظن بأنها لا تنحرف يمنة ولا يسرة ولا تقبل بوجه من الوجوه صرفاً، ولا عدلاً. إنه ليس في الدنيا قواعد مطلقة لا يتطرق إليها الاستثناء. وإنه ليس في الدنيا كليات تجري مجراها في الخلق على طريقة مثل لا تعرف عوجاً ولا أمتاً. ومن الكليات الفقهية أن (القديم يبقى على قدمه) ولكن هذه قاعدة صادمها (إن الضرر لا يكون قديماً) وليس في الواقع التعارض الذي بينهما مخلاً بالكليات الفقهية ولا دليلاً على كون الفقه فوضى وإنما هو استثناء متوقف على حادث خاص. وكل من يزعم القاعدة الكلية لا تقبل صرفاً ولا عدلاً يكون كالحاكم الذي يتمسك بقاعدة أن (القاتل يقتل) ثم يمر به

حادث قتل خطأ أو في محل دفاع عن النفس فيحكم بالفور بدون نظر إلى الظروف الخاصة التي أحاطت بتلك الحادثة.

فإذا كان هذا في باب الفقه فما قولك في السياسة التي تتلون كل يوم بلون ويجوز فيها اليوم ما كان محرماً بالأمس. السياسة الدولية التي ليس فيها صديق ولا عدو وإنما هي منافع كيف تصادمت جاءت بالعداوة وكيف تلائمت جاءت بالصداقة السياسة الدولية التي ليس فيها مبادىء مقررة ولا خطط مطردة وإنما هي موازنة قوى ودفع بعض الناس ببعض.

رسالة البلاشفة

رسالة البلاشفة أو ما كتب الأمير شكيب أرسلان، عن(البولشفيك)،فبها أسرار مهمة وقضايا أساسية، ومسائل بارزة على جانب كبير من الأهمية.

وفي رسالة بعث بها الأمير إلى صديقه محمد علي الطاهر (لا يوجد تاريخ للرسالة) يقول له فيها:

«... إن المغرب مهدد بخطر البولشيفيكية، وكتلة العمل القومي هناك باعثة إلينا تطلب رسالتنا عن البلاشفة. وهي التي طبعناها في (الجهاد) المصرية سنة ١٩٣٤، وذلك لطبعها وتوزيعها.

ثم يستطرد الأمير قائلاً:

فما العمل حتى نحصل على مقالاتنا عن البلشفة والبلاشفة أفلا توجد مجموعة (الجهاد) في خزانة الكتب المصرية؟

أم يمكن تكليف أحد يأخذها من إدارة الجهاد. وهي ١٢ مقالة يستدلُّ من هذه الرسالة على أن الأمير شكيب لم يكتب مقالة واحدة فقط، إنما كتب في هذه الموضوع عدة مقالات، والمقالة التي بين أيدينا عثرنا على واحدة منها فقط فيما يتعلق بالبلاشفة والباقي مجهولاً. وهنا، الرسالة، كما جاءت بخط سكرتيره الذي كان يكتب له المقالات والرسائل، بناء على إملاء الأمير، وقد كتب الأمير عنوانها ووقعّها بخط يده.

ما كتبته عن البولشفيك من إحدى عشرة سنة

في حواشي حاضر العالم الإسلامي في الجزء الثاني صفحة ٣٨٢: في الخبر عن أنور: «ولما فارقته في موسكو في أوائل يوليو (تموز) سنة ١٩٢١

لم أنس وأنا على ثنية الوداع الأخير أن أحذره من التهور في الخلاف مع مصطفى كمال باشا وإيقاد فتنة في ذلك الوقت الذي يتحتم فيه الاتحاد التام بين الأتراك. ويظهر أن مصطفى كمال نفسه أرسل إلى حكومة موسكو يشكو من حركات أنور ويلتمس منه أن لا تمد أنور بشيء مما كانت وعدته به من مال وسلاح. فأمسك السوفييت بعد ذلك عن إجابة طلبه من هذه الجهة وجعلوا ذلك عذراً لهم بعدم الإمداد وأنا ما صدقت أصلاً منذ البداية أن البولشفيك كانوا يريدون الجذب بضبع أنور فعلاً وتمكينه من القتال والنضال وإنما كانوا يأخذونه بالرويغة ويمنّونه الأماني ليبقى في يدهم وليهددوا به أنجلترا وينالوا منها وطرهم على ظهر اسمه مع التيقظ التام لحركته وحركة أعوانه والحذر من سريانها إلى مسلمي الروسية الكثيري العدد. لاسيما أن أنور أعلن الحكومة الحمراء مراراً أنه هو ومن معه ليسوا شيوعيين وأن النقطة الجامعة بينه وبين البولشفيك هي مقاومة الحلفاء لا غير. والحال أن البولشفيكيين لا يركنون إلاّ إلى من كان شيوعياً مثلهم قولاً وفعلاً. وكنت نبهته مراراً إلى خطى إقامته بموسكو قائلاً له: «إن الحمر لا يجهلون أنك أكبر دعاة الجامعة الإسلامية اليوم وهم يناهضون هذه الجامعة مثل مناهضة الإنجليز لها أو أكثر لأن في الروسية لا أقل من ٣٥ مليون مسلم جميعهم متصلة بلادهم بعضها ببعض وبسائر بلاد الإسلام وهم يذكرون ماضي ملكهم وسابق عزهم فلاشك أن الرّوس يحسبون ألف حساب للحركة الإسلامية بين هؤلاء ويحذرون منهم ومنك بنوع أخص. وهم إذا كانوا يعلنون للعالم الآسيوي استعدادهم لمناصرته وتحفزهم لمعاضدته في موقف تحريره هذا فلا يعملون ذلك إلاّ على شرط البلشفة ولا ينصرون الإسلام وهو على قواعده الحاضرة إذ يرون فيها من الخطر على التركستان الروسي ما يرى الإنجليز على الهند، فكان أنور يجاوبني: إنني أنا تعهدت لهم بأن لا آتي بحركة إسلامية في أرضهم وأقنعتهم بأن عندنا شغلاً آخر مع غيرهم وحسبنا أن نخلص أنفسنا من سيطرة الإنجليز ولقد علموا أنه لما ثار بهم أخي نوري في القوقاز وقاتلهم وقاتلوه نهيته عن قتالهم وأعلنت عدم رضاي عن عمله حتى أجهضته عن تلك الثورة. فكنت أقول له: إلاّ أن ذلك لا يمنع حذرهم منك ووقوفهم لك بالمرصاد ومن باب الرأي عندي أن تبرح موسكو إلى بلاد أخرى

قبل أن يقع الخلاف بينك وبينهم فإما أن تقيم هذه المدة بألمانية وإما أن تذهب إلى بلد مثل أفغانستان حيث يستقبلك أميرها براً وترحيباً» انتهى.

ثم ذكرت كيف اختلف معهم حسبما توقعت وقلت: لما يئس أنور من حمل الروس على إمداده بالمال والسلاح ورأى أن كل ما وعدوه به من هذا الضرب كان برقاً خُلَّبا وكانت غايتهم منه أن يهددوا به الإنجليز ويجعلوه رقيباً لمصطفى كمال حتى إذا خرج هذا من يدهم رموه بأنور بك. أنور يضمر العداوة للحمر وفتح أذنه لأقوال المسلمين التتر الذين كانوا يطالعونه بما في أنفسهم من السخط من جراء نهب البولشفيك لأملاكهم وأموالهم وسعيهم في بلشفة المسلمين وإهدارهم دماء الألوف وعشرات الألوف منهم في أذربيجان وقازان وتركستان وطاغستان ثم من كونهم بعد جميع تلك المواعيد التي بذلوها بأعطاء هذه البلاد الإسلامية استقلالها عادوا فاسترجعوا كل ما كانوا سمحوا به واستأنفوا سياسة الروسية القومية وبطشوا بمن قاومهم من المسلمين بطشة جبارين إلى غير ذلك مما وقَّر في نفس أنور وحداه على تغيير سياسته والرجوع إلى سياسة أخيه نوري الذي كان يعذله على ممالأته للبولشفيك فصار أنور يترقب فرصة للتملص من موسكو وينظر ذلك القصر المنقطع النظير الذي أنزلوه به حبساً إلخ.

ثم ذكرت في أثناء الكلام على طلعت: «وكان طلعت قد مال بادىء ذي بدء إلى البولشفيك وحصلت له صلة مع «رادك» أحد زعمائهم وتفاءل خيراً بالعمل معهم حتى حدثته نفسه أن يذهب إلى موسكو ولكن قبل قتله بقليل رأيته زاهداً في مودتهم وصرح لي قائلاً: إن هؤلاء نقضوا كل ما كانوا وعدوا به المسلمين من الاستقلال والحرية واستأنفوا سياسة بلادهم القومية أفلا ترى كيف فعلوا بأذربيجان وضموها ثانية إلى الروسية بعد أن كانوا اعترفوا باستقلالها؟».

هذا ما كتبته من إحدى عشرة سنة. وقد تكرر في الطبعة الثانية من هذا الكتاب. وفي أثناء ذلك ورد علينا أخبار من الروسية عما يصنعه البلاشفة بالمسلمين وجاء سعيد بك شامل من بولونيا عمداً لمواجهتي يوم كنت في لوزان وروى لي الأمور تفصيلاً. فأشرت عليه بأن يؤلفوا وفداً ويطوفوا على

العالم الإسلامي ويخبروا الناس بحقائق أحوال البولشفيك حتى يحذر الناس منهم. ثم ذهب سعيد شامل إلى باريس وكتب لي من هناك ولم تمض مدة حتى تقرر عقد المؤتمر الإسلامي في القدس واليد البيضاء في ذلك كانت لسماحة الحاج أمين الحسيني فبعثت إلى سعيد بك شامل ليذهب إلى هذا المؤتمر ويتكلم عن فظائع أعمال البولشفيك فذهب هو ورجلاً من أدباء مسلمي الروسية اسمه عياضى اسحٰق وتكلما في المؤتمر عن أعمال البولشفيك وكنت أنا كتبت تقريراً إلى المؤتمر بما علمته عن ثقة من إرهاقهم للمسلمين عموماً وحملاتهم على الدين الإسلامي كما على الدين المسيحي وأشد. وبناء على كلامهما وعلى تقرير هذا العاجز أبرم المؤتمر الإسلامي قراراً يحذر فيه العالم الإسلامي من البلشفة والبلاشفة ويقبح أعمالهم ومباديهم. وفي ذلك الوقت حملت عليَّ جرائد موسكو حملة شديدة. وفي الصيف الماضي كتبت في الجهاد بضع عشرة مقالة أفصِّل فيها ما أعمله من أعمال البولشفيك تفصيلاً. وفي أثناء الثورة السورية جاء منهم من كالمني في إعانة الثورة وكانوا تكلموا مع المرحوم رشيد بك طليع في القدس فأحالهم عليَّ وكتب لي بالموضوع فأجبته بأنه لا يؤمل منهم شيء وأن كل ما يريدونه هو نشر البلشفة. والحال أن هذا خلاف مبادينا لأننا نريد تحرير بلادنا على أساس القومية لا على أساس البلشفية. ولكن عندما كان البلاشفة يدخلون معي في مفاوضة ويقولون إنهم مستعدون لمساعدتنا كنت أقول لهم: لا تدخلوني في الموضوع بل عندكم من أبناء فرقتكم أناس في فلسطين فليتألف لجنة بلشفية صرفة ولتسرب ما تريده من المساعدات إلى رجالات الحركة الوطنية والقائمين بالثورة. اعملوا ذلك رأساً وهذا ممكن جداً لو أردتم. وكنت أبيِّن لهم كيفية المعاونة وابتعد عن هذا الموضوع بقدر ما أستطيع خشية سوء القلة وأن يأتي فيما بعد من يقول عنّي إنه دخل عليَّ شيء من مال البولشفيك!.

ومع هذا فلما غضبوا برز منهم من بلغت به القحة أن يزعم هذا الزعم الذي نقله عنه نزيه بك المؤيد والعهدة عليه في الرواية. وهذه أول مرة سمعت فيها أن واحداً من البلاشفة ادّعى أن البلاشفة بذلوا لي مساعدات مادية!

ولا عجب فالذي بلغت منه عداوة الأعداء أن زوَّروا عليه مكتوباً بتمامه

أن يأتي بولشفيكي ويتكلم عنه من بعيد حيث هو غير موجود بما يوافق غرضه ويكون انتقاماً منه عما كتبه بحق البولشفيك.

جنيف ١١ صفر		شكيب أرسلان

عصامي من الدرجة الأولى

كانت (البيان) لصاحبها الأستاذ سليمان بدور (١٨٨٨ ـ ١٩٤١)، من أقوى الجرائد العربية في المهجر الأميركي، وكانت جريدة البيان في عهدة سليمان بدور تتابع أخبار الأمير وتنقل الكثير من مقالاته وتتابع تحركاته ونشاطاته، حتى أنها صدرت بعددٍ خاصٍ ممتازٍ عنه، وكان الأمير من كبار كتّاب الجريدة ومن أشد المعجبين بجهاد سليمان بدور ونضالاته في الحقل الصحفي والسياسي والوطني.

وهنا، مقالة للأمير، تتحدث عن مناقب صاحبها ومزاياه وصفاته، نشرت في (البيان) في ٢٦ آذار سنة ١٩٣٥.

إذا نظرنا إلى العصاميين المعدودين في هذا العصر المشهود لهم بأنهم أنشأوا أنفسهم بأنفسهم وعرجوا إلى سماء المجد بمجرد مداركهم واعتاضوا من الدرس والحفظ بصفاء قرائحهم وبعد هممهم لم يكابرنا أحد في أن سليمان بدور صاحب جريدة البيان هو في طليعة هذه الحلبة لا يمارى في عصاميته البالغة إلاّ من حرم العقل أو فقد الوجدان. لم يتخرج سليمان بدور من جامعة ولا حاز الشهادات ولا البكالوريات ولا قدر له في حداثته أن يحصل ما حصله غيره ممن ارتضعوا أفاويق العلم في المدارس العالية ولكنه بأصالة رأيه وذكاء فطرته وسعة إدراكه ومتانة عزمه وتوقد حميته قام، بما قعد عن مثله الكثيرون من خريجي الجامعات وأشياخ الجوامع وأساتيذ العلوم المتنوعة وأتى ببرهان ساطع على أن العقل هو أشرف المواهب وأنه لا يعدله شيء وأن العقل قد يستغني عن العلم في الأحايين ولكن العلم لا يستغني عن العقل ولا في حين. أنشأ بدور جريدته البيان هذه التي لو لم يكن من مزاياها سوى أنها جريدة وطنية حرة صافية المشرب الحر لكفاها ذلك فخراً وجزاها عن كل شهادة وتزكية إذ كل أحد يعلم أن البيان لم يشأ أن يتلوث بمنافع الاستعمار ولا شاب عروبته القحة شائب من نزعة أجنبية تجلبب الثبات وارتدى استقامة الخطة من أول أمره وذاق في هذه السبيل مرارات يعرفها من يعافيها ولم يتحول عن خطته ولا انحراف عن جادته ولبث يجاهد الاستعمار

القوي المسلح ويناصر الاستقلال الضعيف الأعزل غير مبال بقوة ذاك وضعف هذا بل ناشداً ما في هذا من الشرف وناكباً عما في ذاك من الانحطاط . يعمل الواجب الذي عليه حتى إذا عاش عاش كريماً وإذا مات مات شريفاً . ولمثل هذا فليعمل العامل .

وجدت النزعة العربية في «البيان» كهفاً منيعاً وطوداً أشم ومناراً كان يعشو إلى ضوئه الحيارى من أبناء الوطن الذين كانوا لا يعلمون أية خطة يجب أن يسلكوها ولا يعرفون الدعائم التي قام عليها دين الوطنية القويم فكان لهم من البيان هداية وقتهم ثنيات الطرق وشعاب الضلال وشفت أنفسهم مما كان يتخبطهم من الحيرة في حياتهم السياسية والاجتماعية ومثل لهم البيان لباب النزعة العربية الحقيقية وصميم الوطنية الحرة الأبية المرتفعة عن تعليلات الاستعمار المنزهة عن تمحلات السمسرة الأجنبية التي طالما علق أناس في أحابيلها . ضربت الوطنية العربية إذن من البيان بسيف قاضب فرى من أعدائها مناكب وفلق من أضدادها جماجم وكان هذا السيف يهتز من هذه العصبة الكريمة في يد كل ضارب فلم يبق عربي قح نازع به هذا العرق الذي نزع بأمة من أكبر الأمم التي فتحت ممالك واسعة وقلوباً غلفاً في الأرض إلا وهو يعلم للبيان مكانته العالية وروحه الزاكية وعزمته الماضية ودعوته الهادية وجرعته الشافية . ولذلك مهما بالغ العرب الكرام في الاحتفال بالبيان وفي البر بصاحبه فإنهم لا يؤدون إليه حقه ولا يبلغون في خدمة هذه الأمة مده ولا نصيفه ولعمري أنه لعار على هذه الأمة أن يعرو صوت هذا المنبر الوقوف أو أن تتخلف عن القيام من حوله الصفوف ولقد عهدتها تأبى العار وتؤثر المجد على كل شيء .

شكيب أرسلان

مصر بين الحبشة والإنكليز

وأرسل الأمير شكيب رسالة إلى صديقه الكاتب الكبير الأستاذ أحمد حافظ عوض بك صاحب جريدة «كوكب الشرق» في مصر ، وقد طلب منه الأمير عدم نشرها ، ولكن الأستاذ حافظ نشرها «لما فيها من خدمة للقضية المصرية ، وتنويراً لأذهان الأمة وزعمائها ، في هذا الوقت السياسي الخطير» كما يقول صاحب الكوكب .

وهذه الرسالة تتعلق بصدد المسألة المصرية وموقف مصر من قضية الحبشة والإنكليز ، وقد نشرت في «كوكب الشرق» بتاريخ ٢٨ رمضان سنة ١٣٥٤ هـ ١٩٣٦ م . ونشرتها أيضاً جريدة

«الجامعة العربية» مع تعليق لها، بتاريخ ٨ شوال سنة ١٣٥٤ هـ. الموافق ٣ كانون الثاني سنة ١٩٣٦:

نشر صديقنا الكاتب الكبير الأستاذ أحمد حافظ عوض بك صاحب «كوكب الشرق» الأغرّ الكلمة التالية في صدر الكوكب الصادر بتاريخ ٢٨ رمضان وضمنها كتاباً من صديقه عطوفة الأمير الجليل شكيب أرسلان إليه بصدد المسألة المصرية وموقف مصر من قضية الحبشة والإنكليز رأينا أن ننقلهما تنويراً للأذهان وإحقاقاً للحق: قال الأستاذ الكبير صاحب الكوكب:

أرسل لي اليوم صديقي القديم الحميم صاحب السعادة الأمير شكيب أرسلان الخطاب الآتي عن موقفه في المسألة الحبشية الإيطالية، فقد رماه أناس سيؤو القصد بأنه منعطف على الإيطاليين، في حين أني أعلم أنه متفق معي في الرأي من حيث ما يجب أن يكون عليه موقف مصر في هذه المسألة الحبشية الإيطالية... فهو متفق معي على أنه من الواجب على المصريين أن يسيروا في هذه الظروف في خطة الحياد بين الحبشة وإيطاليا، لأن العطف الذي أظهروه نحو الحبشة ونفورهم من إيطاليا، مما يساعد السياسة الإنجليزية ويبعث فيها فكرة عدم المبالاة بالشعور القومي في مصر، في حين أنه إذا أدرك الإنكليز أن المصريين يودون - إذا لم تجبهم انكلترا إلى مطالبهم - أن تكون إيطاليا شوكة في حلقهم في الحبشة أو في غيرها.

كان هذا رأيي وأنا في أوروبا هذا العام. فلما عدت لمصر ووجدت التيار الشديد في صف الحبشة والعطف الشديد عليها وبالطبع معارضاً ومقاوماً لإيطاليا وذلك لأسباب كثيرة أهمها العطف على أمة مجاورة ضعيفة يتحداها الاستعمار الأوروبي الذي نشكو نحن منه.. فلم أجرؤ على إظهار الرأي الذي قدمته وكنت أميل إليه كثيراً وأظهرت الحوادث أنني كنت محقاً فيه لأنني ممن لا يثقون بالوعود الإنجليزية وممن يعرفون في الإنجليز أنهم إذا لم يخافوا لا يبرون بوعد، ولا يعطون للأمم الضعيفة حقاً، ولهذا كان رأيي الذي أبديته في هذه الرسائل أن الإنجليز لم يسلموا لمصر بعودة الدستور إلاّ لاضطراب حالهم في الموقف الدولي من جراء المسألة الحبشية الإيطالية.

وسعادة الصديق الأمير شكيب أرسلان يؤيّد هذا الرأي في خطاب خاص بعث به إليّ اليوم، وطلب إلي أن لا أنشره، ولكني لما أحس به من الشعور الذي أمتلك على عواطفي، رأيت أن أجرؤ على مخالفة صديقي الأمير شكيب فأنشر الخطاب معتذراً له

عن عملي هذا بأن فيه خدمة للقضية المصرية، وتنويراً لأذهان الأمة وزعمائها في هذا الموقف السياسي الخطير.

وإلى القارىء الكريم نص خطاب سعادة الأمير شكيب أرسلان.

چنيف - ١٩ رمضان سنة ١٣٥٤ سعادة الأخ الأستاذ حافظ بك عوض صاحب كوكب الشرق المحترم أطال الله بقاءه.

كنت كتبت إلى الكوكب مقالتين فيهما دفاع عن نفسي بإزاء من طعنوا بي في نفس الكوكب، وفيهما إيضاح نقطة نظري في القضية الحبشية كما هي، وامتنعوا في إدارة جريدتكم عن نشرهما، وكأنهم رأوا فيهما ما يخالف تيار الأفكار السائدة حينئذٍ ونسوا أن من واجبات الجرائد تعديل أفكار العامة وردها إلى الصواب لأن العوام أكثر سيرهم مع العواطف وهذه لا تنطبق كل الأوقات على المصالح الراهنة، وأنا والله كنت مسروراً في طي المقالتين المذكورتين، لأن ذلك وفر علي تعباً كثيراً ومهد عذري في عدم الكتابة في السياسة، وفي الإمساك عن مراسلة الصحف بحيث يتسنى لي أن أتفرغ لكتاباتي العلمية الخاصة التي استند عليها في معيشتي وأتلذذ بنشرها قبل موتي.

فأنا لست كاتباً إليك حتى تنشر هذا في الكوكب بل لأجل أن تحكم أنت في الموضوع:

أنا ما قلت ولا مرة أنه يجوز أن تضع إيطالية أو غيرها من الدول يدها على الحبشة. أو أنه يصح من وجه من الوجوه القضاء على استقلال هذه المملكة ولقد كررت هذا بالفرنسي وبالعربي وفي صحف سورية والعراق ومصر وفلسطين وتونس والمغرب، فالجدال في هذه القضية لا يقع إلاّ ممن في نفسه عرض، أو في قلبه مرض، ولكني رأيت النازلة الحبشية وخصوصاً الخصام الإنكليزي الإيطالي أحسن فرصة لإيصال مصر مبتغاها من الاستقلال التام، وإلى المكان الذي تستحقه الأمة المصرية بين الأمم.

فلما رأيت إخواننا المصريين مندفعين في تيار الحبشة عملاً بالعواطف، وبمقتضى الشهامة وحق الجوار أشفقت من أن سياسة العواطف هذه تطمع فيهم انكلترا وتجعلها آمنة من جهتهم على كل حال، وهذا الأمن لم يكن فيه أدنى مصلحة لمصر.. بل كانت مصلحة مصر في أن تخشى انكلترا ميل المصريين إلى غيرها، فتتدارك حينئذٍ

الأمر، وتجيبهم إلى مطالبهم الاستقلالية بدون مراوغات ولا مماطلات قد شبعت مصر منها، منذ خمسين سنة وزيادة.

فعندما كنت أقول: يا أيها الإخوان ثوبوا إلى رشدكم وانظروا إلى أنفسكم فالمرء يبدأ بنفسه ثم بأخيه، والذي ليس بحر في نفسه، لا يقدر أن يحرر سواه، لم يكن مقصدي من هذه العبارات تثبيط الناس عن مساعدة الحبشة، أو عن مظاهرة انكلترا في سياستها الحبشية، بل كان مقصدي نهي الناس عن الاندفاع في تيار هذه السياسة بدون بدل، بل كان البدل هو كل ما يرمي إليه كلامي.

كنت أقول للناس - ولكن بعض الصحف لم تشأ نشر كلامي - حاربوا إيطاليا في صف انكلترا، ولا تتوقفوا في ذلك طرفة عين لما هنالك من مصالح شابكة للفريقين. ولكن لا تحاربوا إيطاليا في جانب انكلترا، بدون بدل ثمين هو استقلالكم التام، فأنتم لعمري أجدر به بمرات.

كنت أقول: حاربوا إيطاليا يداً واحدة مع انكلترا، ولكن على شرط أن يكون لكم جيشكم وأسطولكم وأن يكون لكم الخيار في الحرب والسلم.

فأما الآن وقد تجلت عروس الحقائق على منصة الأنظار، وظهر أن الإنكليز أبوا أولاً وثانياً وربما ثالثاً أن يعترفوا باستقلال مصر بل وقفوا حائلاً دون إعادة دستورها برغم أنهم أقاموا قيامة الدنيا لأجل استقلال مملكة لا تقاس بمصر في قليل ولا كثير وما أنابوا إلى الحق إلاّ من بعد ثورة، وعندما رأوا مصر كشرت عن نابها. جئت أنتصر لنفسي وأذكر إخواني بأني لم أتخذ تلك الخطة لأجل إيطاليا التي لا يهمني أمرها، ولا أحتاج إليها ولا تحتاج إلي، ولكني إنما كنت جاعلاً نصب عيني استقلال مصر والممالك العربية التي لم تزل انكلترا آخذة بخناقها. وكنت أرى أن سير مصر في جانب انكلترا لا يجوز أن يقع بدون مساومة وبدون اتفاق سابق يكون محوره استقلال مصر التام.

والآن جاء زعماء الأحزاب في مصر حياهم الله على ما أرشدوا إليه من اتفاق الكلمة بعد حين وأعلنوا معتمد انكلترا بأن سير مصر في جانبها عن طواعية واختيار لا يكون إلاّ على شرط استقلالها التام.

إذاً لم يخرج فكري عن فكر زعماء مصر نفسها وإذاً الذي أعلنوه هم أخيراً كنت

أنا أعلنه أولاً ولا فرق إلاّ بالصفة الرسمية التي هي لهم وليست لي.

لقد كتبت في تحرير مصر وجلاء الإنكليز عنها منذ خمس وأربعين سنة وذلك بمقالات لي في صحف سورية بعثت بها من مصر سنة ٨٩٠ ولم تزل هذه القضية الجليلة أعزّ أمنية عندي وعند غيري ممن يشعرون بالواجب، ويدركون الواقع ويحفظون الماضي ويتأملون في المستقبل وهذه الأمنية هي أني قبل انصرافي من هذه الحياة الدنيا أرى مصر دولة مستقلة بتمام معاني الاستقلال لها جيشها البري وأسطولها البحري، ومكانتها بين الدول لأنها عند ذلك تكون أم البلاد الشرقية وقبلة أنظار الأمة العربية، سواء من الشرق أو من الغرب والسلام عليكم ورحمة الله.

أخوكم شكيب أرسلان

المعاهدة السورية والوحدة العربية

كتبت جريدة (النهار) في ١٦ تشرين الأول ١٩٣٦ تحت عنوان «كتاب سياسي عن المعاهدة السورية والوحدة العربية» أرسله الأمير شكيب، عضو الوفد السوري الدائم في (جنيف) إلى الأستاذ حليم دموس، جاء فيه:

أما من جهة (المعاهدة السورية الفرنسية)، فكل من معاهدة مصر، ومعاهدة العراق مع انكلترا ليست خيراً منها. وسترون أن السوريين بذكائهم يجتنون منها ثمرات تزيد على ما يجتنيه غيرهم من أمثالها، وغالب الظن أن الفرنسيين أنفسهم سيسلكون بعد الآن حيال سوريا خطة ولاء غير مشوبة بمقاصد استعمارية لأن الوقت تغير. وقد شاهدوا ما جرى من انقلاب السوريين في لحظة واحدة عن الجفاء إلى الصفاء وأدركوا أنهم غير مسددين في سياستهم الماضية.

وهذه الاحتفالات الباهرة من أجل الوفد الذي أبرم المعاهدة زادتهم يقيناً بأن سياستهم الماضية في سوريا لم تكن رشيدة.

أما (لبنان) فستنعقد معه معاهدة مماثلة لمعاهدة سوريا، وسيأتي يوم تتحد فيه الحكومتان في الأمور العمومية ويبقى لكل البلاد استقلالها في إدارتها الخاصة.

أما الوحدة العربية فهي سائرة إلى الأمام في الطريق. وقد خطَت خطوات شاسعة في وقت قصير حتى فوق ما كنت أتصوره أنا.

إنه لا يوجد بين المؤسسين لهذا المشروع من عمل في سبيله أكثر مني والمكاتيب الكثيرة التي عندي من ابن السعود وفيصل والإمام يحيى والتي سأبقيها لأجل التاريخ مصونة محفوظة تؤيد التي كنت أول من أخرج هذه الفكرة من طور التصور إلى طور العمل، وعندي كتاب من المرحوم الملك فيصل يقول لي فيه: أشهد أمام الله والناس أنك أول من تكلَّم معي في «الوحدة العربية»!.

إن الوحدة العربية في الأمور الخارجية والعسكرية والاقتصادية آتية لا ريب فيها. بل من الآن توجد مكالمات بين مصر والعراق في عقد تحالف عسكري، كما جرى بين ابن سعود والعراق.

فالشرق تنبه وعلم أنه لا يقدر أن يثبت في وجه الغارات الأجنبية إلاَّ إذا كان كله كتلة واحدة. هنالك تبقى حريته بين الأمم محفوظة وإلاَّ فهو مأكول لا محالة.

استقبال نور العيون (رياض الصلح) بهذه الصورة التي لم يسبق لها مثيل أرعب قلبي سروراً. ومن نصف ساعة كنت أكتب عن ذلك إلى الأخ (إميل الخوري) وأشرح له سروري بهذا الاستقبال لأني والحمد لله معافى من داء الحسد وافة المفاسد. ومن كان مثل (رياض) فيجب أن ندفعه بالراح إلى الأمام.

وكان بعض المفسدين قد شاعوا أن لي علاقة بالحزب القومي السوري وذلك بواسطة يوسف بك الحويك. وهذا محض كذب لا أصل له. وقد شرحت هذه القصة في المقالة الواصلة (بالمقطم) لأن الخبر كان قد نشر في هذه الجريدة، فأرجو أن تقرأوها وأن تطلعوا عليها من يلزم.

هذا وقد وردت إلى الشاعر أيضاً من الأمير شكيب رسالة قبل هذه يقول فيها:

- من جهة الملحمة الكبرى، التي تفكرون في نظمها شعراً عربياً فهي فكرة عالية. والشعر القومي له تأثير شديد كما قلتم. اطلعت على قصيدتكم التي نظمتموها عن (المتنبي) وتليت في حفلته بدمشق فطربت إلى الغاية. وسكرت إلى النهاية. وجئت أهنئك على هذه القصيدة اللائقة بالمتنبي وجاعلاً هذه التهنئة وسيلة لإهدائك سلامي واحترامي.

شكيب أرسلان

المشرق والمغرب

عثرنا على هذه المقالة للأمير كتبها خصيصاً لمجلة «المغرب الجديد» التي كانت تصدر في تطوان، المغرب، في العدد ٩ و١٠، سنة ١٩٣٦، وفيها آراء عن المشرق، والمغرب وأنهما في العربية صنوان.

قرأت لبعض إخواننا المصريين كلاماً نقله «المغرب الجديد» يتعلق بملكة اللغة العربية في الأقطار المغربية ذهب فيه إخواننا هؤلاء إلى أنها أضعف منها في المشرق وأنه لم يوجد في البلاد التي يطلق عليها اليوم شمالي إفريقية من النوابغ كمن وجد في المشرق إلى غير ذلك مما ردَّت عليه مجلة «المغرب الجديد» رداً لم تجِدْ فيه عن محجة الصواب. ولقد تأملت في هذا الموضوع كثيراً وراجعت فكري وأعملت الروية معملها حتى أجد وجهاً وجيهاً لهذا الرأي الذي ذهب إليه هؤلاء الإخوان المصريون فلم أجد له أصلاً يعول عليه وما حملته منهم إلاَّ على عدم التوسع في الاطلاع. فالحقيقة التي لابد لكل مفكر مطلع من قبولها هي أن الغرب والشرق في العروبة سيان، وأن أحدهما لا يرجع على الآخر، وإذا قيل إنه يوجد في الغرب عناصر هي في الأصل غير عربية مثل البربر وغيرهم ممن ينزع به عرق أوروبي فالجواب هو أن هؤلاء كلهم قد استعربوا ومن لم يستعرب منهم فقد أسلم والإسلام والعربية لا يفترقان. وبالاختصار من عقبة السلوم إلى السوس الأقصى البلاد بلاد عربية محض لا يفضلها المشرق في شيء من هذه الجهة، والأجناس التي ترجع إلى أصل غير عربي من سكان المغرب يوجد في المشرق من يقابلها سواء في مصر أو في الشام أو في العراق، ولا يوجد عرب خلص في الحقيقة قديماً وحديثاً غير أهالي جزيرة العرب: الحجاز ونجد واليمن وعمان. ومع هذا فإن الحجاز نفسه ولاسيما الحرمين الشريفين فيه غرباء كثيرون من قديم الزمان قد اختلطوا بالعرب فاستعربوا وهم أخلاط من جميع العالم الإسلامي. وكذلك اليمن المعدود آلان أعرق البلاد العربية في العروبة غير خال من أقوام ليس أصلهم من العرب مثل الأبناء الذين أصلهم من الفرس تزوج آباؤهم من العرب فسمي أبناؤهم بأبناء الفرس ثم حذفوا المضاف إليه فبقيت لفظة الأبناء وحدها وصار يقال للواحد منهم «أبناوي». وأما عمان والبحرين وسواحل العرب على الخليج الفارسي ففيها كلها من الهنود والفرس وغيرهم ما ليس مجهولاً. إذاً الشرق والغرب في هذا الأمر سيان كل منهما أمة العروبة ولغته العربية والأخلاط الذين فيه قد استعربوا بمرور الزمان وصاروا

معدودين من العرب .

فلنبحث الآن في الملكة العربية نفسها من حيث البلاغة والبيان ، فإذا كان يوجد في الشرق نوابغ فيها فلقد نبغ لهم أقران وأمثال في الغرب أيضاً . نعم أن الغرب لا يضارع الشرق في سعة الرقعة وكثرة السكان فلذلك يمكن أن يقال إن الذين نبغوا في الشرق هم أكثر عدداً من الذين نبغوا في الغرب ولم يكن ذلك من ضعف الملكة العربية في الغرب عنها في الشرق . ولكنه كان من أجل كون الشرق أوسع أقطاراً وأحصى أعداداً وأما إذا روعيت النسبة العددية فما من مؤرخ ولا من عالم اجتماعي في العرب يقدر أن يقول إن الشرق أقوى ملكة عربية من الغرب أو إن المشارقة يقيمون من شأن العربية ما لا يقيمه المغاربة . وإذا قلنا إن الشرق فيه الأزهر وفيه الأموي وفيه مراكز تدريس ومطالع أنوار تنبث منها أشعة العربية فالمغرب أيضاً فيه الزيتونة وفيه القرويين وفيه مشارق للعربية تضاهي مشارق الشرق وربما تزيد عليها أحياناً . وإذا أضفنا إلى الغرب بلاد الأندلس في وقتها وهي داخلة في الغرب بحكم الطبيعة ، ورأينا نسبة أدباء العربية في الأندلس إلى عدد السكان فإن الغرب بذلك يرجح على الشرق بلا نزاع ، لأنه لم يوجد قطر عربي انتشر فيه علم العربية وتمحض انتشاره تمحضه في الأندلس كما سنثبت ذلك إن شاء الله تعالى في كتابنا «الموسوعة الأندلسية» وسيكون هذا المبحث في الجزء الأول منها لتعلقه بالخطط ، ولأننا توخينا فيه أن نذكر أسماء العلماء والأدباء والحكماء الذين اشتهروا من أهالي كل مدينة وكل قصبة وكل قرية بحيث وجد من المدن الأندلسية من انتسب إليها مئة أو مئتان من هذه الطبقة أو ثلاثمائة أو أربعمائة إلى حد الألف وربما يكون العلماء المنسوبون إلى قرطبة قد تجاوزوا الألف ، فلم توجد بقعة على وجه الأرض بسقت فيها أغصان الأدب العربي بسوقها في ذلك الفردوس المفقود . ولقد نسي إخواننا هؤلاء الذين نبزوا المغرب بدنوه عن المشرق في درجة العروبة أن سوق العربية لا تكون قائمة في العادة إلاّ في ظل الدول العربية . والحال أن الدول العربية منذ مئات من السنين قد تقلص ظلها من المشرق ولم يبق منها شيء إلاّ في جزيرة العرب وفي بقاع محصورة منها وأما سائر الديار الشرقية فكان قد غلب عليها الترك ، وهم وإن كانوا مسلمين وقد نصحوا في خدمة الإسلام بما لا مزيد عليه فلم تكن لغتهم العربية ولم تزل التركية هي لغتهم الرسمية وإنما كانت العربية بينهم لغة الدين والصلاة وكانت تقرأ في المساجد وقد كان ينبغ فيهم قديماً الفحول في علم العربية

فمازال حب التأدب بالآداب الأوروبية غالباً عليهم حتى ضعفت فيهم الملكة العربية إلى أن كادت تندرس بالمرة وبقي منفرداً بها رجال الدين فقط. ولما كانت المخاطبات الديوانية والأوامر الرسمية وجميع بلاغات الحكومة هي باللغة التركية لم يكن لجواد اللغة العربية أن يجول في دواوين الحكومة كما كان يجول أيام بني أمية وبني العباس والفاطميين بل أيام الأيوبيين والمماليك في مصر إذ كانت لغة الدولة هي العربية الفصحى وكان ينبغ أمثال عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والصابي والصاحب وابن العميد والقاضي الفاضل والعماد الأصفهاني ومن في ضربهم، بل كانت الكتابات الرسمية إذا أذيعت في البلاد العربية تولى ترجمتها من لم يشموا رائحة العربية فجاءت ركيكة مستركة لا يحسن الإنسان أن يكمل قراءة البلاغ منها إلاّ لأياً، ومن كثرة توالي هذه التراجم على الأمة أصبحت لغة قائمة بذاتها ليس فيها من العربي إلاّ الحروف ولقد يكون أصلها التركي بليغاً لكنها عندما كانت تنقل إلى العربي بذلك اللسان الذي يصح أن يقال فيه قوله تعالى (أعجمي وعربي) كانت تنفر منها الطباع وتنبو عنها الأسماع، وتفوتها الهيبة وينقصها الوقار ويخطئها التأثير، الذي هو بغية الدولة من خطاب الجماهير ولا عجب فقد قيل: ليس لمنقوص البيان رواء ولو حكَّ بيافوخه عنان السماء. ولقد كانت لغة الدواوين في مصر أرك منها في سائر البلاد العربية مع أن مصر كان لها استقلالها الداخلي ولم تكن تحت الإدارة التركية مباشرة كما كانت الشام والعراق مثلاً، فبرغم استقلال مصر الداخلي وبرغم الثقافة العربية القديمة وبرغم الجامعة الأزهرية التي هي أعظم مراكز العربية في العالم كانت لغة الدواوين في مصر المثل الأدنى للبيان، والجناية العظمى على لغة القرآن، وكانت النسبة منقطعة تماماً بينها وبين لغة الدواوين في المغرب أو في تونس اللتين إذا قرأت من حكومتيهما بياناً أو ظهيراً شعرت هناك بوجود حكومة عربية تخاطب قومها بلسان عربي مبين. ولقد اصطلحت هذه الحالة في مصر بعض الشيء إلاّ أن لغة الحكومة لاتزال متأثرة بالأساليب الأعجمية المعهودة، ولم نجد الدواوين بمصر شاركت سائر معاهد العلم وأندية الأدب في النهضة اللغوية العربية التي لا ننكر حصولها في وادي النيل في هذا العصر. ثم أني من زمن الحداثة كنت ألاحظ أن علماء الشريعة من أهل المغرب يكون لهم حظ من الأدب، وقلما عرفت منهم عالماً إلاّ وجدته أديباً إذا أمسك القلم انثالت جمله سراعاً على حين المدرسون في مصر والشام قد يكون منهم من قرأ المعاني

والبيان طول حياته وربما استظهر المطول والملخص وغيرهما وعلق عليهما حواشي وإذا انتدبته لكتابة أسطر معدودات تعذر عليه ذلك لعدم تمرنهم على الكتابة أو لاستكثارهم من حفظ المتون كما أشار إليه ابن خلدون في المقدمة. وأما رجال الشريعة في المغرب فقد عهدت فيهم كثيراً من المنشئين وبالإجمال فلا أوافق الذين قالوا بانحطاط المغرب عن المشرق لا في العروبة ولا في العربية، ولا أقول إلاّ أنهما فرسا رهان ولكل منهما نوابغه ومصانعه وشعراؤه ومنشؤه ومؤرخوه وحكماؤه كما له فقهاؤه ومحدثوه وقراؤه ومؤلفوه أصحاب التصانيف الممتعة والكتب المعتمدة في التدريس (وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً).

الحرية والاستقلال في سوريا

أرسل الأمير إلى صاحب «منبر الشرق» الأستاذ علي الغاياتي، من جنيف بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩٣٩، يردُّ فيها على بعض الإشاعات، ويدافع عن الحرية وعن استقلال سورية، وعن مصالح العرب والعروبة. وقد أخذناها من كتاب (عروة الاتحاد بين أهل الجهاد) للأمير شكيب أرسلان. وقد نشر في آب ١٩٤١، مطبعة جريدة العلم العربي، في بيونس آيرس.

جنيف في ١٥ ديسمبر ١٩٣٩

حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ علي الغاياتي صاحب «منبر الشرق» المحترم

إني أشكر لكم متتابع أياديكم البيض في الدفاع عني وإظهار حقيقة أسباب سفري إلى برلين في أواخر سبتمبر الماضي وكوني لم أذهب إلى تلك العاصمة إلاّ من أجل قضية تتعلق بالعقار الذي لي هناك. نعم لم أقم ببرلين مدة ثلاثة أيام كما اتصل بكم الخبر بل ثلاثة أسابيع ولما رأيت القضية تستغرق وقتاً أطول رجعت أدراجي إلى جنيف ماراً بزوريخ كما قلتم وكما أكدت لكم روايتكم في رسالة سابقة مني إلى منبركم الأغر عسى أن تكون ظهرت فيه بفضلكم وكرم أخلاقكم.

ولقد قرأت في المنبر الواصل اليوم المؤرخ في ٥ الجاري رسالة بإمضاء «عربي» تحت عنوان «راديو برلين وإذاعته السخيفة» يحمل فيها الكاتب الكريم على الذين أشاعوا دخولي في إذاعات راديو برلين واحتفال بلدية برلين بي وإعطاءها إياي لقب «مواطن شرف» إلى غير ذلك من الأقوال التي اختلقها أعدائي وإني لشاكر أيضاً فضل هذا العربي المبين كثيراً و(هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان).

ولكني وصلت من ثناء «العربي» الذي تلطف به علي إلى قوله :

«إن الأمير شكيب أسمى إدراكاً وأعلى وطنية وأعظم تقديراً لمصلحة الشرق العربي من أن ينخرط في سلك المستبدين والطغاة الذين لا يعرفون ديناً غير دين القوة ولا شريعة غير شريعة التحكم والاستعباد والأمير من أكبر دعاة الحرية والديمقراطية» .

إني أجيب على هذا الثناء الجميل بأنه محض كرم خلق من الكاتب والإناء ينضح بما فيه وإنما لا أفرق بين المستبدين والطغاة فلا أجعل منهم هذا ابن الست وهذا ابن الجارية وإن كنت أغضب للشعوب البعيدة عني عند وقوع الاستبداد بها وذلك مثل التشيك والبولونيين فأنا من دون مرية أولى بأن أغضب لوطني وقومي وأمتي الذين وقع الاستبداد بهم مثل سورية التي انعقدت معها معاهدة اعترف فيها باستقلالها ثم جرى النكث بتلك المعاهدة وعادت سورية إلى ما كانت عليه تحت حكم الأجنبي القاهر ومثل فلسطين التي قاسى العرب فيها من الأهوال والشدائد ما لم يحدث عن مثله التاريخ ومسألتها لاتزال على ما كانت عليه كما صرح بذلك المفتي صاحب السماحة الحاج أمين الحسيني في كتاب إلى الصحف نشر في نفس منبركم . فهل هذا الذي جرى بأهل فلسطين وأهل سورية ـ لنؤجل الآن الكلام على سائر البلاد العربية المقهورة المغصوب استقلالها ولنجتزىء بهاتين المسألتين ـ هو الحرية والديمقراطية اللتان نحن أنصارهما . ثم يقول الكاتب المثني علينا بمزيد فضله : «ثم أن الخلافات التي قامت بينه وبين بعض الدول إنما كانت لمصلحة الحرية العربية فقط وها هم الحلفاء اليوم يناصرون قضية العرب وحريات الشعوب الإسلامية فلم يعد هناك ما يدعو لأدنى خلاف خصوصاً وأن العالم العربي قد انضم بطبيعته إلى جانب الحلفاء وقد ينجم عن هذه الحرب أن تقبل انكلترا وفرنسا إقبالاً تاماً على تأييد مصالح العروبة والإسلام» إلخ .

نعم هذا العاجز الضعيف ما برز لمخاصمة هذه الدول القوية إلاّ لأجل مصلحة الحرية العربية . ولكني لا أرى شيئاً من مناصرة الدول المشار إليها لقضية العرب ولحريات الشعوب الإسلامية . أين جرى هذا؟ أم لأني أنا هنا بعيد غير مطلع على الحريات الجديدة . . . التي منَّ بها الحلفاء على الشعوب الإسلامية في أثناء غيابي فأودُّ لو اطلعت عليها لأجعل من أصابعي عشرة شموع تضيء للحلفاء . وأما أنه لم يبق

بيننا وبين هذه الدول ما يدعو لأدنى خلاف فإني أعترض على هذه الجملة اعتراضاً شديداً لا يخففه ما تلطف به الكاتب من الثناء عليّ إذ المسائل التي نحن معهم في خلاف من أجلها باقية كلها كلما كانت سواء في الشرق أم في الغرب لم تنحل منها ولا عقدة. ولقد ورد في منبر الشرق نفسه في أحد أعداده القريبة العهد أن انلكترا لم تأت بشيء جديد في قضية فلسطين ويؤيد هذا الخبر بإعلان المفتي في الصحف فقد انجلى كل شك. كذلك عندما نشر المنبر خبر الأحكام على الوطنيين السوريين الذين منهم من حكم عليه بالحبس ثلاثين سنة ومنهم بالحبس عشرين سنة ـ ومنهم من عذب في سجنه عذاباً شديداً مثل نبيه بك العظمة ورفاقه الذين هم من خيرة رجالات العرب ـ احتج الأستاذ في المنبر شديداً وعاتب فرنسا كثيراً وقد نقل فصولاً عن جريدة الاستقلال العراقية التي لاتزال تطالب الحلفاء بحقوق العرب المغصوبة والتي لا تثق بالمواعيد دون الأعمال. ومع ذلك فالحلفاء ما وعدوا بشيء.

وأما أنه «قد ينجم» عن هذه الحرب أن تقبل انكلترا وفرنسا إقبالاً تاماً على «تأييد مصالح العروبة والإسلام» فليسمح لي الكاتب الفاضل بأن «تأييد مصالح العروبة والإسلام» عبارة مبهمة. وأن أبين كون الحلفاء وعدوا مواعيد كثيرة قبل الحرب العامة وفي أثنائها وبعدها وقد رأينا ماذا كان من نتيجة هذه المواعيد... وإني كتبت إلى المنبر في ٤ الجاري أقول فيها: إن لم يفعلوا الآن لم يفعلوا فيما بعد. فإن كان الحلفاء يريدون أن نصالحهم فعلاً فلا مناص لهم مذ الآن من تصديق المعاهدة السورية الفرنسية المنعقدة في سنة ١٩٣٦ ومن إجابة مطالب عرب فلسطين التي يطالب بها المفتي واللجنة العربية العليا الممثلون الحقيقيون لفلسطين. أما أنه «قد ينجم» فليس بمثل هذا يقنع العرب.

وأما أن العالم العربي انضم إلى الحلفاء فالجواب عنه أن مصر والعراق مقيدتان بعهود يجب عليهما مراعاتها. وأما الدولتان السعودية واليمانية فباقيتان على الحياد. وعلى كل حال فالعالم العربي لا ينضم مجاناً إلى أحد ولا يميل إلا إلى من يعطيه حقوقه التامة من نفسه. واختم كتابي بشكر مراسلكم كما بدأته به والسلام عليكم والرحمة والبركة.

شكيب أرسلان

جنيف

حديث حول القضايا العربية

رسالة خطيرة أرسلها عطوفة الأمير شكيب إلى جريدة (العلم العربي) في بوينس آيرس، من جنيف بتاريخ ٢٤ رمضان المبارك سنة ١٣٥٨ هـ. يحدِّد فيها موقفه من حالة العرب الحاضرة، ويردُّ فيها على معارضيه والمتهجمين على كرامته، كما يبيِّن موقفه من الحرب الحاضرة ورأيه فيها.

وهي الرسالة الأولى التي يكتبها الأمير لجريدة عربية تصدر في المهجر.

جنيف في ٢٤ رمضان المبارك سنة ١٣٥٨

حضرة الأخ الفاضل المجاهد المناضل السيد عبد اللطيف الخشن صاحب «العلم العربي» بحق أدام الله علمه مرفوعاً وجانبه منيعاً آمين.

إني أطالع جريدتكم سفراً وحضراً وأعجب بها وبخطتها العربية الأبية ولكن قد ازداد إعجابي بها منذ نشبت هذه الحرب في أوروبا إذ إن الرجال كما يقال صناديق مقفلة وما مفاتيحها إلاّ التجاريب. ولقد أثبتت الحوادث الحاضرة ما عندكم من نخوة عربية وحمية وطنية فضلاً عما أثبتت ما لكم بعد نظر وثقوب فكر وسعة إطلاع فبمثلكم فيلفتخر الوطن العربي.

إني لزمت هذه المدة الصمت ولم أبد ولم أعد في شيء من شؤون الحرب الحاضرة موطناً نفسي على الحياد التام فيها ومتجنباً الخوض في معمعه أرى أسباباً كثيرة تدعو العرب الأحرار إلى لزوم الحيدة فيها وعدم التحيز لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وليس مرادي بالحياد التام في هذه الحرب إني راض بما فعلته فرنسا في سورية ملق الحبل على الغارب لا يهمني اعترفت فرنسا باستقلال سورية أم لم تعترف ولا يكرثني أصدقت فرنسا معاهدة سنة ١٩٣٦ مع سورية أم لم تصدقها؟ كلا فكل الشرقيين يعلمون أني كنت انتخبت رئيساً للمجمع العلمي العربي في الشام وأجمعت الرجعة إلى هناك لتسلم منصبي العلمي الجديد فلما وصلت إلى مصر وتريثت فيها بعض أسابيع ظهر لي خلالها أن فرنسا عدلت عن تصديق المعاهدة الفرنسية السورية عدلت أنا أيضاً عن الذهاب إلى دمشق وتسلم رئاسة المجمع ورجعت إلى جنيف محل هجرتي القديم. وكتب إلي ناظر المعارف في سورية يستحث

قدومي لأجل أن أتبوأ عملي وكان ذلك في وزارة نصوح البخاري فأجبته: يا سبحان الله أنتم أعلنتم على الملأ أن وزارتكم موقتة وتحت جواب يصدر من حكومة فرنسا وقلتم إن كانت فرنسا لا تصدق معاهدتها مع سورية فإنكم تتركون الحكم ولا ترضون به تحت الانتداب فإذا كان الأمر كذلك فلماذا تريدونني أن أتبوأ أنا منصباً تحت الانتداب؟ والحال أني أنا لم أقبل رئاسة المجمع العلمي إلاّ على أمل أني لا أصل إلى الوطن إلاّ بعد أن يكون تصدق استقلال سورية ونفذ فعلاً. فإن كانت سورية ستعود تحت الانتداب فأنا أعود حينئذٍ من حيث أتيت. هكذا كان قراري من البداية. وذلك لأن استقلال سورية هو الشرط الأول عندنا لموالاة فرنسا.

أما قضية موقف الأمة العربية بإزاء الحرب الحاضرة وموقفي أنا من جملة هذه الأمة فكنت أرى أن الأولى بنا الحياد التام والسكوت وعزمت أن لا آتي فيها بحركة إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. وعكفت على أشغالي الأدبية وإكمال كتابي الأندلس الذي ظهر منه ثلاثة أجزاء وسيقع في تسعة بالأقل. وكان الرأي عندي أنه لا يوافق العرب أن يحالفوا ألمانيا ولا الروسية لأنه ليس من صلة بينهم وبين هاتين الدولتين، ولا سبقت لهم معهما محالفة ولا موافقة من قبل حتى ينفذوا ذلك العهد اليوم. ولا يوافق العرب أيضاً أن يحالفوا الدول المسميات بالديموقراطيات لأنهم لم يجدوا شيئاً من هذه الديمقراطية يفترق عن الحكم الديكتاتوري. فلماذا ينحاز العرب إلى أناس سيوفهم إلى حد الحرب تقطر من دماء العرب، ولعمري أنها لحطة من مقام العرب بين الأمم أن يكونوا كعبيد أمريكا الذين قام منهم جانب كبير يحارب في صفوف الذين مصرّين على استعبادهم وصاروا أمثولة في العالمين. نعم لو جاءت فرنسا تقول للسوريين: نحن أولاً مصدقون لكم معاهدتكم ومعيدون الحكم الوطني إلى الشام وموفون بما عاهدناكم عليه لكنت أنا في مقدمة من يقول يومئذٍ لفرنسا: ونحن أيضاً حلفاؤكم في السراء والضراء وسترون في جانبكم أفعالنا. ولو كانت انكلترا قالت للعرب: ها أنذا عدلت عن سياستي اليهودية في فلسطين وسأقرر عدم دخول يهودي إليها من بعد اليوم ومن هذه الساعة تسلموا بلادكم على وجه يضمن لكم أكثرية الثلثين بالأقل وسأعوضكم

من رزاياكم وآلامكم وجراح قلوبكم واجتهد أن أنسيكم ماضي الاعتداء إلخ. لكنا نقول للإنكليز: مهما كان صعباً على العرب نسيان ما أحللتم بهم من تقتيل رجال وتيتيم أطفال وهتك أعراض مخدرات وتدمير بيوت وسلب أموال فإننا أن عاهدتمونا على الاعتراف بحكومة فلسطينية مستقلة ثلثاها من العرب نتوقف عن متابعة القتال والإمعان في الثورة ونستقيم لكم ما استقمتم لنا.

فإما أن نعرض أنفسنا لدى الدول الديموقراطية ونقول لها: نحن رجالك ويا ما ترين منا ويا ما عند عينيك على رأي البوادي ويكون ذلك منا مجاناً بلا عوض فإني أحسب هذا مخالفاً للشهامة والكرامة ومضراً بالأمة العربية مادة ومعنى وذاهباً بوقارها بين الأمم. إن أعداء الدول الديموقراطية مثل ألمانيا والروسية وإيطاليا اللاتي لا يخفن عليهن شيء من حركاتنا هذه أن كتب الله لهن الفوز على الدول الديموقراطية في هذه الحرب أو في حرب بعدها وأستولين على مستعمرات فرنسا وانكلترا كان أول شيء يصنعه بنا الاستيلاء على بلادنا والاهتضام لحقوقنا والنظر إلينا بعين الاحتقار وسومنا جميع أفانين الخسف بما يكونون رأوا من أن الإهانة لا تؤثر بنا وأننا نجزى من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحساناً. وإن كان العكس وهو انتصار الديموقراطيات هذه فإنهن يزددن بعده لنا احتقاراً واعتاتاً ويرين أنه لا حاجة إلى إرضائنا في شيء فقد هدمن ممالكنا واخنين على دولنا وقدن بخزائم الصغارة ١٥٠ مليون مسلم نحو النصف منهم عرب وجئنا بعد ذلك كله نقول لهن: نحن فداؤكن وإن قطعتن رؤوسنا تدحرجت إلى ما بين أرجلكن. فهذا الذل تشمئز منه النفوس حتى نفوس المستفيدين منه.

كنت أرى عند عدم إمكان المطالبة بالحقوق واغتنام فرصة هذه الحرب لاسترجاع الاستقلال المغصوب أن السكوت والتزام الحياد هما الأولى والأستر. وإن طالبتنا الدول الديموقراطية بإعلان موالاتهن قلنا لهن: لا تكون معكن إلاّ إذا عرفتن حقوقنا كاملة غير منقوصة. فإما بعد كل أفاعيلهن بنا أن نقوم ولا نكتفي بالسكوت والسكينة حتى نملأ الدنيا صراخاً في مديح الديموقراطيات وشتم أعدائهن فإني لا أراه من الحكمة ولا من الشهامة. فإن أعين الناس تنظر إلينا من كل جانب وسيعاملنا الآخرون بحسب ما يكونون

رأوا من هوان أنفسنا على أنفسنا.

ولا يقيم على ضيم ألم به إلا الأذلان غير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرني له أحد

حمدت السكوت والحياد حتى لا أجعل للمتغلبين علينا سبيلاً وحتى لا يتهمنا الأعداء بدعاية ألمانية ولا دعاية إيطاليا كما سبقت لهم العادة أن يتشدقوا ويتمطقوا فإن ديدنهم كلما طالبهم مطالب بحق أن يقولوا: أنت عدو فرنسا. أنت عدو انكلترا. أنت داعية لهتلر. أنت داعية لموسوليني وما أشبه ذلك. هذا سلاحهم أبد الدهر. ولا سلاح لهم غير القذف والطعن والاختلاق والبهتان. والجرائد الفرنسية في هذا الباب هي الحائزة قصب السبق لا يشبهها صحافة في الغرب ولا في الشرق. وقد جربت الصمت هذه الأيام تفادياً من أن يتهمونا بالدعاية الإيطالية والألمانية وأخرت إصدار مجلتي لاناسيون آراب عمداً مدة أشهر لأني لم أكن أريد أن أخوض في حديث الحرب على وجه يخالف الحقيقة ولم أكن آمن من أن صرحت بها على وجهها أن يقولوا إن هذه دعاية هتلرية. والحال أني لا أعرف هتلر ولا أنا ممن يدين بمذهبه الاجتماعي ولا ممن ينكر بعض أغلاطه السياسية مثل استلحاقه تشيكوسلوفاكيا بعد أن وعد في مؤتمر مونيخ بأن يقتصر على استلحاق السوديت الذين هم ألمانيون مثله. ولكني لا أقدر أن أكذب لأجل خاطر الحلفاء وأقول إن الحرب الحاضرة إنما جناها هتلر بينما تكون انكلترا هي الجانية الوحيدة لها وتكون فرنسا قد سبقت إليها سوقاً بعامل اتحادها مع انكلترا. وكيف كانت الحال فكان أصحابي يسألونني عن موعد صدور العدد الجديد من لاناسيون آراب وكنت أماطل فيه لمعرفتي أني إذا ذكرت الحقائق على وجهها قال الفرنسيون: هذه دعاية ألمانية. وإن تعاميت عنها فهو خلاف عادتي وعار على الرجل الحر. فرأيت الأسلم هو السكوت والتربص ومضى على العدد الأخير من المجلة عشرة أشهر وأنا أفكر في الخلاص من هذا المأزق الذي جعلني بين أن أقول الحق ولو غضبت الدول الديموقراطية أو أتغافل عن الحق وأرضيها كما صنع الكثيرون من أبناء الوطن العزيز. وأكبرت منهم المداجاة إلى هذا الحد. على أن الجرائد الفرنسية لا حيلة لها في أنفسها فالسفاهة عند

بعضها طبيعة غير منفكة فهي لم تفتأ تطعن وتقذف وتنفث الذي في صدرها فكان لا يمر أسبوع من هذه الأسابيع الأخيرة دون أن تتحفني الصحابة الفرنسية بعدة مقالات تنال فيها مني ومن سياستي نيلاً شديداً. نعم هذه المرة تركوا الكلام في دعايتي بزعمهم لإيطاليا وحصروها في ألمانيا وذلك لأن إيطاليا لم تدخل الحرب فوفَّر عليّ عدم دخولها فيها سفهاً كثيراً من جرائد باريز. وأذناب باريز. إلاَّ أن هنا حادثاً جدَّ معي فأتاح لهذا السفه أن ينعق وينقلب وبله ديمة مدراراً.

وتحرير الخبر أن الأزمة الاقتصادية اشتدت بعد الحرب وضرت الناس بأنيابها وأنا من جملة الناس ولما كان لي عقار في برلين اشتريته سنة ١٩٢٢ يوم ذلك الرخص العظيم في أثمان الأملاك أرسلت إلى وكيلي على العقار بأن يبعث إليّ بالمتراكم عنده من صافي ريعه فأجابني بأن لديه ألفا وخمسمائة مارك من الريع إلاَّ أن إخراج المال من ألمانيا لاسيما اليوم يكاد يكون مستحيلاً ثم قال لي: لعلك إذا جئت إلى هنا يراعون خاطرك ويستحيون منك. فذهبت إلى برلين وسعيت في رخصة إخراج هذا المبلغ فأخذت المسألة معاملة طويلة لاتزال إلى هذه الساعة غير منتهية. فرجعت أدراجي خوفاً من أن أصرف في برلين المبلغ المتراكم من ريع بيتي كله. ولما كان لي أصحاب كثيرون في برلين من أيام سكني بها ورئاستي للنادي الشرقي فيها أقام الأصحاب لي حفلة هذه المرة كما كانوا يصنعون في كل مرة أشخص فيها إلى برلين. وهذا كل ما جرى. فلما رجعت إلى جنيف بعد غياب ثلاثة أسابيع في برلين أخذت تتوارد عليّ الجرائد الفرنسية وبعض الجرائد العربية التي هي أذناب الجرائد الفرنسية وفيها الطعن والقذف بي والزعم أني ذهبت إلى برلين لإلقاء محاضرات فيها ضد فرنسا وقد احتفل الألمان بي هناك احتفالاً عظيماً وأعطوني لقب «مواطن شرف للريخ» وهلم جراً. فأما الحفلة فهي غداء في أوتل «استلاخاد» دعتني إليه الجمعية الألمانية الشرقية. وأما لقب «مواطن شرف للريخ» فلا أصل لهذه الفرية.

جنيف في ٢٤ رمضان المبارك

شكيب أرسلان

(الصفاء) والاتحاد الوطني

آخر مقالة كتبها الأمير شكيب في جريدة «الصفاء» بتاريخ ١٩ تشرين الثاني، العدد ٢٩٩٢، ١٩٤٦، والمقال يدعو إلى نبذ الخلافات والطائفية والتمسك بالوطنية والحرية والاستقلال. كما يشيد بـ«الصفاء» ووطنيتها وخطها الواضح السليم منذ بدء تأسيسها حتى اليوم. أما المناسبة لكتابة هذه المقالة هو استشارة الأمير بشأن «حزب الاتحاد الوطني» الذي تدعم (الصفاء) سياسته الوطنية.

وقد مُهِّد لهذا المقال بكلمة جاء فيها:

«زار وفد من أعضاء (حزب الاتحاد الوطني) عطوفة الأمير شكيب مهنئاً عطوفته بعودته سالماً معافى إلى وطنه لبنان الذي يفخر بأمثاله من إعلام الوطنية الحق، الداعين أبداً إلى ضرورة الاتحاد الذي يعدُّ من أمتن دعائم الاستقلال».

وقد قدَّم الوفد إلى عطوفته نسخة عن (مبادىء الاتحاد الوطني) فكان للأمير شكيب كلمة بعنوان «الصفاء والاتحاد الوطني».

وجريدة (الصفاء) هي من الجرائد الوطنية التي التزمت بالنهج القومي، والخط الإصلاحي، منذ صدورها حتى العام ١٩٦٢، حين انتقلت ملكيتها إلى الأستاذ المرحوم رشدي المعلوف.

وفي ما يلي المقالة المذكورة:

' جريدة «الصفاء» اللبنانية العريقة الحرة التي لم تحد منذ نشأتها عن المشروع الوطني يمنة أو يسرة. هي أول جريدة جال فيها قلم هذا الفقير إلى ربه بميدان الكتابة المرسلة منذ إحدى وستين عاماً. وهذا تاريخ لا ينكر أنه قديم. ظهرت هذه الجريدة في نشأة حديثة مستأنفة تشوق القرّاء. وتبعث الإقبال مجددة لها شباباً غضاً وإهاباً بضاً، يجمع الطراوة إلى العتق ويقرن بين الحداثة والسبق وذلك باتخاذها مبدأ «الاتحاد الوطني» ملاكاً لا يفترق في شيء عن مبادئها الأصيلة التي نشأت ونمت عليها. قد قرأت برنامج هذا الاتحاد الوطني وأمعنت النظر فيه، فوجدته بكل مواقفه خليقاً بكل تأييد لا يعوزه سوى التنفيذ. فأنا أدعو إليه وأحثّ عليه وأرجو من أبناء الوطن العزيز أن لا يتهافتوا على النعرات الطائفية... وأن يستبدلوا بها النعرة الوطنية الخالصة التي هي الأسلوب الأليف بالاستقلال والخط الأوفق لوضعنا السعيد

الجديد المبني على الحرية التامة. وأرجو لـ«الصفاء» في هذه البعثة الجديدة رواجاً مناسباً لسداد برنامج الاتحاد الوطني وعلو مبادئه وأعتقد أن أبناء البلاد هم أنبه وأبصر بمواقع الصواب من أن يستحثهم مثلي على اتباع هذه الخطة الرشيدة التي سيكون «الصفاء» مقولها الأفصح وداعيها الأنصح والله المسؤول أن يسدد الوطن وأهله ويهديهم سبيل الرشاد».

نظرة إلى المستقبل

وهذه رسالة من الأمير إلى فريق من علماء ووجهاء نابلس بفلسطين، وفيها آراء حكيمة ونظرات صادقة إلى المستقبل، مما يدلُّ على بعد نظر الأمير في السياسة العالمية، وحرصه الشديد على كل قضية وطنية تمس العالم العربي والإسلامي.

نشرت هذه الرسالة مجلة (الضحى) شهر حزيران سنة ١٩٥٨، وهذا هو نصُّها:

إننا غير جاهلين الخطر الذي يحيق بفلسطين. وأن ما نقرأه في الجرائد عن تدفق سيل المهاجرة اليهودية على فلسطين، ومن اضطراب العرب هناك وتخوفهم على مصير بلادهم، ليس بأهم مما نسمعه نحن هنا من الدوائر السياسية من قرب تسليم فلسطين إلى اليهود. فإن بعض الدول، وفي مقدمتها فرنسا التي اتحدت مع اليهود يداً واحدة، بعد طردهم من ألمانية. قد قررت بصورة باتة جعل فلسطين مملكة يهودية. فالمسألة قد ترقت من الوطن القومي الصهيوني، إلى المملكة اليهودية الصهيونية. ومع أن الوطن القومي الصهيوني ولو كان لفظة مبهمة، كان خطراً عظيماً على العرب، فالمملكة اليهودية مع الصراحة وعدم الإبهام لاشك أنها عبارة عن انقراض العرب من فلسطين. والفرنسيس منهم قسم يؤيدون هذه السياسة من قبل، فأما وقد أعلنت ألمانيا عداوتها لليهود، فقد أصبحت الحكومة الفرنسوية نفسها سائرة على هذه الخطة وهي تهويد فلسطين، ومؤخراً في جمعية الأمم ألقى المسيو أبار السويسري سؤالاً على المسيو بولبونكور ناظر خارجية فرنسة بشأن توريث النساء، فأجابه بونكور بأن فرنسا لاتزال في سورية عاملة بحسب الشريعة القرآنية، وهكذا العمل في مصر، نعم حيث أنه يرجى أن تتحول حكومة فلسطين قريباً إلى حكومة تسير على مبادىء المدنية الغربية، القرائن الكثيرة، فمسألة فلسطين هذه لم يبق عندي شك في كون العرب فيها أصبحوا في فم الحوت، بينما هم لايزالون على منافستهم الحقيرة ومخاصمتهم بعضهم مع

بعض لأجل عضوية مجلس ورئاسة بلدية ومختارية قرية، وسفاسف من هذا القبيل لا تؤاخذونني أن أذكرها لكم لأن قلوبنا في نار من جراء هذه المخاصمات الخسيسة التي لا تنتهي في فلسطين، والتي جميع خطر اليهود الظاهر للعيان كالشمس لم يخففها بين عرب فلسطين. قد بلغني أنه لما ذهب الوفد الفلسطيني إلى الهند هذه المرة أبرق أناس من القدس من خصوم... إلى الهند بأن لا يدفعوا إعانات له لأنه سيأكلها (وهذا الرجل) ورفاقه يطوفون في الهند لجمع الإعانات لفلسطين سواء لشراء أراضي يخلصونها من أيدي اليهود أو لتأسيس مدرسة إسلامية جامعة تؤيد كيان العرب في فلسطين. فإذا كان خصوم الرجل لا يرون بدأ من مخاصمته برغم كونه عدو اليهود الأكبر، وكون اليهود لا يخشون أحداً كما يخشونه، فليحصروا، بلا قل هذه العداوة في المسائل التي لا تتعلق بالمصلحة العمومية. فأما أن يقوم أناس من فلسطين ويكتبوا إلى الهند لمنع الإعانات عن فلسطين بغضاً بشخص فلان، فهذا منتهى العجب. وإني عندما أتأمل في هذه الحالة الروحية التي في عرب فلسطين أقول إنها تخيفني أكثر من اتفاق اليهود مع فرنسة ومع غيرها من الدول، وأكثر من تصريح، بولبونكور، وأكثر من كل شيء. إنه لا يرجى لكم خلاص أبداً إن لم تقوموا بأنفسكم وتوجدوا حالة روحية خلاف هذه الحالة.

مرّ علينا المستر (كراين) الأميركاني صديق العرب وحكى معنا في الذهاب وإياه إلى روما لأجل السعي لدى الفاتيكان ولدى الحكومة الإيطالية بتوقيف تيار المهاجرة الصهيونية إلى فلسطين. فنحن اعتذرنا له عن الذهاب إلى روما بسبب ما بيننا وبين الطليان من العداوة على أثر أعمالهم في طرابلس الغرب. نعم إنه في المدة الأخيرة جرى تقارب عن يد بعض الوسطاء واقترحنا على إيطاليا اقتراحات أهمها إعادة أهالي الجبل الأخضر إلى أراضيهم، وأمور أخرى لا يسعها هذا المكتوب. وقد وعدتنا إيطاليا بإجابة مطالبنا هذه تدريجاً، وبدأت بذلك فعلاً، وجرى إرجاع قسم كبير من العرب إلى أراضيهم، وصدر لنا الوعد بإرجاع القسم الباقي. ونحن وعدنا بتسكين خواطر المسلمين إذا كانت إيطاليا تعدل عن سياستها الماضية في طرابلس، وترد إلى المسلمين أملاكهم وتشركهم في إدارة البلاد إلى غير ذلك مما كتبناه مرة في الجامعة العربية. ولكن لحد الآن ما ذهبنا إلى روما ولم نكن نريد أن نذهب إليها غير أننا قلنا للمستر (كراين) أنه إذا كان وجودنا ضرورياً فيمكن ذلك بأن نسعى في الذهاب وأخذ الرخصة من إيطاليا، ويجيء وفد فلسطين إلى أوروبا ويبدأ بروما ونكون معاً.

أمس وردتنا برقية من الأخ عوني عبد الهادي يسألنا رأينا بشأن ما يجب عمله تجاه الحالة الحاضرة في فلسطين، فأجبناه بوجوب إرسال وفد مختلط أي مسلم ومسيحي سريعاً يأتي إلى جنيف ويطوف عواصم أوروبا. والآن نؤكد هذا الأمر نفسه، فلأمر جدٌّ ليس بالهزل. وأنتم تشاهدون بأعينكم ونحن سامعون كل يوم بآذاننا وقد تطابق السماع والعيان. لكم أن تقرأوا كتابي هذا الجميع أهل نابلس ولكن لا لزوم لنشر شيء منه في الجرائد، وقريباً سأكتب في الجرائد ما يلزم وما هو أوسع من هذا.

والجواب على هذا: أولاً أننا لا ينبغي أن نطمئن لكلام انكلترا هذا، فكم صرَّحت بمواعيد تم نقضتها، وكم أعلنت أموراً كانت تضمر خلافها. وكلنا يعلم كيف عملت بخلاصة تحقيقات لجنة (شواي) أنها طوتها طياً. وكذلك بخلاصة تحقيق الخبير البريطاني (ستيمنسون) الذي جاء إلى فلسطين لتعديل قابلية البلاد لاستيعاب المهاجرين فحكم بأنها لا تستوعب مهاجرين أكثر من العدد الحاضر إلاّ نزراً. وقد أعلنت انكلترا ذلك ثم رجعت عن إعلانها تحت ضغط اليهود. بعد هذا يكون من الحماقة المحضة أن يتكل العرب على تصريح كهذا. ثانياً يجوز أن يكون التصريح الإنكليزي مقصوداً به تسكين خواطر العرب، وتخدير أعصابهم، إلى أن يكون تم الأمر، فإن التدريج هو الذي يخفف وقع الأمور كما لا يخفى. ثالثاً لنفرض أن انكلترا لن تترك الحكم في فلسطين ولن تسلمه مباشرة لليهود، وأنها أبقت زمام فلسطين في يدها، فأي ضمان في ذلك لحقوق العرب؟ فاليوم في فلسطين لا تعمل الحكومة عملاً إلاّ بمقتضى إرادة اليهود وهم بعد ١٥٠ ألفاً، فكيف تكون الحال إذا صاروا خمسمائة ألف أو صاروا أكثر من العرب. على الحالين العرب صائرون في فلسطين إلى بوار والعياذ بالله.

أنكم تعلمون أني لست سريع التصديق لكل خبر، وأن عندي من الخبرة بحوادث الدهر ما يجعلني أرتاب في كل ما أسمعه ولا أتلقاه بالقبول إلاّ بعد أن تقوم علته فيمكن العمل بفلسطين في قضية توريث النساء بحسب الشرائع الأوروبية. فظاهر هنا أن مراد بونكور هو تحول فلسطين إلى مملكة يهودية. والشائع أن اليهود عقدوا اتفاقاً مع فرنسا في السر بهذا الشأن، ومن المعلوم أن محور سياسة فرنسا هو عداوة ألمانية. فإذا كان اليهود في كل العالم شهروا الحرب على ألمانية، فلابد لفرنسا أن تؤيدهم، وقريب جداً للعقل أن تكون فرنسا اتفقت معهم في السر بغضاً بألمانية وزيادة في

استمالة اليهود لجهتها، ثم مقاومة للعرب الذين ترى فرنسا أن نهضتهم أعظم خطر عليها، وتعتقد أن نهضتهم في الشرق يمتد تأثيرها إلى شمالي إفريقية، وهناك الخطب العظيم عند فرنسة. إذاً الإشاعات المتواترة بما انعقد بين فرنسا واليهود من الاتفاق على تحويل فلسطين إلى مملكة يهودية هي قريبة للعقل، وقد ظهر أول دليل عليها في كلام بولبونكور المار الذكر، الذي صرح به في جميعة الأمم، ومعناه لا يحتمل تأويلاً إذ لا وجه لقوله: إن الشريعة الإسلامية المعمول به في سورية يجوز أن لا يعمل بها في فلسطين بعد أن تصير شرائعها أوروبية قريباً. إلاّ أن فلسطين ستصير في عهد قريب أكثريتها يهودية. هذا عدا ما سمعناه كثيراً عن لسان بعض الفرنسيس من أن تقوية اليهود في فلسطين وسورية ضرورية لدفع الخطر العربي. ومنذ أيام مرض عندنا صديق عربي مسيحي لا نشك في كلامه. قال إنه سمع هذا الكلام بالصراحة من فم رئيس الجمهورية اللبنانية الدباس الموجودة الآن (في باريس) ولا شك أن الدباس يروي عن سادته الفرنسيس. فإذا كانت فرنسة اتفقت مع اليهود فيلزم أن نعتقد أن بضع عشرة دولة في أوروبة من أذناب فرنسة قد اتفقت مع اليهود أيضاً، ولك أن تقول: تسير وراء فرنسا كيفما سارت. هذا زائداً إلى كون اليهود هم ذوو نفوذ في كل مملكة وأن الدول البروتسطانتية مساعدة لهم بإجمالها.

بقي هناك انكلترا وقد صرحت في جمعية الأمم بأنها وعدت بوطن قومي لليهود، ولكنها لم تعد بمملكة يهودية.

دم الشهداء ومداد العلماء

نشرت مجلة «الضحى» في عددها الصادر في شهر حزيران سنة ١٩٥٩، هذا المقال للأمير شكيب، تحت عنوان (شهداء العرب)، وفيه تعليق لعارف بك النكدي، وهو في ما يلي كما ظهر في «الضحى»:

وهذه كلمة الإمام العلاّمة الأمير شكيب أرسلان في حفلة كانت أقامتها للشهداء «الجمعية العربية» في «باريس» والأمير - رحمه الله - كان ممن يرون في اتحاد بين العرب والترك يشبه ما كان بين النمساويين والمجريين، ضماناً لاستقلال الامتين وبقائهما، ومدعاة لوحدة كل منهما، ومنفاة لقيام دولة صهيون، التي كان بدأ يذر قرنها، ويعمل اليهود لها.

وفي كلمة الأمير، غمزة غمز بها بعض الذين عُدوا في الشهداء ولم يكونوا في

الحق ممن عمل لحرية بلاده واستقلالها، بل كان يعمل مدفوعاً لسياسة الأجنبي وبماله، وهو شيء صحيح كان يعرفه الأمير، كما نعرفه نحن، وكما يعرفه كل من لايزال على قيد الحياة من رجال ذلك الزمن.

في الأثر الشريف: يوزن دم الشهداء بمداد العلماء. وليس من حقيقة تفوق هذه الحقيقة. فالأعمال الكبيرة: سواء أكانت نشر عقائد صافية، أو تأسيس ممالك زاهرة، أو تأييد قضايا نافعة، لابد لها من فكر ومن عمل. وأن أعوزها أحد هذين الأمرين لم يرج تمامها، ولا تفتحت أكمامها، وبقيت اسماً بلا مسمى، ولفظاً بدون معنى.

فالفكر مظهره: مداد العلماء، والعمل متجلاه الأقدس، إنما هو دم الشهداء ولن يبلغ عمل درجة الكمال التي تتقطع عندها نياط المقاومة، وتخفت من دونها أصوات المكابرة، إلاّ إذا أريق على جوانبه زكي الدماء، وسقطت من أجله جماجم كانت لها فداء. وإلاّ بقي العمل ضئيلاً ولم يكن نورهُ إلاّ بصيصاً. واتخذ أعداؤه من ضعفه عليه حجة ولم يصل بالقائمين به إلى غاية. وخير للناس أن يتركوا بتاتاً العمل الذي لا يجودون عليه بدمائهم، ولا ينتهون فيه إلى ذمائهم. ولاسيما المشروعات الوطنية، والمنازع الاستقلالية. فإنها حياة الأقوام والأمم، وبعث الأحياء من قبور العدم. فلا تتهيأ الحياة السعيدة لقوم إلاّ بالجماجم المنثورة، والأعضاء المبتورة. والأشلاء المعلقة، والمهج المزهقة. وفداء أناس أنفسهم من أجل أقوامهم وأوطانهم، وموت البعض لحياة الكل.

وشرط أن يُسمى الموت في هذا السبيل شهادة، وأن يكون إقطاعها الحسنى وزيادة، أن يكون الموت إنما هو على نيتها، والوقوف أمام المشانق على ثنيتها. فلا يقتل الواحد بيد جبار من الجبارين لمجرد شبهة أو لتهمة غير متعلقة بالغرض الأسمى، فنجعله شهيداً، ونحسبه فقيداً. وإنما الشهيد من استشهد رأساً في سبيل استقلال الأمة، وهوى من عن المشنقة أو سقط في ميدان المعركة، وهو يعلم والناس تعلم أنه إنما مات من أجل حياة قومه، وإنه لم يمت بصلة أخرى وإلاّ كان مثله مثل من لم يجد طعاماً فعد صائماً. أو إصابة أرق فعد قانتاً. والحال: إن الشهادة كالصيام بنية وعمل وفكرة وإجراء. وهي موت عن بينة وذهاب على بصيرة. وليست وقعة بين جبارين ظماء إلى الدماء، خابطين خبط عشواء. وإنما هي وقعة بأيدي جبارين يعرفون من أصابوا، ولماذا أصيبوا، وفي أي سبيل زهقت أرواحهم، وإلى أي لقاء تم براحهم.

وهؤلاء هم الشهداء حقاً، الغزاة فعلاً، الذين نصبوا من جماجمهم جسراً للعبور إلى المنى، وجعلوا أجسادهم لبناً في زاوية بناء العلى. فعلى الأوطان تقديسهم دَين إلى يوم النشور، ودين يدان به حتى في أعماق ذوات الصدور. وكلما مضى حول على شهاداتهم هذه سواء من سقطوا شهداء في أثناء الحرب العامة فارتفعت في التاريخ أقدارهم، أو من تعفرت وجوههم بتراب معارك الثورات السورية بعد الحرب العامة فسطعت في الخافقين أنوارهم، وجب علينا أن نحيي لهم تذكاراً، ونرفع لهم علماً خفاقاً وشعاراً وأن نجعلهم قدوة للآتين، وأئمة للمصلين، ونبني عليهم بناء الاستقلال الرفيع العماد، ونجعل يومهم عيداً لحياتنا القومية مشتقاً من مأتم لبسنا فيه الحداد، خارجاً بياضه من السواد. والله تعالى لا يجعل هذه الدماء ذاهبة سدى، وهو المسؤول أن يحقق. بها أماني استقلال كانت بالأمس ولا تزال اليوم وستكون غداً. وأن يجعل أصداءها ترقو على الظالمين صائحة بهم أبداً.

الشعر العاملي

للأمير شكيب رأي في الشعر العاملي، بعث به إلى أحد شعراء جبل عامل، وقد نشرته مجلة «الضحى» في عدد شهر أيلول، سنة ١٩٦٠، قال فيه:

الشعر الذي أرسلت إليّ بأنموذجاته أيها الأديب العربي، يكفي في وصفه أنه من عائلة الشعر العاملي.

والله يعلم أني مازلت أقرأ شعر العرب في هذا العصر من منجد ومتهم، ومعرق ومشئم، ومصري ويماني، وشنقيطي وقيرواني، فلم أجد أصدق من قريض أبناء عاملة: صورةً للشعر العربي الصميم، ولا أخلص منه عرقاً في نسب اللغة التي امْتازت بها سعد وثقيف وسفلى وهوازن وعليا تميم، ولقد أراني أشرب ولا أرتوي، حتى إذا وقعت في يدي بعض قصائد من نظم العامليين شبعت كبدي رياً، وامتلأ دماغي بياناً عبقرياً، وقلت الآن قد وجدت تحت الألفاظ معنى سرياً، وكم يخيل إلي أني أسبح من ذلك الفصيح في بر فسيح، وأضرب بين مرابع الآرام ومنابت الشيح، من رقة تذوب معها الأنفس، وجزالة تقف لها الشعور في الرؤوس، وأسلوب يمثل لك من العرب الماضين صفاء قرائحهم، وشفوف ألبابهم، وينفث في روع الحاضرين لغة صيَّابتهم وفصاحة لبابهم، ويذكرنا عنجهية أولئك الفاتحين الذين تحدرنا من أصلابهم.

نعم! هو الشعر الذي ينبغي أن يبقى في العرب مرفوعاً شعاره، مضيئاً مناره، زاهراً أنواره، مهتزة أوتاره، حتى لا تتنكر اللغة على أهلها، ولا يختلط هجينها بفنيقها، ونكسها بفحلها، ولا يغرّنك ما تقرأه من كلام بعض المتفرنجين، هجن العربية من الأزراء بهذا القريض على أنه طريقة ماضية، وخطة عافية، ونزعة لا تليق بهذا العصر: عصر البخار والكهرباء، والطيارات المحلقة في السماء، وغير ذلك مما يسمونه «بالحياة» وهم أبعد الناس عن الحياة والحياء، فالشعر ليس بكيمياء ولا بميكانيكيات، وهو أبعد الأشياء عن هذه الأشياء. والشعر كلما قرب من الطبيعة ونأى عن الصناعة كان شعراً، وراق طبعاً. والشعر ليس فيه عصري وغير عصري، بل فيه عال وسافل، وصاعد ونازل. وكلما جاش به الصدر عن روح اللغة التي ينظم فيها، وأشبه ديباجتها وانطبع على مناحيها. كان المثل الأعلى الذي تتجه إليه الرغائب، والغرض الأقصى الذي تضرب إليه آباط النجائب. وظاهر أنه لا دانتي ولا شكسبير ولا غوته ولا راسين ولا من قبلهم فيرجيل ولا هومير، كانوا شعراء عصريين، ولا أدركوا هذا العصر ولا نطقوا بلغتهِ، ولا عرفوا شيئاً من اختراعاته، وهم مع ذلك لا يزالون في العالم الغربي المقتدي به آلهة الشعر المعبودة، وأقيسة الفصاحة البعيدة، فدع عنك تلك الخرافات التي تلوكها السن الشعوبيين، والتي لا تزال تظهر أعراض أمراضها من حين إلى حين، فإنها ملجأ من ليس له حظ من فصاحة العرب، فهو يريد أن ينقص ما يجهله، وأن يهجن ما يقصر عنه باعه، وأشدد يدك على هذا وتهنأ بما آتاك الله من قريحة عاملية، وفصاحة وائلية، وشعر عذب رائق، وبيان يجمع بين أبدع الخيالات وأصدق الحقائق، مندمجاً هذا كله في لقحة أبية، ونزعة عربية، والله يمتع بك شاعراً وينفع عالماً، ويرهف بك على أعداء العرب صارماً.

وفد الصلح إلى الإمامين

عندما اشتدّ الخلاف في عام ١٩٣٤، بين إمام اليمن وابن سعود، خاف العرب أن يكون ذلك من صنع الأجنبي أو من صنع أيدٍ استعمارية تعمل على بث الخلاف والشقاق بين العرب.

فاختارت الهيئات العربية المسؤولة في ذلك الوقت، وفداً رباعياً أركانه: الأمير شكيب أرسلان رئيساً للوفد، وعضوية الحاج أمين الحسيني مفتي القدس، وهاشم الأتاسي رئيس الكتلة الوطنية في سورية، ومحمد علي علوبة من وزراء مصر السابقين.

في هذا المقال يصف الأمير شكيب إلى بعض أصدقائه عمل الوفد، ويصف حاله وما لاقاه في سفره من مرض ومعاكسات. وقد نشرته مجلة (الضحى) في عدد تشرين الثاني سنة ١٩٦٠:

قال الأمير رحمه الله في ٨ نيسان ١٩٣٤: برحت جنيف الى برنديزي، ومنها ركبت الطيارة الى مصر، ومنها ابحرنا الى جدَّة. وذلك لأجل منع الحرب بين الإمامين: إبن سعود ويحيى، بناءً على اضطراب العالم الإسلامي كله من جَّراء هذه الحرب، وانتخاب اللجنة الدائمة للمؤتمر الإسلامي العام هذا العاجز من جملة أعضاء وفد السلام المتوجه بتلك المهمة. وهم: الحاج أمين الحسيني: مفتي القدس، ورئيس المؤتمر الإسلامي، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى بفلسطين، وهاشم بك الأتاسي: رئيس الكتلة الوطنية في سورية، ومحمد علي باشا علوبه: أحد نظار مصر سابقاً، وهذا الفقير إليه تعالى. رحلتنا تستغرق كتاباً، وليس لدينا من الوقت ما يساعد على تحريره. فبالأولى لا أقدر أن أشرح لكم جميع مجهوداتنا التي تمكّنا بها من توقيف هذه الحرب وعقد الصلح. وخلاصة المقال: إن الصلح انعقد على أحسن صورة، وأن المعاهدة هي أشبه بتحالف منها بتسالم. وإن الصفاء حلَّ محل الجفاء ولله الحمد. صفقة لم يحضرها الشيطان. وكان فرح العرب والمسلمين أجمع بدفع هذه النائبة فوق كل وصف. بعد أن عقدنا الصلح في الطائف، لزم أن نذهب إلى صنعاء اليمن لزيارة الإمام يحيى، وسؤال خاطره، والشكر له على تفويضه إيانا بعقد الصلح، نحن ومندوبه السيد عبد الله بن الوزير من أنسباء الإمام ومن أحسن رجالات العرب. وقفلنا من صنعاء بعد أن حملنا الإمام على توقيع نسخة المعاهدة التي كانت قد تحررت في الطائف، وإن أكثر ما جعل كلامي مقبولاً عند العاهلين: إني من عشر سنين أكاتب كلاً منهما وأنصحه بالتحالف مع جاره، وأقرعه بأسلوب لطيف، على عدم إتمام ذلك. وأحذِّره عواقب الخلاف، وأذكر له المثلاّت السالفة من تدخلات الأجانب وكونها إنما بدأت بحروب المسلمين بعضهم مع بعض. وفي كتاباتي المتواترة إلى كل منهما كنت أدافع عن الآخر. فهذا الأمر قد أقنع كلاً منهما بنزاهة مقصدي، وسنَّى لنا عقد الصلح برغم كل التحريضات الأجنبية من جهة، والداخلية من أخرى على مداومة الحرب. فقد حاربنا في هذا الباب

دسائس كثيرة، وذقنا عرق القربة حتى تغلبنا عليها. وكادت حياتي تذهب في أثناء هذه المهمة، لأني مرضت من شدة الحر بمكة مرضاً كاد يودي بي، لم يذهب إلاّ بالصعود إلى الطائف.

ثم لما ذهبنا إلى صنعاء لزم أن نعود إلى الحديدة ونبقى فيها أياماً. فمرضت ثاني مرة مرضة شديدة بقيت على أثرها ١٢ يوماً في مستشفى أسْمَره بالأرتيره الطليانية، حيث اهتمَّت الحكومة الإيطالية بنا اهتماماً شديداً، ولم تقبل إلاّ أن نكون في ضيافتها.

هذا، وقد كان الملك ابن سعود قد أمر أحد موظفيه أن يتكلم مع معتمد الإنكليز في جدَّة ليرجو حكومته باسم الملك أن تسمح لي بالمرور بفلسطين لأستدعي والدتي من لبنان وأشاهدها، وقد كانت هذه المساعي جرت من قبل وامتنع الإنكليز عن إعطاء هذه الرخصة. فهذه المرة أعاد الملك السعودي الكرة. ثم كتب الإمام يحيى إلى ملك الإنجليز رأساً كتاباً خاصاً في هذا الموضوع. فلم يعد ممكناً للمندوب السامي البريطاني في القدس أن يخالف أمر ملك إنكلترة. وجاءني برقية إذ أنا مريض بأسمرة من المندوب السامي في القدس يقول لي فيها: إنني أقدر أن أجيء إلى القدس وأشاهد والدتي، لكن بعد إعطاء التعهد بأني مدة قيامي في القدس لا أشتغل بالسياسة. فأعطيت هذا التعهد، وسرت إلى القدس ورجوت الأهالي أن لا يقوموا بمظاهرات من أجلي فلم تحصل مظاهرات. لكن الوفود جاءت من كل الجهات ومن سورية أيضاً. وعند ذلك قام المندوب السامي الفرنساوي في سورية، يحتج لدى الإنكليز على وجودي في فلسطين، ويزعم أن ذلك أحدث هيجاناً في سورية وأنه كان قد هيَّأ برنامجاً لسورية تعطل بهذا السبب! وتوالت برقيات المسيو مارتل على المندوب السامي البريطاني بحيث اضطر هذا إلى الإشارة لي بالخروج، لكن بعد أن شاهدت سيدتي الوالدة مدة ٢٠ يوماً، وشاهدت فلسطين بعد غيبة ١٩ سنة. ولما جاءت بي الباخرة إلى بيروت، منع الفرنسيس كل اتصال بيني وبين البر، ولكني سررت جداً بمشاهدة بلادي بعد أن غابت عن أنظاري مدة ١٨ سنة. فهل هذه هي النظرة الأخيرة؟ الجواب هو عند الله؟

ثم رجعت إلى أوروبا عن طريق إيطاليا وبقيت في رومة جمعتين. ثم جئت إلى جنيف، وشاهدت عائلتي بخير. ولم أصدق عيوني لما شاهدتهم لأني لما اشتد بي المرض في مكة ظننت أني لن أرى أولادي. فالحمد لله ثم الحمد لله. وكانت غيبتي هذه المرة خمسة أشهر، ورجعت إلى أشغالي الكتابية، وإكمال الكتب التي كنت بدأت بتأليفها، ومن أيام جئت إلى برلين لأشغال وبعد جمعتين أكون إن شاء الله في جنيف.

فهمت مكتوب صاحب الأندلس الجديدة، وليس لي اعتراض على تأسيس جمعية الشباب اللبناني. كما أنه ليس لي اعتراض على طلب معاونة إيطاليا لأنها الدولة الوحيدة التي تقدر أن تفيدنا في جهادنا الاستقلالي. وذلك لأن فرنسة تزداد استبداداً في القضية السورية، وحالة سورية ولبنان تزداد سوءاً، وانكلترة متفقة مع فرنسا متضامنة معها ضدنا. وألمانيا مشغولة بنفسها اليوم. فبين الدول العظمى لا يرجى العضد إلاّ من إيطاليا ونحن: أنا وزميلي الجابري قد تصالحنا مع إيطاليا منذ سنة، بعد أن كنا حملنا عليها منذ ثلاث سنوات حملات شديدة من أجل فظائع جرت في طرابلس الغرب فأرسل زعيم إيطاليا بطلب التفاهم معنا، ونحن أجبناه بلائحة اقتراحات في قضية طرابلس أول مادة منها: أن يعاد إلى الجبل الأخضر الثمانون ألف عربي الذين كانوا قد أبعدوا عن ديارهم في الجبل المذكور، وأوطنوا صحراء سُرت، ومات ثلثهم وكاد يموت الباقي. فأمر موسوليني بإعادتهم جميعاً، وهكذا أنقذناهم من الهلاك بأجمعهم. كما أنه عزل القائد الجنرال غرازياني الذي كان هو السبب في تشتيت عرب الجبل الأخضر والذي قام بتلك الفظائع. وقد أجابنا إلى اقتراحاتنا من جهة تعليم اللغة العربية والعقيدة الإسلامية في مكاتب الحكومة. ومن جهة فتح الزوايا السنوسية كمساجد للقبائل، ومن جهة إدارة الأوقاف الإسلامية بمعرفة لجنة من أعيان المسلمين، وغير ذلك مما لا يسع شرحه في مكتوب كهذا. لاسيما أن وقتي ضيق جداً. وبالإجمال إيطاليا أصلحت من سياستها كثيراً مع العرب ومع المسلمين. وهذه المدة عندما مررنا بمستعمرة الأريتره في البحر الأحمر المجاورة للحبشة، وفد علينا جميع أعيان المسلمين وشكروا لنا بدون استثناء أعمال إيطاليا وحسن معاملتها إياهم، وكونها تبني

الجوامع من كيسها. وإن البوليس يسوق الناس يوم الجمعة إلى الصلاة!. وإن حريتهم الدينية تامة ولهم ١١ قاضياً شرعياً. وقالوا إن المبشرين النصارى ممنوعون من التبشير بين المسلمين. وكل هذا أثر اهتمام موسوليني باستجلاب مودة المسلمين، ونحن ذكرنا ذلك في العدد الأخير من مجلتنا لاناسيون آراب. وإني مرسل نسخة منه، وواضع إشارة على المقال فيمكن أن تطلع عليه صاحب الأندلس الجديدة. ثم أن إيطاليا في القضية السورية واقفة موقفاً لابأس به، وكذلك في القضية الفلسطينية التي خطرها أصبح شديداً جداً بمساعدة الإنكليز لليهود. وقد كان لإيطاليا عضد أكيد للعراق على الاستقلال. كل هذا نعترف به، ونرى من باب السياسة الاعتماد على إيطاليا لمساعدتنا على تحرير سورية وتوقيف مهاجرة اليهود إلى فلسطين. لكن مع الإعلان بأن هذه العلاقات لنا معها علاقات صداقة وتبادل منافع اقتصادية، وإننا نريد أن نحصل على استقلالنا التام لا نرضى بسيطرة أحد علينا لا فرنسا ولا إيطاليا ولا تركيا ولا أية دولة كانت.

أمس عطل الفرنسيس مجلس نواب سورية لأنهم لحظوا أنه لن يرضى بتصديق المعاهدة التي تريد فرنسا أن تفرضها على سورية. وهذه خامس مرة تحل فرنسا برلمان سورية لعدم مطاوعته لها على إمضاء معاهدة تخل باستقلال بلادنا. وسيحتج الوفد السوري الفلسطيني لدى جمعية الأمم على توقيف البرلمان السوري احتجاجاً شديداً.

الحرب العامة الأولى

هذه صفحات مقتطعة من مقال للإمام العلاّمة الأمير شكيب، وهي بخط يده، ويستدلُّ منها أن الأمير كتبها في أثناء الحرب العالمية الأولى، وقد ورد مقطع عن (الحرب العامة الأولى) في مقال للأمير أثبتناه في كتابنا (أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه) الصادر عن الدار الجامعية سنة ١٩٩٤.

نشر هذا المقال في مجلة (الضحى)، عدد تشرين الثاني، سنة ١٩٦١.

... ولاسيما في أثناء الحرب العامة هذه، إنها أطول الأمم المعاصرة باعاً في كل فن، وإنها السبّاقة إلى كل غاية. أن تعرف أحوال أمة كالأمة

العربية، لها من الأهمية باستعدادها الفطري للترقي، وبمزاياها التاريخية والجغرافية ما لا يخفى على عالم نيِّر مثل العالم الجرمانيّ.

ومع هذا فكثير من الألمان، لا يعرفون طائلاً من علم عن أحوال العرب. وربما أدمجوهم في الترك، نظراً لاتحاد الترك معهم في الدين. والحال أن العرب هم غير الترك، وأن الترك هم غير العرب، ولكل من هاتين الأمتين أصل وتاريخ، ولغة وعادات واصطلاحات خاصة بها، وبينهما من الفروق أكثر مما بين الألمان والفرنسيس. ولكن الدين الإسلاميّ الذي دان به الفريقان قد أخفى أكثر هذه الفروق، وجعل سلطانها عليهما ضعيفاً. لأن الغالب على المسلمين هو العصبية الدينية لا العصبية الجنسية. وأيُّ مَن نصر الإسلام وقام بالشريعة المحمدية، أحبَّه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أياً كان، ومن أيِّ قبيل كان. ولذلك أطاع العرب سلاطين آل عثمان إطاعتهم لخلفائهم الأمويين والعباسيين والفاطميين.

أما الأمة العربية فهي من جملة الشعوب الساميَّة بنت عم الأمة الأشورية، والكلدانية، والفينيقية، والسريانية، والعبرانية. يشهد بذلك تشابه سحنات هذه الشعوب، وتقارب لغاتها ومخارج ألفاظها وتماثل عاداتها ومآخذها. وإن نسبة المشابهة بين اللغات السامية بعضها مع بعض، هي أقرب مما هي بين اللغات الأوروبية الحديثة: كالألماني والإنكليزي مثلاً.

ولما فتح العرب سورية، كان الرومانيون قد أعطوا بلادها أسماء رومانية، فلم تلائم السنة العرب لعدم تقارب الألفاظ ومخارج الحروف، فعادوا إلى الأسماء القديمة، من فينيقيّ وسريانيّ لكونها شبيهة باللفظ العربيّ.

وذهب بعض المؤرخين إلى أن أصل جميع الشعوب الساميَّة هو من بابل، وأنهم بعد تبلبل الألسن تفرقوا في الأقطار. فمنهم من أقام بالعراق وما بين النهرين، ومنهم من سكن الشام، وأن الذين توغلوا منهم في الحجاز واليمن وحضرموت وعمان والبحرين ونجد، أي في الجزيرة التي بين البحر الأحمر وبحر الهند وخليج فارس، هم العرب.

وينقطع بنا الكلام لفقدان الصفحات. إلى أن يتكلم عن الأنصار فيقول:

... على أهل مكة، وصاروا قوّته في فتوحاته. وفي الحقيقة كان هؤلاء الأنصار سبب ظهور الإسلام. ومنهم كثير من مشاهير علماء الإسلام وأمرائه وقوّاده. ومنهم أبو أيوب الأنصاريّ الذي كان في غزو القسطنطينية في أيام الخليفة الأمويّ «معاوية» وتوفي حصار هذه العاصمة ودفن عند الخليج، وله الآن مقام عظيم يزار. ويسميه الأتراك «سلطان أيوب» ومن ذريّة الأنصار في كل الأقطار. ومنهم بقايا في «مَنْفَلوط» بمصر. ومن ذريّة الأنصار ملوك بني «الأحمر» أصحاب مملكة غرناطة الذين ختم بهم ملك الإسلام بإسبانية.

ومن كهلان بنو «طيّ» من أشهر قبائل العرب. كانوا في اليمن فخرجوا منها على أثر خروج الأزد عندما تفرَّقوا بسَيْل «العَرَم» فنزل بنو طيّ في الحجاز ونجد. ثم في صدر الإسلام تفرقوا في الأقطار من بلاد سمرقند إلى أسبانية. ومنهم أمراء وعلماء وشعراء لا يأخذهم الإحصاء. ومنهم «حاتم الطائيّ» المضروب به المثل في الكرم. ومنهم «أبو تمّام الطائيّ» من أكبر شعراء العرب. ومنهم «البُحْتُريّ» الذي هو في طبقة أبي تمّام في الشعر. ومنهم الإمام «ابن مالك» الجيّاني الأندلسيّ من أكبر علماء العربية. ومنهم...

ثم ينقطع الكلام إلى أن يتكلم عن: القيسية واليمنية، فيقول متابعاً كلامه:

... «الزُّبَيْر» الذي خرج في الحجاز على بني أميّة. وكان اليمنيّون يدعون «لمروان بن الحَكَم» الأمويّ. فانهزم القيسيون في تلك الواقعة، وقتل منهم مقتلة عظيمة. واستقام بعدها الملك لبني أميّة.

وامتدَّ هذا الانقسام إلى إفريقية وإلى الأندلس. وجرت هناك حروب ووقائع. وعندما استولى بنو العبَّاس على الخلافة، وانتزعوها من يد بني أميّة، وتعقبّوا الباقي منهم، واستأصلوا شأفتهم، فرَّ منهم نجيّاً: عبد الرحمن الملقب بالداخل. ودخل الأندلس شريداً طريداً هارباً من وجه بني العباس بالمشرق. واختار الفرار إلى الأندلس لكون أكثر أهلها من جالية الشام: وطن بني أمية. فعندما حصل هناك أراد عمال بني العباس القبض عليه، فانتصر له اليمانية أيضاً. ومازال أمرُه يقوى حتى استقلَّ بإمارة الأندلس. لكن مع بقاء الخطبة في المساجد باسم الخليفة العباسي. وبقي الحال كذلك إلى أيام أحد

أعقاب عبد الرحمن الأول، وهو عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر، الذي كان من أعظم ملوك الإسلام، بل ملوك الدنيا. وهو باني جامع قرطبة الذي لا نظير له. وقصرَيْ: الزَّهراء والزَّاهر، وصاحب المغازي والفتوحات. وفي أيامه وصلت قوة العرب ومدنيتهم في إسبانية إلى أوْجهما. فأعلن عبد الرحمن الناصر الخلافة، وتلقَّب بأمير المؤمنين.

وكان الإنقسام في سورية بين قيسيٍّ ويمنيٍّ عاماً. فأهل بيروت يمنيَّة، وأهل حمص كلهم يمنية، حتى جاء في المثل السائر (أذلُّ من قيسيّ بحمص) وأهالي جبل القدس، وجبل نابلس في فلسطين: قيسية ويمنيَّة إلى يومنا هذا. فأهل خليل الرحمن قيسية، وأهل بيت لحم مثلاً يمنيّة وهلمّ جرّاً. وفي جبل لبنان اشتدَّت المناظرة بين القيسية واليمنية وتوالت الحروب وآخرها واقعة «عين دارة» التي دارت فيها الدائرة على اليمنيّة وكانت في نحو سنة ١٧٠٠[١] مسيحية فهاجر قسم من اليمنية إلى جبل حوران وعمر بهم ذلك الجبل، وصارت لهم قوة عظيمة في سورية.

ومن قبائل قيس بنو «هَوازِن» ومنهم بنو سعد. ولم يكن بقي منهم حيّ يُعرف سوى فرقة بإفريقية.

القضية الوطنية المغربية

«وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب، أسبابها، أهدافها، نتائجها». عرض وتعليق الكاتب المعروف والمؤرخ المغربي ابن عزوز حكيم، كتاب صدر منذ العام ١٩٨٠، عن مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر في تطوان.

إنَّ زيارة الأمير العظيم للمغرب، ظلت غامضة، لم يعرف بأسرارها ودقائقها إلاَّ أفراد قلائل، ونحن هنا، نكشف عن الجوانب المهمة لزيارة الأمير للمغرب، من خلال الكتاب الآنف ذكره، والذي وصل إلينا مؤخراً من صديق غيور مقيم بالمغرب العربي.

لماذا هذا الكتاب؟

يجيب ابن عزوز حكيم عن الأسباب التي دعته إلى تأليف هذا الكتاب

---

(١) كانت سنة ١٧١١ أو ١٧١٢.

فيقول: سبب واحد، دعى بنا إلى وضع هذا الكتاب بمناسبة ذكرى مرور خمسين عاماً على زيارة الأمير شكيب أرسلان لمدينة تطوان، وهو عدم وجود دراسة وافية عن هذا الحدث السياسي الخطير الذي كانت له أهميته التاريخية وأثره الملموس في تقدم الحركة الوطنية المغربية وتطورها، فكل من كتب عن تلك الزيارة المباركة اكتفى بالإشارة إلى وقوعها دون أن يتعرض أحد من الكتاب إلى الكيفية التي تمت بها ولا إلى تفاصيلها، بل وحتى إلى أسبابها الحقيقية وأهدافها ونتائجها.

إن الذين كتبوا عن هذا الموضوع لم يحصلوا على الوثائق الضرورية للقيام بمثل هذه الدراسة، وهذه الوثائق، وجدت بربائد «مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر» وكلها وثائق سرية أخذت من الربائد الاستعمارية السرية التي كانت للإقامة العامة الإسبانية بالمغرب، ولنيابتها في الأمور الوطنية، بتطوان.

تضمن هذا الكتاب على عدة فصول اندرجت تحت هذه العناوين:

الفصل الأول: الأمير شكيب أرسلان وأسباب زيارته للمغرب.

الفصل الثاني: تفاصيل زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب.

الفصل الثالث: نتائج زيارة الأمير شكيب أرسلان لمدينة تطوان.

الفصل الرابع: موقف الاستعمار الفرنسي من زيارة الأمير شكيب أرسلان لمدينة تطوان.

الفصل الخامس: زيارة الأستاذ عبد الخالق الطريس للأمير شكيب أرسلان بجنيف.

الفصل السادس: الذكرى الأولى لزيارة الأمير شكيب أرسلان لمدينة تطوان.

الفصل السابع: حول اهتمام الحركة الوطنية بشمال المغرب بكتب الأمير شكيب أرسلان.

الفصل الثامن: حول دفاع جريدة «الحياة» المغربية عن الأمير شكيب أرسلان.

الفصل التاسع: حول مراسلات الأمير مع الأستاذ عبد الخالق الطريس.

الفصل العاشر: حول ما كتبه الأستاذ الطريس عن الأمير في مذكراته.

وهناك ملحقان مهمان هما:

- ملحق أول يحتوي على مقالات الأمير عن الحركة الوطنية المغربية.

- ملحق ثان خاص بحفلة التأبين التي أقيمت بتطوان على أثر وفاة الأمير شكيب أرسلان.

من هو الأمير شكيب أرسلان؟

يقول الأستاذ عبد الخالق الطريس وهو الابن الروحي للأمير شكيب معرّفاً به وبجهاده وبمآثره:

في يوم من أيام أذكرها بابتهاج وعطف وقفت خطيباً بين يدي الأمير الجليل، كان ذلك يوم الاحتفال المهيب الذي أقامه أهالي تطوان لرجل الساعة في العالم الإسلامي اعترافاً بخدماته للعروبة والإسلام وتقديراً لتضحياته العديدة من أجل القضايا الإسلامية على العموم...

وكنت ومعي الجمهور مؤمناً ببطولة الأمير عن طريق الوجدان فحسب، ولعل نفسي المؤمنة ألهمت مزايا الأمير قبل أن تراه، وتقدمت للإفصاح عن فكر لا زالت نفسي كل يوم تجد ما يؤيده، بل تجد ما يجعله شيئاً ضئيلاً أمام الرأي الذي يجب أن يكونه كل مسلم عن تلك الشخصية المجاهدة المتفانية في جهادها.

من ذلك اليوم والأمير متصل بالمغرب والمغرب متصل به، وبين الجهتين محبة وإخلاص وتعاون، وقدر لي أن أكون أحد من يقوم بمهمة الربط بين الوطن العزيز والمركز الذي تتوحد فيه الجهود الإسلامية، ولي بتلك المهمة شرف وفخر.

وأرى من أنسب المناسبات أن أقول كلمتي في هذه الظروف التي يقوم فيها العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه بتأييد الأمير شكيب والتعلق به والولاء له، وكنت آسفاً أن تكون هذه المناسبة المؤلمة سبباً للكتابة عنه،

ولكن تذكري لخطبة البطولة واعتباري لهذه الضجة التي أثارها بعض المغرضين والمأجورين كوسيلة لوضوح سائر المناحي الغامضة في بطولة عميد الإسلام، خفف من أسفي، ولا أقول سرني، وإن كنت أعتقد في ذلك كله أساساً قوياً لتحصين مركز الأمير شكيب أرسلان وتقوية مهمته ونفوذه بين العالمين، لأنني كمسلم استحيي من بقاء بعض المسلمين في هذا الدرك رغم ما لقوه من صدمات وما امتحنوا به من محن.

ليس غريباً أن تنشر وثيقة مزورة عن الأمير، وليس غريباً أن تحاك حوله الدسائس ويتهم بأخطر التهم، وليس غريباً أن يكون محسوداً ومتربصاً به الدوائر من كثيرين، بل في اعتقادي، على العكس، من أعجب العجائب أن تملأ شخصية كشخصية الأمير العالم دوياً بتآليفها وخطبها ومراسلاتها ووساطاتها واتصالها بأهم الشخصيات العالمية في الفكر والسياسة، وسعيها المتواصل لتوحيد جهود المسلمين وتنبيههم إلى مواطن النقص في حركاتهم الإصلاحية ونهضاتهم الاجتماعية، وعملها لاستقلال الشعوب العربية وإحياء مجدها، وتمتعها بعد هذا كله بنفوذ عام شامل في سائر الأقطار الإسلامية ومركز مهيب يحسب له حساب بين القوات الدولية التي لها ارتباط بحياة العرب والمسلمين، دون أن تتكون حول هذه الشخصية دوائر العداء والدس، ودون أن تجد من أنواع المقاومات ما تخر أمامه الجبال، ودون أن تتحمل من أنواع الأذى ما يتقهقر جزء بسيط منه جمهوراً من المتطفلين والفارغي الوفاض من زاد الاستمداد لتحمل عبء القيادة والإرشاد.

الأمير شكيب أرسلان ابتدأ جهاده منذ خمسين سنة، وكل جهاده نقي طاهر لا برء فيه من رزق ذرة من الإنصاف غير العمل المتواصل لتحقيق المثل العليا التي تطمح إليها نفوس المسلمين في هذا الجيل، فهو لذلك ينشر بين المسلمين أزهر مراحل تاريخهم ويوفق بين شيعهم وطوائفهم وسلوكهم وآرائهم في السياسة والاجتماع والكفاح، ويتخذ نفسه الحارس الذي لا يكد في حفظ حقوقهم والدفاع عنها أمام الدول الغربية، ويضع مركزه ومعارفه وماله وكل ما رزق في الحياة وقفا على خدمة مصالح العرب والمسلمين، ويشعر كل مسلم يتصل به بعاطفة أبوية لا يفنى كنزها ولا يتكدر صفاءها.

وقيام الأمير بهذا الدور الخطير الذي يضطر معه أحياناً لمقاومة دول بأسرها ومحاربة قوات لها في الوقت من سلطان وبطش ما لها، غير كاف لخلق عراقيل في طريقه وتكوين مجموعة ممن لا أخلاق لها للتصغير من شأنه وبذل الجهود لإحباط مسعاه، زيادة على ما فقده بسبب جهاده من حقوق ومصالح تتمتع بها الأغلبية الساحقة من الناس.

هل مثل مناورة التزوير المفضوحة وآلاف المناورات من أشباهها تؤثر في مركز الأمير؟

وهل الدعاية التي ينشرها بعض الدساسين الآن في بعض الأقطار العربية تستطيع تأليب المسلمين على زعيمهم الأكبر وتقليل الثقة به؟

من المستحيل أن نفتح بصيرة العاقل للاقتناع بما يدس على الأمير، وهو من هو، إيماناً وعملاً وجهداً، وتاريخ حياته (وناهيك بهذا التاريخ) كله مفاخر ومزايا ونبل، وموقفه الحاضر، (وأكرم به من موقف) مجرد تضحية وإخلاص وتفان في خدمة قضايا الإسلام ومحاربة الاستعمار والدفاع عن الشرقيين وحقوقهم وآمالهم في الاستقلال والحرية والعزة والكرامة.

لم أقصد بهذه الأسطر تفنيد دعاوى الخوارج المارقين، ولا دحض ما يقدمونه كوثائق وحجج على أشياء مزعومة كونها خيالية، لأن هذا الأمر لا يتوقف على مجهود بين المسلمين الذين يعرفون الأمير أو يسمعون اسمه الكريم، وأبسط نظرة يرسلونها على الحجج الدامغة التي تطفح بها الصحافة الإسلامية تزيدهم احتقاراً ولعناً للمزورين والمستهترين بمصلحة الإسلام التي تنحصر اليوم في اتحاد الصفوف والثقة التامة بالقادة المخلصين.

ولكني أريد أن أسجل على صفحات «الحياة» الولاء الصادق للأمير، وتهنئته بالفوز على شذاذ الجماعة عن لسان المغاربة الذين يقدرون كل ما قام به الأمير نحوهم ونحو المسلمين على العموم.

هذا أمر خفيف يا أبا غالب، وسيعقب انتصاركم بحول الله تضامن المسلمين ودخول سيرهم في طور جديد يحقق لك تلك الأماني اللذيذة التي تستهويك ليلاً ونهاراً، ولولاها ما وجدت النشاط لما أنت فيه من تعب وكد وكفاح، رزقت الإعانة والتوفيق».

إن الأسباب التي أدَّت بالأمير إلى القيام بزيارته التاريخية للمغرب، بعد صدور الظهير البربري مباشرة، أي يوم ١٦ ملي. ذلك الظهير الذي فجر الحركة الوطنية وكل العاملين المخلصين في صفوف الجمعيات السرية التي كانت تعمل في الخفاء في كل من تطوان وفاس والرباط وسلا وغيرها من المدن المغربية.

لماذا؟ لأن ذلك الظهير كان يرمي في ما يرمي إليه إلى تمزيق الوحدة القومية والوحدة الدينية والوحدة الوطنية، فكان ردّ فعل لهذه السياسة الاستعمارية الفرنسية عند الشعب المغربي عنيفة، بما كان في الظهير من هجوم على الدين الإسلامي وعلى اللغة العربية وعلى الوحدة المغربية.

ويشير الأستاذ غلاّب في كتابه (تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب) إلى هذا الموضوع:

«... لم يكن هناك اتجاه معين ولا جماعة تنطق باسم المغرب كله، وإنما هناك جماعات وأفراد مايزالون يتلمسون طريقة للإعراب عما يساور أفكارهم وضمائرهم، وقد كان صدور الظهير البربري تفجيراً لهذه الطاقة. وكان أن عمَّت هذه الحركة بعد ذلك في الرباط وسلا ومراكش وانطلقت في شبه مظاهرة شعبية عامة بدأت بقراءة اللطيف جماعة وتطورت إلى الخطب والمظاهرات في الشوارع والاحتجاج لدى رجال السلطة... وكان ذلك في الأسبوع الأول من شهر يونيو سنة ١٩٣٠. وقد تضامنت الحركة في تطوان بعد ذلك مع منطقة الجنوب واجتمع المواطنون في المساجد وقرأوا اللطيف».

ويعلّق الطريس على هذا الكلام فيقول:

«كل هذا صحيح، ولكن بقي أن نعرف لمن يرجع الفضل في ذلك ومن الذي ألّف بين العاملين من المغاربة المخلصين في الحقل الوطني ووجههم توجيهاً سياسياً جديداً وأشرف على تنظيم الحملة ضد الظهير البربري وضد الاستعمار الفرنسي والإسباني خارج المغرب؟

بدون شك، يرجع الفضل في ذلك كله إلى الأمير شكيب أرسلان وهو لم يكن يقم بهذا العمل الجبار لو لم يزر المغرب ويتمكن من الاتصال عن

كثب بزعماء الحركة الوطنية وهم مجتمعين في مكان واحد، شاءت الأقدار أن تكون مدينة تطوان».

يقول المؤرخ جليان في كتاب طبع له في باريس، ١٩٧٨:

«أعطى الظهير البربري للأمير شكيب أرسلان فرصة التدخل في الشؤون المغربية، وبواسطة (لانسيون آراب)، شعر العالم الإسلامي بالخطر الذي كان يهدد دين محمد بسبب الهجوم الذي وقع على الإسلام بالمغرب من طرف مئات المبشرين المسيحيين، وهكذا وقع تضامن المؤمنين من الجزائر إلى جاوة وأعلنوا عن احتجاجاتهم التي كانت تزحزح (الكي دورساي) أي مقر وزارة الخارجية الفرنسية بباريس.

ويقول الأستاذ ريزيط:

«كان العمل الذي قام به شكيب أرسلان في الحملة المنظمة ضد الظهير البربري إحدى العوامل الرئيسة في نجاح تلك الحملة، وذلك لأن عمل الأمير كان له تأثير عميق في المغرب حيث عمل العاملون بإرشاداته وتحت قيادته. كما كان له تأثير كبير بالخارج حيث كان الأمير ينشر بدون انقطاع مقالاته في مختلف الصحف العربية».

وهنا، يطرح سؤال آخر. لماذا جاء الأمير شكيب أرسلان إلى مدينة تطوان؟

كان الأمير قد اختار أول مرة مدينة طنجة للقيام بزيارته إلى المغرب ظناً منه أن نظامها الدولي سوف يمكنه من الاتصال فيها بزعماء الحركة الوطنية المغربية سواء كانوا من جنوب المغرب أو من شماله، دون أن يتعرض لمضايقة الاستعمار الفرنسي الذي كان قد طرده من بلاده سوريا وحرّم عليه دخول أية بلاد عربية أخرى تحت الحكم الفرنسي مثل المنطقة الجنوبية بالمغرب.

وكانت فرنسا ستحول دون تحقيق رغبة الأمير لو لم يتمكن الحاج عبد السلام بنونة من الحصول على موافقة السلطات الاستعمارية الإسبانية ليقوم الأمير بزيارة تطوان ويتصل بها بزعماء الحركة بالشمال والذين جاؤوا للاتصال

به من فاس والرباط وسلا.

وتحقيق الزيارة يرجع الفضل فيه لعامل أساسي هو أن إسبانيا كانت قد اتخذت موقف الحياد في النزاع القائم بين الأمة المغربية وفرنسا بخصوص الظهير البربري، فكانت قد قررت عدم نهج السياسة الفرنسية في هذا المجال. وذلك لأسباب كثيرة منها أنها كانت حديثة العهد بتجربة الحرب الريفية التي ذاقت فيها الأمرين، فلم تكن مستعدة لمواجهة أي نوع من الاضطراب يقع في منطقة حمايتها نتيجة نهج سياسة بربرية مثل التي سارت عليها فرنسا في منطقتها، ومنها أن إسبانيا لم يكن لديها ما يبرر عدائها للأمير شكيب أرسلان، خصوصاً وإنها كانت تدعي أنها صديقة للشعوب العربية والإسلامية.

وعندما علمت الحكومة الإسبانية بأن الأمير ينوي القيام بزيارة للمغرب أبرقت إلى مقيمها العام بتطوان تقول له إنها لا ترى مانعاً في السماح له بالدخول إلى منطقة الشمال إذا رغب الأمير في ذلك. وهناك برقيات بهذا الخصوص وجهها مدير إدارة المغرب والمستعمرات الفرنسي، والحكومة الإسبانية لم تعر أي اهتمام إلى الاحتجاجات المتوالية التي تقدمت بها الحكومة الفرنسية مطالبة إياها بطرد الأمير من تطوان.

* * *

ماذا ترتب من نتائج على زيارة الأمير شكيب أرسلان لمدينة تطوان؟ ثم تذكر بالتفصيل نوعية المباحثات التي جرت بتطوان بين عطوفة الأمير وقادة الحركة الوطنية المغربية والتي كانت بمثابة مؤتمر اتخذت فيه عدة قرارات حسب تقرير المقيم العام الإسباني إلى حكومته بتاريخ ٥ تشرين الأول ١٩٣٠ وما تكهنت به الصحافة الفرنسية التي اهتمت كلية بزيارة الأمير، وقد قالت يومئذٍ أن عطوفته «لم يكن ليقوم بتلك الرحلة إلاّ لحاجة في نفس يعقوب».

ويؤكد المؤرخ جليان «بأن الأمير شكيب أرسلان أسس بتطوان مع الحاج عبد السلام بنونة القسم المغربي «اللجنة السورية الفلسطينية» التي أصبحت بعد ذلك «لجنة سورية فلسطينية مغربية».

و«إن شكيب أرسلان خلال الأيام التي قضاها بالمغرب لم يكتف

بالبحث والإطلاع على أحوال البلاد بل أعطى تعليماته وإرشاداته للوطنيين الذين وفدوا عليه من الرباط وفاس».

ويقول الأستاذ ريزيط:

«أصبح الحاج عبد السلام بنونة أكبر مساعدي الأمير نشاطاً بالمغرب، كما أصبحت مدينة تطوان صلة الوصل بين الوطنيين بفاس والأمير شكيب بجنيف منذ سنة ١٩٣٠».

ومما لا شك فيه أن الأمير خلال زيارته لتطوان وقع الاتفاق على خطة محكمة ضد الاستعمار الفرنسي متخذين في ذلك الظهير البربري كوسيلة للتظاهر والقيام بأعمال أكثر فعالية في الداخل مع شن حملة واسعة النطاق في الخارج، كل ذلك تحت إشراف الأمير وتوجيهاته. ولم يمر أسبوعان على مغادرة الأمير لمدينة تطوان حتى تأسست فيها يوم ٥ سبتمبر ١٩٣٠ الهيئة الوطنية الأولى المعروفة بالهيئة السرية. وهذه الهيئة تألفت من السادة: الحاج عبد السلام بنونة، محمد داود، أحمد غيلان، محمد طنانة، والحاج محمد بنونة.

في أول أيار ١٩٣١ رفعت عريضة بتطوان بمطالب الأمة المغربية التي احتوت على مطالب أساسية مهمة كانت الأولى من نوعها عرفها المغرب في عهد الحماية وتم تقديمها إلى رئيس الجمهورية الإسبانية يوم ٨ حزيران ١٩٣١.

وفي يوم ٤ حزيران نظمت الهيئة الوطنية بتطوان مظاهرة عمالية كان يتزعمها: محمد داود والتهامي الوزاني، فكانت أول مظاهرة من نوعها في المغرب في عهد الحماية.

وفي ١٩ حزيران دخلت الحركة الوطنية بشمال المغرب في مرحلتها الثالثة عندما أسست هيئة سياسية أطلق عليها اسم «وفد مطالب الأمة» وتألفت من السادة: محمد الطيب بوهلال (رئيساً) أحمد غيلان (نائب رئيس) عبد السلام حجاج وأحمد بن عبد الكريم اللبادي (أعضاء) والحاج عبد السلام بنونة (مستشار).

وإلى جانب هذه الهيئة العليا، تأسست هيئة فرعية باسم «اللجنة الفرعية لتحقيق المطالب» خاصة بالعمل داخل المنطقة الشمالية، وتألفت من السادة:

الفقيه محمد الصفار (رئيساً) التهامي الوزاني (نائبه)، محمد الداود، محمد أفيلال، محمد بو هلال، محمد باغوز، الحسن ابن عبد الوهاب، محمد طنانة، عبد الكريم الدليرو، ومحمد الدليرو (أعضاء). ومن الأحداث المهمة التي وقعت في هذه المرحلة:

- الانتخابات البلدية الحرة التي جرت بجميع مدن المنطقة يوم ٢٤ تشرين الأول ١٩٣١ حيث أحرزت فيها لوائح الهيئة الوطنية الأغلبية الساحقة.

- المؤتمر الإسلامي العام الذي انعقد بالقدس من يوم ٧ إلى يوم ١٧ كانون الأول ١٩٣١ وقد شاركت فيه الحركة الوطنية بشمال المغرب وقد مثلها أحد أعضائها الحاج محمد بنونة.

- تنظيم المهرجان الخطابي يوم ١٦ حزيران ١٩٣٢ بمناسبة الذكرى الثانية للظهير البربري ورفع برقيات الاحتجاج إلى رئيس عصبة الأمم بجنيف وإلى رئيس الجمهورية الفرنسية ووزير خارجيته في باريس وإلى المقيم العام الفرنسي بالرباط.

- تقديم طلب ترخيص بتأسيس جريدة «الحرية» من قبل الأستاذ عبد الخالق الطريس، إلى المقيم العام يوم ٢٠ حزيران ١٩٣٢.

- قام الحاج عبد السلام بنونة بزيارة الأمير شكيب أرسلان في مقر إقامته بجنيف من يوم ٢٦ إلى ٢٩ تموز ١٩٣٢.

- تأسيس «الهيئة التحضيرية لنظام حزب الإصلاح» بتطوان يوم ١٦ حزيران ١٩٣٣.

وهنا يطرح سؤال آخر: ما هو موقف الفرنسيين من زيارة الأمير شكيب أرسلان لتطوان؟

مما لا شك فيه أن الاستعمار الفرنسي كان قد قدَّر الزيارة التي قام بها الأمير إلى المغرب حق قدرها، فأدرك أسبابها وأبعادها وفهم أهدافها وتكهن

بنتائجها قبل غيره، وقد حاول عدة مرات أن يحول دون تحقيق رغبة الأمير تطلب من الإدارة الدولية أن تطرده من طنجة ثم قام بمحاولة أخرى لدى الإقامة العامة الإسبانية لطرده من تطوان وقدَّم إلى الحكومة الإسبانية بمدريد احتجاجاً يطالب فيه بطرد الأمير من تطوان بحجة أنه يقوم بحملة عدائية ضدها يسانده في ذلك عدد من زعماء الحركة الوطنية من شمال المغرب وجنوبه.

وقد شاء القدر أن يغادر الأمير مدينة طنجة متوجهاً إلى تطوان قبل صدور الأمر بطرده منها، كما شاء القدر أن تعارض إسبانيا سياسة الاستعمار الفرنسي، فلم يطرد الأمير من تطوان وإنما غادرها بعد أن نفذ برنامجه الذي من أجله جاء إلى المغرب.

وعندما رجع الأمير إلى طنجة مرة ثانية، وكان قد صدر الأمر بطرده، لم تقبل نفسه استلام القرار المشؤوم وصرَّح لرئيس الشرطة أنه اختار بمحض إرادته مغادرة الأرض الإسلامية العربية التي يسيطر عليها الاستعمار الفرنسي.

وشنت الصحافة الفرنسية حملة مسعورة ضد الأمير وضد من تحالف معه بتطوان. ولم تكن الحكومة الإسبانية ولا الإقامة العامة بتطوان بغافلة عما كانت تنشره الصحف الفرنسية عن الأمير واتصاله بزعماء الحركة الوطنية المغربية، الأمر الذي جعل الاستعمار الفرنسي يتتبع تحركات الأمير وكل مراسلاته خصوصاً المراسلات التي كانت تقوم بين الأمير والحاج عبد السلام بنونة.

وهناك رسائل كثيرة تكشف مدى العلاقة التي جمعت بين الرجلين، وقد نشرها الحاج بنونة مؤخراً في كتاب أسماه «الرسائل المتبادلة بين الأمير شكيب أرسلان وعبد السلام بنونة» عن مؤسسة عبد الخالق الطريس للثقافة والفكر في تطوان.

* * *

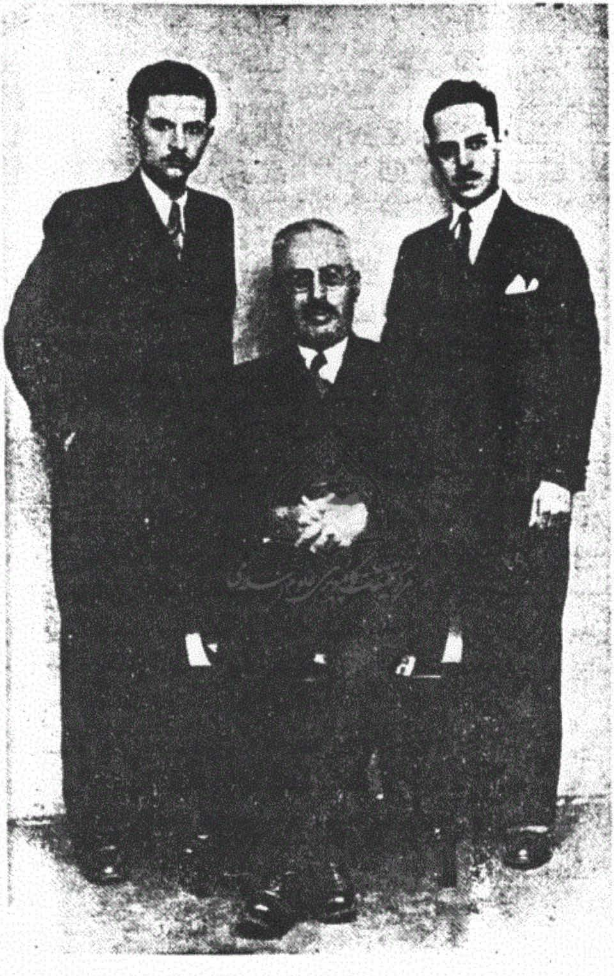
وأروع شيء فعله المغاربة وفاء للأمير شكيب أرسلان، هو إقامة حفلات ذكرى له بعد الوفاة، تخليداً لأعماله وتتويجاً لما قام به من جهاد نحو المغرب. وقد قال محمد الطنجي في ذكرى وفاة الأمير:

لـك يـا شكيـب مكـانـة فـي قلبنـا ... تبقـى علـى الأيـام رمـزاً للعـلا
إذ عشـت لـلإسـلام تبنـي مجـده ... وتـراه دينـاً للخلـود مـؤهـلا
فعظمـت فـي الـدنيـا بـذكـر خـالـد ... ولأنـت عنـد الله أعظـم منـزلا
فـاقبـل تحيـة مغـرب ووفـاء» ... فـي عـالـم قـد سـرت فيـه مبجلا

وقال فيه عبد الخالق الطريس:

«تاريخ حياة الأمير شكيب أرسلان كله مفاخر ومزايا ونبل، وموقفه الحاضر (وأكرم به من موقف) مجرد تضحية وإخلاص وتفان في خدمة قضايا الإسلام ومحاربة الاستعمار والدفاع عن العرب والمسلمين وحقوقهم وآمالهم في الاستقلال والحرية والعزة والكرامة».

هذا هو مجمل بعض الخطوط العريضة لنتائج زيارة الأمير للمغرب، والتي حققت نتائجها المتوخاة، وبعض الأضواء الجديدة التي كشف النقاب عنها لأول مرة، من خلال مطالعتنا لكتاب «وثائق سرية حول زيارة الأمير شكيب أرسلان للمغرب».



الأمير شكيب أسلان وعن يمينه علال الفاسي وعن يساره الحاج محمد بنونة في جنيف سنة ١٩٣٣

الفصل الرابع

وثائق ومستندات

بعض الوثائق والمستندات المتعلّقة بالأمير والشخصيات البارزة التي كانت على اتصال به، وهو جلّ ما استطعنا الحصول عليه حتى الآن.

نشرة أرسلها الأمير شكيب إلى محمود الطويل حماده، من بعقلين، يسميه مندوباً لجريدة «الشرق» في دمشق، الذي كان الأمير يؤسسها مع نخبة من الأدباء.

دمشق الشام في ١٠ شهر نيسان سنة ١٣٣٢

ايها الأخ الفاضل: محمود افندي الطويل حماده المحترم

تحية الله وسلامه عليك . وبعد فقد صحت العزيمة على انشاء جريدة عربية كبرى باسم «الشرق» يكون مقرها دمشق الشام . وصاحب امتيازها حضرة خليل افندي الايوبي الانصاري . ومديرها المسؤول حضرة محمد تاج الدين افندي الحسني . وقد عهد الى احدنا «شكيب ارسلان» برئاسة تحريرها . كما عهد بادارة التحرير الى احدنا عبد القادر «المغربي» وجريدة الشرق معضدة لسياسة الحكومة العثمانية كما انها معضدة من جهتها وسيصدر العدد الأول منها في عيد الجلوس السلطاني . وقد اخترناك ايها الفاضل لتكون عاملاً على نشرها في بلدك «بعقلين» فعسى ان نجد لديك من العناية والاهتمام بأمر «الشرق» وترويجه بين المشتركين ومواصلة الاخبار الصادقة ما نتوقعه فيك ونتطلبه من غيرتك وحميتك . وسنرسل اليك مقداراً من الاعداد في اول الأمر بشكل إضبارة «رزمة» مع قائمة باسماء مشتركين من بلدك ان وقع الينا شيء من تلك الاسماء . ولك الخيار في ان تزيد فيهم او تنقص . حتى اذا استقر امرهم في نفسك . وارتضيت اليهم في سرك : ارسلت الينا قائمة باسمائهم وعنواناتهم فنطبعها ونرسل الى كل واحد منهم نسخة بالبريد على حدة . اللهم الا اذا فضلت ان يبقى ارسال الاعداد اليك بشكل إضبارة ثم توزع بمعرفتك على اصحابها - فلك ذلك . وبدل الاشتراك هو كما تراه مسطوراً على طرة «الشرق» وسنرسل اليكم إضبارة اخرى من اعداد الشرق لاجل بيعها وتصريفها في بلدكم فيحسن ان تعرفونا عن القدر الذي يمكن تصريفه لديكم ويخصص لك قدر معلوم من مجموع حاصلات بلدك لقاء تعبك عدا اجرة التلغرافات التي يدعو اليها الحال في بعض الاحايين . والمقالة التي ترسل الى «الشرق» ويكون كاتبها قد احسن في اختيار موضوعها وتجويد سبكها واسلوبها تؤدي اليه إدارة «الشرق» اجرة عليها . وتقدير الاجرة عائد اليها . وقد كتب من هنا الى حكومتكم المحلية بشأن ملاحظة «الشرق» وترويج امره بين الأهلين . فيحسن ان تقدموا نفسكم الى حاكمكم المحلي وتعرفوه بوكالتكم «الشرق» . ولا بأس باطلاعكم له على كتابنا هذا اذا رأيتم له مقتضيا . ثم نرجوكم ان تعتنوا بالامر أتم عناية وبتقصي الاخبار من مصادرها الصحيحة أشد تقص . وان تكونوا من الترفع عن الضغائن والاغراض وما لا يعني من المداخلات - بحيث يليق بكم «الشرق» ويصح له ان يعتمد عليكم في المستقبل . لاسيما اذا لاحظتم انكم تمثلونه لدى الحكومة المحلية ولدى الاهالي معاً . فاعرفوا كيف يكون هذا التمثيل . وكيف تجنبون امثالكم الفضول والتثقيل . ومثلكم ما كان ينبغي مفاتحته بهذا الكلام لولا أن إدارة «الشرق» ارتأت تعميم هذه الكتابة الى جميع وكلائها في الجهات وعسى ان تعجلوا بالجواب وباسماء المشتركين لتكون على بينة من امر الوكالة في بلدكم واجعلوا مخابراتكم المتعلقة بالشرق مع مدير ادارة جريدة الشرق رأساً وهو حضرة علي حكمت ناهيد بك . ودمتم

رئيس التحرير	مدير التحرير	مدير الادارة
شكيب	عبد القادر المغربي	علي حكمت ناهيد

أرسل الأمير هذه البرقية من باطوم في تركيا بتاريخ ٢١ تموز ١٩٢٠، يذكّر فيها بمجازر الأرمن التي ارتكبوها بحق المسلمين في تركيا.

تلغراف من باطوم في ٢١ تموز ١٩٢٠

الى جريدة: (الطان)

Les musulmans en Arménie

Batoum 21 Juillet

La situation des musulmans en Arménie e
devenu critique ! Les persécutions en masse au
quelles se livrent le gouvernement d'Erivan
et le parti « Dachnak » contre les musulman
les massacres et les violences qui se sont renouvel
ces deux mois derniers poussent les débris des popul
musulmanes à s'enfuir en Perse en abandonnan
leurs foyers et leurs biens. Le Gouvernement armé
a organisé une commission spéciale pour enregistrer
maisons abandonnées par les musulmans et les
dans le district de Kars. Dans le district de Zang
zour vers la fin de juin une vingtaine de villages
musulmans furent détruits à coup de canon et
habitants massacrés. A l'heure actuelle la popul
musulmane de Transcaucasie se trouve prise entre
Arméniens et Bolchevistes. Le nombre des vict
dépasse plusieurs dizaines de mille, en dehors d
réfugiés.

المذكرة التي قدّمها مندوبو المؤتمر السوري ـ الفلسطيني والأحزاب الاستقلالية في سورية (شكيب أرسلان، رياض الصلح، إحسان الجابري)، إلى عصبة الأمم بتاريخ ٢٠ تشرين الأول، سنة ١٩٢٦، بشأن المفاوضات حول الانتداب في سورية ولبنان.

SOCIETE DES NATIONS.

47 459/4284

C.P.M. 476

Genève, le 20 octobre 1926.

COMMISSION PERMANENTE DES MANDATS.

Pétition, en date du 2 octobre 1926, signée de MM. Chekib Arslan, Ihsan El Djabri et Riad El Solh.

RECEIVED IN REGISTRY

DELEGATION SYRIENNE
21, Glacis de Rive.

Genève, le 2 octobre 1926.

Excellence,

Nous avons l'honneur de porter à votre connaissance ce qui suit :

Nous venons d'être informés que le Conseil de la Société des Nations qui devait recevoir pendant la session actuelle le projet de la loi organique de la Syrie et du Liban et qui attendait le dépôt de ce projet ainsi que la communication concernant l'accord qui devait être établi entre la France et le peuple syrien, en conformité des conseils de la Commission des Mandats, vient d'accorder un délai de 6 mois encore au Représentant de la France en vue de permettre au Gouvernement français de consulter les assemblées locales.

Nous avons l'honneur d'attirer l'attention de la Société des Nations sur le fait que ce nouveau délai apportera de nouveaux malheurs sur la Syrie qui attend héroïquement depuis de longues années, un acte de justice de la part de l'aréopage international.

C'est le troisième délai que la France demande à la Société des Nations non pas pour trouver une solution compatible avec les revendications du peuple syrien, mais, comme elle a fait jusqu'à présent, pour avoir l'occasion d'anéantir par le feu et le sang, toute velléité d'émancipation et d'indépendance que la Société des Nations elle-même a considéré comme une des bases de son pacte et de son activité bienfaisante.

Nous croyons que c'est de notre devoir de protester, le désespoir dans l'âme, contre ce nouveau retard apporté à la solution de cette question et nous ne savons plus quand la Société des Nations voudra bien intervenir en faveur des territoires confiés à sa garde pour donner fin aux scènes de carnage qui continuent toujours à se perpétrer en son nom.

Nous avons l'honneur, Excellence, de vous présenter l'expression de notre haute considération.

Délégués du Congrès syro-palestinien et des Partis de l'indépendance de la Syrie

(signé) l'Emir Chékib Arslan

Ihsan El Djabri

Riad El Solh

Sir Eric Drummond,
Secrétaire général de la
Société des Nations,
GENEVE.

كتاب من مندوبي المؤتمر السوري ـ الفلسطيني، والأحزاب الاستقلالية في سورية (شكيب أرسلان، رياض الصلح، إحسان الجابري)، إلى السير أريك دريموند السكرتير العام لعصبة الأمم المتحدة في جنيف، أودعوه بها نسخة عن المذكرة التي قدموها إلى اللجنة الدائمة للانتداب في جنيف، بتاريخ ٢٠ تشرين الأول، سنة ١٩٢٧.

1/47459/4284

Genève, le 20 Octobre 1927.

Monsieur le Secrétaire Général,

Nous avons l'honneur de vous présenter la requête que nous venons d'adresser à la Commission Permanente des Mandats, qui doit avoir une session vers la fin de ce mois.

Veuillez agréer, Monsieur le Secrétaire Général, l'expression de notre très haute considération.

Les Délégués Syriens

Emir Chekib Arslan Ihsan Djabri

Riadh Solh

A Son Excellence
Sir Eric DRUMMOND,
Secrétaire Général
de la SOCIETE DES NATIONS,
G E N E V E.

كتاب من الأمير شكيب أرسلان، إلى المركيز تيودولي رئيس اللجنة الدائمة للانتداب الفرنسي، بتاريخ ١٠ تشرين الثاني، سنة ١٩٢٨ .

Depuis quelques temps, les lettres que nous recevons
de la Commission des Mandats nous enlèvent
nos titres. Serait-ce parce que ce n'est pas le temps
de cérémonie ? mais ça n'empêche pas. Un Comte
est appelé Comte, même devant un tribunal. Je n'en
veut pas faire une question, mais je ne sais pas qu
les raisons pour lesquelles on a renoncé à nous
donner des titres qui sont nôtres. Je voulais en
parler à Monsieur de Catastini, mais il n'a pas
eu le temps pour me fixer un rendez-vous.

Et veuillez, Excellence, agréer l'expression de mes
plus haute considération. Votre Dévoué

l'émir Chekib Arslan

21 Avenue Dapples,
Lausanne

with Syrian freedom. They further declare that the Syrians [illegible] desire that their country should have been placed [illegible] Mandate, [illegible]

رثاء الشقيق

ننشر قصيدة (الرثاء المفجعة) التي نظمها الأمير عادل في شقيقه، وفيها معانٍ عميقة، وشعور لا يضاهى، أثبتناها للتاريخ، نشرتها جريدة (الصفاء) في عددها الصادر في ١٥ آب سنة ١٩٤٨.

نفى النوم ما هاج الضمير المناجيا ... أفي الغيب ما أخشى وإلاّ فما ليّا؟

هواجس قد أصبحتُ بعد دبيبها ... أكاد إذا أنصتُّ أسمع ناعيا

إذا تلعات النبك لاقت نواظري ... تمثّل فيها ضاحك الروض باكيا

وقفت على وادي السراحين واجماً ... أخالط ليلاً بالملمات داجيا

على النخلات الخمس يطغين في ... الدجى يشرن إلى المشتاق ألاّ تلاقيا

تمايل من هوج الرياح كأنها ... نوادبٌ يحثين الترابَ بواكيا

ألا أن هولاً شد من كل جانب ... وأطبق يستدجي عليَّ النواحيا

بلى قد مضى والقلب يهفو لذكره ... نسيب وخلي آهل الربع خاليا

فيا نائباً أواه لو أن نظرة ... تزودتها من قبل إن صرت نائيا

فديتك لو ترضى المنية فديةً ... وهيهات ترضى بي لمثلك فاديا

أتقضي ويعدوني الحمام مخاطراً ... لعمري لقد أبطأت في العمر ماشيا

ويخطئني سهم ويرديك غيره ... فيا لهفي ما أخبث الدهر راميا

شقيقك من يعرفك يعرف مصابه ... ويرثي له رائيك حالاً واتيا

لئن لقيت نفسي من الصبر مثبتاً ... فقد لقيت من فادح الخطب نافيا

فمن عبرات تترك الجفن دامياً ... إلى زفرات تترك القلب واريا

وبدرين غيلا بالخسوف فأوّل ... أطلّ وثانٍ لم يبن قط ثانيا

أطلّ فما أنسى حبيباً وإنما ... بكائي على البدر الذي ظلّ هاويا

وكنت أرجيها رسالة والهٍ ... على أمل اللقيا فكانت مراثيا

فيا لك من شعر سداه مدامع ... ولحمته نفس تذوب قوافيا

تحول قسراً في النسيب مراثيا ... وليت له ألفاظه والمعانيا

أخي إن يطل للدمع ليلي فإنني ... أرى بعدك الأيام صارت لياليا

ورثت المعالي عن كرام فزدتها ... بأخلاقك الغر الحسان معاليا

فلـو أنني رافقتـك اليـوم قـاضيـاً ... عليك أسى ما كنت للفضل وافيا
ولسـت بـدار كيـف ألقـى منيتـي ... ولا أيـن تـذروني الـريـاح سوافيا

* * *

أبى الحر وابن الحر نفساً ومحتداً ... بـلاداً يـرى الأحـرار فيهـا مـواليـا
جواضر عـاف المرء فيها مقامه ... وفضـل مختـاراً عليهـا البـواديـا
بـأعـداء جـلابيـن للشـر جهـدهـم ... فمـا يصحبـون النـاس ألا أعـاديـا
إذا طولبوا بالحق جاشوا وجيشوا ... فحزوا رؤوساء أو فجزوا نواصيا
رمـونـا بـديـناميـت حتـى تفلقلـت ... جبال على حوران كانت رواسيا
فما غيروا القلب الذي كان مخلصاً ... ولا أوهنوا العز الذي كان ماضيا
وقـد خبـروا وقـع السيـوف بـواتـراً ... تفلـق هـامـات الـرجـال مـواضيـا
ودبـوا بـأبـراج الحـديـد كـأنهـا ... سـلاحـف مـا يمشيـن إلاّ تهـاديـا
دوارع يلقـاهـا الفتـى وهـو حـاسرٌ ... يصـادمهـا بـالفـأس جذلان حـاديـا
فبينـا تـراهـا زاحفـات إذا بهـا ... أسافلُها صـارت عليهـا أعـاليـا
تـواريخهـا مسطـورة فـي متـونهـا ... متـونـاً بـأفعـال الظبـى وحـواشيـا

* * *

أقول لمن يبلو لدى الخطب صبرنا ... تـرى الصبـر فينـا شيمـة وتـواصيـا
ونـركـب للغـايـات قبـل خيـولنـا ... مـن العـز والإقـدام جـرداً مـذاكيـا
عـزائـم لا تفنـى وتفنـى جسـومنـا ... فتمضي مع الأرواح بهماً خوافيا
إذا الـوطـن المحبـوب فـاز بحقـه ... وجـدنـا الـرزايـا فـي هـواه تعـازيـا

عن وادي السرحان

عادل أرسلان

رسالتان وثيقتان

لم أر أخيراً، أفضل من أن أختم هذا الكتاب، بنشر رسالتين ـ وثيقتين مهمتين ـ كتبهما شقيقه الفارس الأمير عادل أرسلان بخط يده. الأولى تصف سرور الأمير شكيب العظيم، عندما قدم على ظهر الباخرة بروفيدانس، ووطئت قدماه أرض الوطن، بعد غياب طويل، نهار الأربعاء ٣٠ تشرين الأول سنة ١٩٤٦، ثم تشير الرسالة إلى مرض الأمير وإلى ما عاناه في أواخر حياته من تصلّب الشرايين على أثر إجهاد نفسه في الردّ على الرسائل واستقبال الآف الزائرين.

وفي الرسالة الثانية (كلمة شكر) للذين واسوه بفقد شقيقه الكاتب الأكبر ولعدم تمكنه من إرسال الأجوبة الخطية.

والرسالتان زودنا بهما حضرة الصديق محافظ الجنوب الأستاذ حليم فياض، وهما من محفوظات نسيبه الأستاذ سعيد داود فياض، صاحب جريدة «البيان» المشهورة التي كانت تصدر في نيويورك.

***

عادل أرسلان (١٨٨٧ ـ ١٩٥٤) أحد كبار مجاهدي ثورة ١٩٢٥. كان سياسياً بارعاً محنكاً، وفارساً من الفرسان الشجعان، وشاعراً تهز قوافيه المشاعر فتنبعث في النفوس النشوة والعزة والخيلاء.

التحق بالثورة السورية الكبرى ١٩٢٥، فانخرط فيها وقاد جيوشها في كثير من المواقع. ظهرت شجاعته وفروسيته فلقب بأمير «السيف والقلم». وتولى قيادة «إقليم البلان» ثم اضطر تحت ضغط الجيش الفرنسي إلى الانتقال مع سلطان باشا الأطرش إلى «النبك» ثم إلى «الأزرق» فأقاما مع فريق من المجاهدين هناك، إلى أن ضايقهم الإنكليز وأخرجوهم إلى «قريات الملح» ١٩٢٦. حكم عليه بالإعدام غيابياً ثلاث مرات: أولها يوم دخول الفرنسيين دمشق في ٤ تموز ١٩٢٠، والثانية ١٩٢١، والثالثة أثناء الثورة ١٩٢٥، سافر إلى أوروبا عقب انتهاء الثورة، وبقي متنقلاً بين سويسرا وفرنسا، إلى أن قاد الحكم الوطني في سوريا ١٩٣٦ فعاد إلى «دمشق»، وعينته الحكومة الوطنية سفيراً لها في «أنقرة» (١٩٣٧ ـ ١٩٣٨). ولما انهار الحكم الوطني بانهيار مشروع المعاهدة، اعتقله الفرنسيون وأبعدوه إلى «تدمر». سافر إلى تركيا لاجئاً ١٩٤٠، وبقي فيها طوال سنوات الحرب. تقلد الوزارة ثلاث مرات.

انتخب نائباً عن الجولان في البرلمان السوري ١٩٤٧ وكلف في ٨ كانون الأول ١٩٤٨ تشكيل الوزارة السورية فاعتذر عن عدم القيام بهذه المهمة، وكلف مرة أخرى فاعتذر. وكان مندوباً لسوريا في مؤتمر فلسطين الذي عقد في «لندن» وفي ١٩ نيسان ١٩٤٩ عهد إليه برئاسة الوفد السوري إلى الأمم المتحدة، ولكنه استقال من هذا المنصب في ٢٠ تشرين الأول ١٩٤٩ احتجاجاً على سياسة الحكومات العربية في معالجة قضية فلسطين. وفي عام ١٩٥٠ انتخب عضواً للأكاديمية الدبلوماسية السياسية الدولية. أحيل على التقاعد ١٩٥١. اختلف مع الرئيس شكري القوتلي فاعتزل العمل. وعند قيام الانقلاب الأول بقيادة حسني الزعيم أسهم الأمير في تقوية الانقلاب وتوجيهه، وكان نائب رئيس الحكومة ووزيراً للخارجية، قبل أن يصبح الزعيم رئيساً للجمهورية. لم يرض عن تصرف حسني الزعيم فاعتزل العمل وعاد إلى بيروت.

عرض عليه ملك ليبيا، إثر ذلك، أن يكون رئيساً للديوان الملكي، فقبل أولاً ثم اعتذر. وتوفي الأمير بالسكتة القلبية بعد ظهر يوم السبت ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٤.

وهنا النص الحرفي للرسالتين:

حضرة الصديق العزيز سعيد أفندي فياض المحترم:

أشكر لكم تعزيتكم وأنا أعلم أنكم أظهرتهم فيها شعوراً صحيحاً بالحزن على المرحوم الذي كان لا ينقطع عن الثناء عليكم في كل مناسبة، ولا عن المباهاة بوطنية أمثالكم من المهاجرين ويسؤوني أني لم أتمكن من الجواب على البرقيات والرسائل التي استمرت ترد من كل الأنحاء حتى بعد سفري من بيروت إلى هنا، تعزية بالمرحوم قد بلغت إلى يوم سفري ٨٦٣ برقية عدا الرسائل، فلم يكن بد من إعلان الشكر لأصحابها على صفحات الجرائد بدلاً من الجواب على كل منها على حدة.

ولما كنت أجهل عنوان «البيان» الجديد بعثت إليكم هذه الرسالة بواسطة المفوضية السورية في واشنطون، رجاء أن ينشر شكري في «البيان».

ولعلكم تريدون أن تعلموا شيئاً عن مرض المرحوم الذي سبب وفاته تغمده الله برحمته فأقول إنه جاء معي من مرسيليا في أواخر تشرين الأول وهو متعب يستبطىء سير الباخرة شوقاً إلى الوطن فلما أقبلنا على بيروت، ظهر عليه سرور شديد ثم توالى ورود الزائرين والمسلمين شهراً كاملاً فكان يستقبل المئات منهم في كل يوم ويحادثهم ثم يرافقهم إلى الباب برغم التعب الظاهر فلما طال الأمر نصحت له ونصح له الأطباء بالتزام الراحة فلم يقبل، وكان يجيب أن رؤيتي هذا الوطن حراً مستقلاً وهذه الأمة العربية متحدة هي ما كنت أصبو إليه وأعيش لأجله فلا يهمني بعد الآن طال عمري أو لم يطل. وظلَّ هكذا يزار ويزور حتى اشتدَّ عليه تصلب الشرايين وانتهى إلى حدوث نزيف في شرايين الدماغ على أثر إجهاد نفسه بالرد على رسائل كثيرة فلم يستطع الطب الحيلولة دون قضاء الله الذي لا راد له وكانت وصيته الأخيرة «لا تنسوا فلسطين».

وقد أظهرت البلاد كلها على اختلاف طوائفها وطبقاتها شعوراً كريماً لم يسبق نظيره، وتسابقت المنظمات والمدارس الوطنية إلى تنظيم موكب الجنازة وحمل النعش بدافع شديد من المرؤة والوطنية لاسيما نجادة بيروت وطلائع العامليين وغصت الشوارع والساحات بالناس من أبناء بيروت والشوف والمتن وغيرها من وفود المدن اللبنانية والسورية وتوالت البرقيات من الأقطار العربية كلها من مراكش والجزائر وتونس وطرابلس إلى عدن وإلى البصرة فضلاً عن المهاجر وأوروبا والهند وغيرها. فلو كان في هذا ما ينسينا شكيباً لسلوناه لكنه شعور كريم ووفاء عظيم نعجز عن إيفائه حقه من الشكر، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

عسى أن يكون الشيخ هاني (يقصد الشيخ هاني أبو مصلح) قد وصل واستلم تحرير «البيان» فهو خير من يقوم بهذه المهمة وقد سرني كثيراً أنه سافر من أجلها فأرجو للبيان نجاحاً ورواجاً وأشكر لكم تعبكم في استحيائها ولولا ذلك لماتت وخسرت جاليتنا جريدة لها خدمة كبيرة.

لا يبعد أن أسافر إلى نيويورك في أيلول القادم إذا وضعت قضية فلسطين موضع البحث في منظمة الأمم وهي قضية يجب أن يهتم لها كل

عربي أياً كان أصله ومسقط رأسه، ويجب أن تقام لها دعاية واسعة في الولايات المتحدة وأن يعلم الأميركيون أن انتصارهم للصهيونية وباطلها قد أحدث في البلاد العربية نوعاً من الدهشة والنفور نظراً لما لهم فيها من الاعتبار والتقدير.

هذا مع إهدائكم تحياتنا وتمنياتنا ودمتم.

أما الرسالة الثانية فهي كلمة «شكر»:

بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن أسرتي أتقدم بشكري الجزيل لجميع الأصدقاء الذين أبرقوا أو كتبوا إلينا من الولايات المتحدة وكندا وسائر المهاجر معزين في مصابنا الفادح بالمرحوم شقيقي معتذراً لهم عن عدم الجواب على كل رسالة وبرقية بمفردها باضطراري بعد المأتم بمدة قصيرة إلى السفر إلى لندرة لتمثيل سورية في مؤتمر فلسطين مما لم يترك لي وقتاً للجواب على مئات من البرقيات معرباً لهم عما وجدت من العزاء في تعازيهم الدالة على مشاطرة أكيدة للأسى العظيم الذي أصابنا بفقد الشقيق الذي كانت وصيته الأخيرة:

«لا تنسوا فلسطين».

ذكرى الأميرين

قامت في بيروت في عام ١٩٥٥ لجنة دعيت «اللجنة العاملة لتخليد الأميرين شكيب وعادل» قوامها عدد من العلماء والأدباء وأصحاب الفضل. وقد عقدت اللجنة في ذلك الوقت اجتماعاً أو اجتماعين على ما نظن، ثم توقفت بعد أن جمعت بعض التبرعات لوضع تمثالين تخليداً لذكرى الأميرين.

وهذه رسالة موجهة من الرئيس سامي الصلح ورشاد دارغوث إلى أمين بك خضر. بقيت هي وماتت اللجنة ومعها التمثالان.

... الأميرين شكيب وعادل ارسلان

بيروت

حضرة الاستاذ امين بك خضر المحترم

تلقيت رسالتكم الرقيقة تاريخ الثاني من هذا الشهر ، واغتنمت فرصة اجتماع المكتب التنفيذي في جلسته ، المنعقدة في ٢١/١٢/١٩٥٥، كي اشعره باهتمامكم المشكور في مسعاه لتخليد ذكرى الفقيدين العظيمين .

وقد تقررت دعوة حضرتكم الى اولى جلسة تعقدها اللجنة العامة ، التي تعتز بالتعاون معكم

وتفضلوا بقبول الشكر والاحترام ./.

بيروت في

امين السر

الرئيس

مخطوطات أمير البيان

كثر الحديث عن المخطوطات التي تركها الأمير شكيب أرسلان والتي لم تطبع في حياته.. وفي الواقع أن للأمير آثاراً كثيرة منها، المؤلَف، والمترجم، والمحقق، والرسالة، والمحاضرة، والبيان السياسي، وأكثرها مجهول المصير. وقد ظلَّ الأمير طوال ستين عاماً يكتب ويخطب ويراسل ويسافر، فلا عجب إذا كانت هناك مؤلفات كثيرة ما زالت باقية ولم يعرف عنها شيءٌ. يقسم تراث الأمير، غير مؤلفاته المطبوعة إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ الكتب ٢ ـ الرسائل ٣ ـ المقالات.

وصرَّح لنا بهذا الصدد، الدكتور المؤرخ عادل نويهض أحد معاصري الأمير الأحياء، حسب معلوماته الخاصة، عن المخطوطات والرسائل فقال:

«مؤلفاته المخطوطة فقدت كما قيل بعد وفاته مباشرة. ووفقاً لمعلوماتي الخاصة أن ابنه المرحوم غالب قد باعها ـ كلها أو بعضها ـ إلى رجل من الضاحية الجنوبية تربطه به صداقة متينة. وفعلاً عرضت عليّ مخطوطتان منها عام ١٩٨٥ لشرائها، ولكن الظروف المادية حالت دون ذلك. فبيعت لأستاذ في الجامعة اللبنانية، كما علمت أن بعضها وصل إلى بلدة «عبيه». إذن لا سبيل لجمع هذا التراث ونشره، إلاّ إذا عرفنا أين مستقره. أما رسائله إلى أصدقائه في دنيا العرب والإسلام فكثيرة جداً ومهمة جداً. وقد قدِّر لي أن أطلع على عشرات منها موجهة إلى عجاج نهويض. وكانت في مكتبته في (بيت المقدس) قبل النكبة عام ١٩٤٨، ثم استقرت في مكتبة الجامعة العبرية في المدينة نفسها. كما اطلعت على رسائل أخرى موجهة إلى المؤرخ العراقي السيد عبد الرزاق الحسني في الثلاثينات من هذا القرن. وعندي معلومات أخرى بأن هناك صندوقين كبيرين أحضرهما الأمير معه عندما جاء آخر مرة إلى لبنان في شهر تشرين الأول عام ١٩٤٦، تحتويان على مذكراته وكتبه ووثائقه ومخطوطاته ورسائله. وقد شحنتهما السيدة ميّ ابنة الأمير وأهدتهما إلى ملك المغرب الحسن الثاني،

وكان الواسطة في ذلك الأستاذ أحمد ابن سودة رئيس البلاط الملكي، ولا نعلم بالضبط مدى صحة هذا الأمر».

وعلى كل، سوف نحاول هنا، أن نذكر المخطوطات التي تركها الأمير، وقد استقيناها من مصادر شتى.

* * *

اختلاف العلم والدين:

«اختلاف العلم والدين» ترجمه الأمير عن الفرنسية للعلاّمة داربر الأميركي، وقد اطلع عليه وهو في الثامنة عشرة من عمره، وقد شجعه على زيادة التدقيق والضبط العلاّمة الشهير فانديك أحد أساتذة الجامعة الأميركية في بيروت، والإمام الشيخ محمد عبده عندما جاء بيروت وسكن فيها فترة قصيرة. وقد صحّح الألفاظ العلمية الفنية الدكتور فانديك. وقد شهد فانديك بصحة الترجمة وقال لمن سأله عن الأمير «جاء بالصنعة».

وقد ذكر الأمير في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» تحت فصل «في تجدد العلوم»: «... هذا ما اخترنا نقله من ترجمة كتاب درابر «اختلاف العلم والدين» وهو كتاب مشحون بالفوائد، إذا انتدح الوقت قد نعيد النظر عليه، ونطبعه مع تعليقات الدكتور فانديك الذي طالع الترجمة كلها».

بيوتات العرب:

ويعتبر هذا المخطوط من الكتب المهمة، وهو يقع في ثلاث وثلاثين كراسة وأن «نسخته موجودة عند المرحوم محمد علي الطاهر، ويظهر أن الكتاب لم يكتمل تماماً، لأن آخر المخطوط في الكراريس يدل على قطع السياق»، كما يقول الأستاذ أحمد الشرباصي.

وذكرت مجلة «منبر الشرق» التي صدرت في القاهرة، في عددها ٨ نيسان ١٩٥٥، في مقال للأستاذ محمد علي الطاهر، جاء فيه قوله إن «البيوتات العرب» مقدمة كتبها الأمير، من جنيف، بتاريخ ١٩ تموز ١٩٤٦، ورد فيها:

«الحمد لله سياج النعمة، ومخافة الله رأس الحكمة، ونشهد أن لا إله إلاّ الله، شهادةً نستفتح بها أبواب الرحمة، ونلجأ إليها في كل بادرة وأزمة، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله، كاشف الغمة، وسراج الظُّلمة، صلى الله عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين الذين باتباع وصاياهم تمام العقل وكمال الشِّيمة.

وبعد، فإنني منذ عشر سنوات نشرت ديوان المرحوم أخي نسيب أرسلان، وعلقت عليه بعض حواشٍ، وصدرته بترجمة الناظم ونسبه، وسلسلة نسب العائلة الأرسلانية، وسميت ذلك الديوان: «بروض الشقيق في الجزل الرقيق».

ولما كنت قد رأيت نشر سجل النسب المحفوظ عندنا بأجمعه شيئاً لا يتناسب مع حجم الديوان نفسه، عدلت فيه إلى الاختصار بقدر الإمكان، ولكنني لم أجد بُداً من ترجمة كثير من الأعلام المشهورين في التاريخ، ممن وقعوا على ذلك النسب، وأتيت على ذكر حوادث كثيرة تتعلق بأخبار جبل لبنان والمدن الساحلية من برّ الشام، متوخياً في ذلك كلّه الاختصار.

إلاّ أنني وجدت الموضوع المتعلق بهذه الحوادث من الأهمية بحيث أنه يجدر باستيعاب أوفى، وتدقيق أشمل. ولما كنت من بداية نشأتي مغرماً بعلم التاريخ، وقد حررت فيه تواريخ كثيرة للبلاد النائية عنا، وجدت من الأحرى بشأن أن أؤرّخ حوادث بلادي، وأبدي فيها وجهة نظري، مع التحرّي التام، والتمحيص البليغ الذي تستطيعه الافهام.

فوضعت هذا الكتاب الذي أعطيته عنوان بيوتات العرب في لبنان، ونقلت فيه نسبَ عائلتي بني أرسلان بتمامه، مع تراجم جميع الأعلام الذين جاء ذكرهم في هذه الإثباتات المتوالية منذ سنة ١٤٢ للهجرة إلى يومنا هذا، ما استطعت إلى وجود الترجمة سبيلاً.

وتعرضت للحوادث التاريخية بصورة تكشف القناع عن كثير من غوامضها، وأتيت بالجملة على أخبار القبائل العربية التي أوطنت جنوب لبنان من صدر الفتح العربي إلى اليوم، وذكرت أخبار الأسر المشهورة الذين عاصروا أجدادنا طويلاً أو قصيراً من الزمن، وكان لهم شأن في

إدارة أمور لبنان، وذلك مثل الأمراء التنوخيين، والأمراء من بني عَلَم الدين، والأمراء بني العساف، والأمراء بني سيفا، والأمراء اللمعيين، وذوي الإقطاعات المشهورة كالمشايخ الجانبلاطيين، والعماديين، والنكديين، وبني تلحوق، وبني عبد الملك، وغيرهم من ذوي الشهرة في هذا الوطن العزيز وما جاوره.

فجاء كتاباً وافياً بهذا الموضوع بقدر الاستطاعة، وسلكت فيه سبيل التمحيص التي هي مزية المؤرخ الذي يحترم نفسه، ويريد أن يكون في عداد المؤرخين.

وما أبرِّىء نفسي من الخطأ، إذ كانت العصمة لله وحده، والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب».

تاريخ بلاد الجزائر:

«تاريخ بلاد الجزائر، وأخبار الأمير عبد القادر»، كتاب في تعريب الأعلام العربية المكتوبة بأحرف أجنبية، وقد حاول فيه الأمير شكيب أن يبذل مجهوداً لإصلاح ذلك، وعبَّر عنه بقوله:

«وقد كنت في أوائل عهد المعاناة عرَّبت تاريخاً لبلاد الجزائر وأخبار المرحوم الأمير عبد القادر، فوجدت فيه كثيراً من الأعلام من أسماء وقبائل وأماكن لم أدر تماماً ما حقيقة أصلها، فقيَّدتها كلها في فهرس معي، وعرضته على حضرة العلاَّمة الشريف السيد محمد مرتضى الحسني الجزائري ابن أخ المرحوم الأمير عبد القادر وأحد علماء المغرب في المشرق، فحقَّق لي ألفاظها. وهكذا أمكنني ردُّها إلى أصلها، لأنه إن أمكنت معرفة الأعلام المشهورة مثل (أوران) بأنها (وهران)، فكيف تمكَّن ـ بدون موقِّف ـ معرفة (أين مدهي) بأنها (عين ماضي) وهلمَّ جرَّاً».

البيان عمن شاهدت من الأعيان:

وهو كتاب عثرنا على بعض أوراق منه غير مكتملة ومبعثرة في مكتبة أمين خضر من بعقلين. وسنسعى بإذن الله، إلى طبعه عندما تسنح الفرصة بذلك.

وهو عبارة عن أعيان من جبل لبنان، ومن ضمن الدولة العثمانية، عرفهم واختلط بهم فكتب عنهم. وفي رسالة من الأمير إلى علي غاياتي بتاريخ ١١ نيسان ١٩١٩ نشرتها «منبر الشرق» في ٦ شباط ١٩٥٣ يقول:

«وأنا الآن أكتب خاطراتي تحت عنوان البيان عمن شاهدت من الأعيان وشهدت بالعيان فيه ذكر من عرفتهم في حياتي ممن يستحق الذكر، مرتبة أسماؤهم بحسب حروف الهجاء، وكل هذه الأخبار ترد هناك، ما يتعلق بكل واحد تحت اسمه، وكل مسألة أبرهن عليها، وآتي بأدلتها وشهودها».

حياة شكيب بقلمه:

كتب الأمير شكيب حياته بقلمه، وضمنها مذكراته عن الأحداث السياسية والاجتماعية التي وقعت في عصره، واشترك فيها أو تأثر بها، أو وقف على أخبارها وأسرارها.

ويقول محمد علي الطاهر أن الأمير «قد استودع هذه الترجمة مكتب المؤتمر الإسلامي في القدس، بعد تصديقها وتسجيلها، حتى تنشر الترجمة بعد وفاته».

ويعتقد الطاهر أنَّ مذكرات الأمير شكيب قد ضاعت في جملة ما ضاع من المجلس الإسلامي الأعلى، وكان لهذا المجلس سجلات خاصة به في المسجد الأقصى. ويظن بأنه يوجد نسخة عند ابنه غالب أرسلان.

وفي رسالة من الأمير إلى علي رشدي الذي كان يراسل الأمير من القدس، توجد رسالة من الأمير يذكر له فيها شيئاً عن ترجمة حياته.

يقول الأمير في هذه الرسالة، من جنيف، بتاريخ ١٥ ربيع الأول ١٩٣٦:

«قد تلقيت جميع ما أرسلتموه من نسخ عن حياتي إلى آخر ما وصلنا فيها، وهو صفحة ٨٧ بالآلة الكاتبة. وقرأت جميع مكاتيبكم التي في صحبة الترجمة، وشكرت همتكم، ولولا الحوادث الحاضرة في فلسطين،

وشغل الباب من جهتها، لكنت باشرت إرسال التكملة قطعة بعد قطعة، ولكن شغل البال بفلسطين من جهة، ووجود أربعة كتب لي تحت الطبع من جهة أخرى ـ ولابدَّ من متابعة الإرسال إلى المطابع ـ كل ذلك يجعلني أتأخر هذه المدة عن إكمال الترجمة، وسأشرع بذلك إن شاء الله، بعد أن تتقدم المطبوعات في طريق النجاز».

ما لم يرد في متون اللغة:

وجَّه الأمير شكيب رسالة إلى الإمام محمد رشيد رضا بتاريخ ١٣ ربيع الأول ١٣٥٠ هـ. يقول له فيها:

«... وسأنشر قريباً رسالة فيما جاء عن الذين يستشهد بعروبتهم ولم يرد في متون اللغة».

طرابلس وبرقة:

في تعليقات الأمير شكيب، في الطبعة الثانية، من كتاب «حاضر العالم الإسلامي»، يذكر أنه شرع في البحث عن البلاد الطرابلسية. فيقول: «ولما كنا قد دخلنا في بحث طرابلس وبرقة، فقد رأينا أن نتمم هذا الفصل بمعلومات إحصائية وجغرافية عن تلك البلاد، كنا جمعناها في أثناء ذهابنا بنفسنا إلى الجهاد في برقة سنة ١٩١١ إلى ١٩١٢، وأجمعنا أن نحررها في كتاب مستقل برأسه، إلاّ أن العوائق الكثيرة من توالي الأسفار وتحرير الأسفار، وغير ذلك من الأشغال والمهمات لم تتح لنا أن نبرز هذا الكتاب إلى الوجود.

فرأينا الآن أن نلخص هذه المعلومات هنا في هذه الطبعة من هذا الكتاب، كما أننا كنا في الطبعة الأولى، قد ذكرنا كثيراً منها في عرض البحث عن السادة السنوسيين وزواياهم»[1].

ويقول الأمير شكيب أيضاً في شأن هذا الكتاب: «لعلنا في يوم من الأيام ننشر كتاباً على حدة في قضية طرابلس، نثبت فيه جميع ما وقع بيننا

(١) حاضر العالم الإسلامي، ج ٢، ص ٨٥.

وبين إيطالية في هذا الموضوع بالوثائق الخطية، وننشر جميع المكاتيب الواردة إلينا من الطرابلسيين، غير محتجنين شيئاً سوى ما يجوز أن يقع من أجله ضرر بحق كاتبيه، فإننا لا نرضى أن يصاب أحد بأقل ضرر لأجل إثبات حجتنا»[٢].

الرحلة البوسنية:

يقول الأمير شكيب أرسلان في مقال كتبه في (مجلة الفتح) المصرية، العدد السابع، العدد ٣١٠، ١٤ جمادي الأول، ١٣٥١ هـ:

«... وقريباً سأصدر كتاباً أسمّيه «الحلة السنية في الرحلة البوسنية» أذكر فيه سياحتي في هذه الأيام إلى بلاد المجر ويوغسلافية، وألخص فيه هذه المباحث إن شاء الله تعالى».

وعندما يتحدث الأمير شكيب في كتابه «تاريخ غزوات العرب» عن الإسماعيلية يقول: «وسنذكر شيئاً أوسع من هذا عن الإسماعيلية (أي مسلمي المجر)، في رحلتنا إلى بلاد المجر والبوسنة».

وجاء في مجلة الشباب، العدد ٤٠٥، ٦ تموز، ١٩٣٨، كلمة رثاء للأمير في سالم أفندي مفيتج وجمال الدين أفندي جاويش، وكانا رئيسين لمجلس علماء البوسنة والهرسك فقال:

«وإني لكاتب هنا على العجلة ما يحضرني بشأنهما، ولاسيما بشأن أخي سالم أفندي مفيتج على أن تكون هذه العجالة مقدمة بين يدي كتاب خاص مجموعة عندي مواده عن سياحاتي الثلاث إلى يوغسلافية. ولم يؤخرني عن ترتيبه وتمثيله سوى تراكم الشواغل وتزاحم الشواده».

وفي رسالة خطيه من الأمير شكيب أرسلان إلى الشيخ محمد رشيد رضا بتاريخ ٩ تشرين الأول ١٩٣٢، يقول في حاشيته بأعلاها:

(٢) مجلة الشباب، العدد ٣٧٦، ١٢ شوال، ١٣٥٦ هـ. ١٥ ديسمبر ١٩٣٧، وغير محتجنين: غير كاتمين أو محتجزين.

«قريباً نضع رسالة عنوانها «الحلة السنية في الرحلة البوسنية» نطبعها، عندكم إن شاء الله».

مدنيّة العرب:

وهو كتاب بقي مخطوطاً، ترجمه الأمير، عن غوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي. وفي (حاضر العالم الإسلامي)، الجزء الأول، صفحة ١٠٥، كتب الأمير، يقول:

«... لخصت كتابه في رسالة وجيزة تذكرة لنفسي، ثم بلغني أن الكاتب المصري محمد مسعود، قد ترجم الكتاب إلى العربية ترجمة تامة، ففضّلت طيّ رسالتي هذه على غرّها، منتظراً ظهور الترجمة الكاملة».

الجيش المعبَّأ من تاريخ أوروبا:

كتب الأمير شكيب إلى الشيخ محمد رشيد رضا، رسالة بتاريخ ٢ ذي الحجة، ١٣٤٣ هـ، ١٩٢٤ م، يقول له فيها:

«فإنني لما ذهبت إلى أوروبا شاباً سنة ١٨٩٢ م، كنت شرعت بكتاب أسميته «الجيش المعبَّا من أخبار أوروبا».

قضيتنا مع الخديوي:

وجّه رسالة بهذا الخصوص إلى الشيخ محمد رشد رضا، كتب في أوائل سنة ١٩٣٢، يشير فيها إلى خلافه مع الخديوي:

«أنا مباشر تأليف كتاب عنوانه «قضيتنا مع سمو الخديوي من أولها إلى آخرها». سأكتب فيه تاريخ علاقتي معه، ومعرفتي به، من يوم حرب طرابلس إلى اليوم، ولا أتعرض إلاّ لما عرفته بنفسي، وما تعلّق بي، إلاّ في الأمور التي تسوقها شجون الحديث، وسيخلو كتابي، من أي كلمة طعن أو سبّ، وإنما سأذكر الأمور كما وقعت». وعلى هامش الرسالة وضع هذه الملاحظة:

«على كل حال، كتابي على قضيتي مع سموه ينبغي أن يكون حاضراً».

ذكريات الحرب:

في رسالة كتبها الأمير إلى الشيخ محمد رشيد رضا، بتاريخ ٩ ديسمبر ١٩٢١، يشير فيها إلى مباشرته الإعداد لهذا الكتاب، فيقول:

«أما ما عملته أثناء الحرب من معاكسة جمال في أمر القتل والتعذيب، وما قمت به من خدمة أبناء الوطن بدون استثناء، ومن مساعدتي حتى لأعدائي، فكنت باشرت تحرير كتاب اسمه «ذكريات الحرب»، أي كما يقول الأتراك «خاطرات الحرب»، سيكون فيه كل شيء، فصرت أعجِّل الآن في تحريره وطبعه ليظهر كل شيء بالبرهان والدليل، بل بالإسناد والوثائق، لكن لما كنتم تطلبون شيئاً مختصراً مستعجلاً، ها أنذا مقدِّم لكم خلاصة صافية على حدة، انشروها، أو خذوا منها ما شئتم (للمنار)، ثم أعطوني رأيكم في اسم الكتاب هكذا، هل هو موافق أم لا؟».

ويشير أيضاً في رسالة أخرى، إلى أنه سيرسل إلى مجلة (المنار) عشرين صفحة لنشرها في المجلة المذكورة، وسيكتب فصلاً كاملاً عن المجاعة في لبنان في أثناء الحرب.

وفعلاً نشرت (المنار) فصولاً من هذا الكتاب تحت عنوان «كوارث سورية في سنوات الحرب»، في المجلدين الثاني والعشرين والثالث والعشرين، ونشرت جريدة (مرآة الغرب) حديثاً عن أسباب الحرب في سورية وقد بدأت نشره في ١٨ شباط ١٩٥٧، كذلك نشرت ٢١ حلقة عن الحرب العالمية الأولى، تحت عنوان «حديث مع الأمير شكيب» وآخر حلقة فيه في ٢٦ آيار ١٩٢٧.

* * *

بالإضافة إلى ما ذكرنا، هناك مخطوطات أخرى مازالت مجهولة ولم يعرف عنها شيء. وآخر مخطوطة طبعت للأمير هي «القول الفصل في ردِّ العاميّ إلى الأصل» وقد حقَّقها الدكتور اللغوي محمد خليل الباشا، وقد صدرت عن الدار التقدمية في المختارة ١٩٩٠. وقد وجدناها مهملة بين أوراق أمين خضر في مكتبته في بعقلين.

ويقول الأستاذ عارف النكدي، في مقال نشره في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلَّد ٢٢، ١٩٤٧، أن هناك كتاباً باسم «تاريخ لبنان» لديه نسخة منه.

وكتاب آخر بعنوان «التعريف بمناقب سيدي أحمد الشريف» وهو صديق عزيز للأمير. وتوجد رسائل متبادلة بينهما تدلُّ على إخلاص وثقة.

هذا مجمل ما نعرفه عن مخطوطات الأمير. وليس على علمنا أنه توجد مخطوطات غير التي ذكرناها. ونتمنى أن تسترجع مكتبة الأمير من المغرب حتى يتسنى لطلاب العلم والمعرفة الاطلاع عليها وبالتالي تحقيقها ونشرها بين الناس.

المصادر والمراجع:

- حاضر العالم الإسلامي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣.
- محمد رشيد رضا وأخاء أربعين سنة، ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٧.
- مجلة الشباب، ١٩٣٨.
- جريدة مرآة الغرب، نيويورك، ١٩٥٧.

وهذه مخطوطة للأمير شكيب لم نعثر منها إلاّ على صفحتين ٥٨ و٥٩ وفيهما ما يدلّ على ما لهذه المخطوطة من قيمة تاريخية وجغرافية وعلمية.

البوسناق الخ وكان المعدودين في الامة الالمانية اليوم ليسوا اصلهم جميعا المانا وان الفرنسيين ليسوا اصل جميعهم فرنسويين فاذا نظرنا الى اهالي سورية مثلا وهم الآن معدودون جميعا عربا نجد ان قسما منهم اصلهم عرب صراح النسب جاءوا وقت الفتح العربي من جزيرة العربية وقسما منهم جاءوا الى البلقاء وحوران قبل الفتح العربي الاسلامي وان قسما منهم هم من السريان والروم ومن اليهود ومن السامريين اسلموا شيئا فشيئا وان قسما اصلهم من الاتراك ومن الاكراد ومن الجركس اقاموا بسورية منذ ايام الدولة العباسية الى ايام الايوبيين الى ايام المماليك بمصر الى ايام بني عثمان فاستعربوا وان المسيحيين في سورية على الاطلاق يحسبون انفسهم اليوم من اولاد العرب والحقيقة ان الذين هم في اصل عربي هم عدد قليل وان الباقين هم من السلالة الآرامية والكلدانية والعبرانية والسريانية ثم هم من الساميين لكنهم ليسوا عربا ويوجد بدون شك بعض سلائل الروم واللاتينيين حتى ومن بقايا الصليبيين ولكن اللغة العربية والوطن العربي وحد بين كل هذه العناصر حتى صار جميع سكان سورية اليوم من حدود اسكندرونة شمالا الى جزيرة العرب عربا اذا انكرت على واحد منهم عربيّته او عروبيّته عدّها اهانة له

وكذلك اهل مصر منهم عرب صريحون ومنهم من القبط اهالي مصر القدماء قد اسلموا ومنهم من اصل فارسي ومنهم عدد عظيم من الاتراك والارناووط والجركس

وغير ذلك وكلهم اليوم جميعا معدودون فى الامة العربية حتى القبط الباقون على النصرانية [illegible] انفسهم [illegible] العرب [illegible]

وفى الممالك [illegible] امم قائمة بنفسها اختلف المؤرخون فى اصلها وبعضهم من اصل [illegible] وليس لهم لغة خاصة بهم ولكن العربية غلبت عليهم [illegible] ذكرت [illegible] الدنيا على وجه الاجمال اندمج فيها سكان المغرب الاقصى [illegible] والصحراء الكبرى وكذلك [illegible] الثالث [illegible] ابوسيطرى [illegible] النيجر وتمبكتو وغيرها [illegible] ليس الامر كذلك بل هم من سلائل [illegible] منهم من [illegible]

و بلاد الصومال و مملكة زنجبار هما معدودتان فى الممالك العربية ومثلها دار السلام وجزائر القومور و يوجد فى بلاد الكاب والترانسفال عرب كثيرون جالية الى هناك

واهالى العراق اكثرهم عرب اصلا و فصلا ولكن فيهم نصارى من النساطرة والسريان وصابئة وغيرهم و قد اندمجوا جميعا فى الامة العربية بسبب اللغة والوطن

و فى بلاد الهند عرب كثيرون وكذلك فى جزائر الهند مثل سنغافورة و فى جزائر البحر المحيط كجاوه وسومطره وان فى تلك الجزر التابعة لهولانده نحو ٤٠ مليونا من المسلمين يقوم بادارتهم العقلية نحو ١٠٠ الف عربى اكثرهم من حضرموت اليمن

[illegible]

[illegible] بلادنا [illegible] اغلبها اهل الموزونة لا اهلها [illegible] ولهم لهجة خاصة بهم . ولكن العربية [illegible] وكذلك الامم [illegible] في الدنيا على وجه الاجمال اندمج فيها سكان المغرب الاقصى [illegible] الاوسط [illegible] سنغال في الصحراء الكبرى وكذلك [illegible] السودان [illegible] في بلاد النيجر وتمبكتو وغيرها [illegible] كثيرون من العرب [illegible] حتى يظن انهم منهم . وليس الامر كذلك بل هم من سلائل العرب [illegible] من الانساب المعروفة .

و بلاد الصومال و مملكة زنجبار هما معدودتان في الممالك العربية ومثلها دار السلام وجزائر القومور و يوجد في بلاد الكاب والترانسفال عرب كثيرون جالية الى هناك .

واهالي العراق اكثرهم عرب اصلاً و فصلاً ولكن فيهم نصارى من النساطرة والسريان وصابئة ونحوهم وقد اندمجوا جميعاً في الامة العربية بسبب اللغة والوطن .

و في بلاد الهند عرب كثيرون وكذلك في جزائر الهند مثل سنغافورة و في جزائر البحر المحيط كجاوه وسومطره وفي تلك الجزر التابعة لهولانده نحو ٤٠ مليونا من المسلمين يقوم بادارتهم العقلية نحو ١٠٠ الف عربي اكثرهم من حضرموت اليمن

[redacted]

لابد ... ودولة جميعاً ... ان قسماً منهم اصلهم عرب من اعراب النبط جاءوا
وقت الفتح العربي من جزيرة العرب وقسماً منهم جاءوا الى البلقاء وحوران قبل
الفتح العربي الاسلامي وان قسماً منهم هم من النصرانيين الى اليوم ومن اليهود ومن
السامريين اسلموا سياسياً وقسياً وان قسماً اصلهم من الاتراك ومن الاكراد
ومن الجركس اقاموا بسورية منذ ايام الدولة العباسية الى ايام الايوبيين الى ايام
المماليك بمصر الى ايام بني عثمان فاستعربوا وان المسيحيين في سورية على
الاطلاق يحسبون انفسهم اليوم من اولاد العرب والحقيقة ان الذين هم في اصل
عربي هم عدد قليل وان الباقين هم من السلالة الآرامية والكلدانية
والعبرانية والنصرانية ثم هم من الساميين لكنهم ليسوا عرباً ويوجد بدون
شك بعض سلائل الروم في اللاتينيين حتى ومن بقايا الصليبيين ولكن اللغة
العربية والوطن العربي وحد بين كل هذه العناصر حتى صار جميع سكان
سورية اليوم من حدود اسكندرونة شمالاً الى جزيرة العرب عرباً اذا انكرت على واحد
منهم عربيته او عروبيته عدها اهانة له

وكذلك اهل مصر منهم عرب صريحون ومنهم من القبط اهالي مصر القدماء قد
اسلموا ومنهم من اصل فارسي ومنهم عدد عظيم من الاتراك والارناووط والجركس

للمؤلف

١ - «دموع الوداع» - مجموعة قصصية - ١٩٦٣.

٢ - «ثمن الخطيئة» - رواية اجتماعية - دار الكاتب العربي، ١٩٦٥.

٣ - «تذكرة سفر إلى لبنان» - كتاب سياحي - ١٩٧١.

٤ - «رحلة إلى لبنان» - كتاب سياحي بالإنكليزية - ١٩٧٢.

٥ - «رفيق السائح إلى لبنان» - كتاب سياحي بالإنكليزية - ١٩٧٣.

٦ - «تعليم اللغة العربية للأجانب» - كتاب لغوي - ١٩٧٥.

٧ - «الحيُّ الغربيُّ» - مجموعة قصصية - سرفي برس، ١٩٨٤.

٨ - «رجال من بلادي» - جزء أول - سير رجال - دار الريحاني - ١٩٨٤.

٩ - «رجال من بلادي» - جزء ثاني - سير رجال - دار الريحاني - ١٩٨٦.

١٠ - «شعراء من جبل لبنان» - دار الريحاني للطباعة والنشر - ١٩٨٧.

١١ - «أمين تقي الدين الشاعر والناثر» - دراسة - دار العلوم العربية - ١٩٩٠.

١٢ - «شعراء عرب معاصرون» - دراسات ومختارات - دار المناهل - ١٩٩١

١٣ - «أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه» - الدار الجامعية - ١٩٩٢.

١٤ - «طرائف الشعراء في مجالس الأدباء» - دار المناهل - ١٩٩٤.

١٥ - «من آثار أمير البيان في الشعر والنثر» - الدار الجامعية - ١٩٩٦.

الفهرس

الفصل الثالث: من هنا ومن هناك